اليهود فى الأدب الإنجليزى

من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين



دكتور رمسيس عوض



اليهود فى الأدب الإنجليزى

من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين

دكتور رمسيس عوض



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

عوض ، رمسيس
اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين/ رمسيس عوض. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٤٠ ص أبيض ، ٢٠ سم
تدمك ٠٥٨٠ ٠ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية القصيرة
(أ) العنوان :

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٠٩٥ / ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 058 - 0

ديوى ٨١٣,٠١

الإخراج الفنى

عمر حماد على

مقدمة

لمحة تاريخية عن اليهود فى إنجلترا:

كان اليهود قبل طردهم من إنجلترا عام ١٢٩٠ يعيشون تحت حماية العرش البريطانى بحيث لا تطبق عليهم نفس القوانين التى تطبق على الإنجليز، ولا غرو فقد كانوا يخضعون للعرش مباشرة، وبطبيعة الحال كانت هذه التبعية تضعهم تحت رحمة هذا العرش وأهوائه، كما أن هذه الحماية الملكية المباشرة أوغرت صدور كثير من الإنجليز ضدهم، ولم يكن مسموحًا لليهود الأوائل الانضمام إلى نقابة الحرفيين فى القرون الوسطى المعروفة باسم Guilds أو الاشتغال بالزراعة أو الالتحاق بالوظائف الحكومية، وأمام هذه القيود المكبلة لم يجد اليهود قدامهم أية فرصة غير الاشتغال بالأعمال المصرفية؛ الأمر الذى مكنهم من الثراء واكتناز الأموال الضخمة التى دأب الملوك على اقتراضها ثم مصادرتها أو الاستيلاء عليها عن طريق فرض المكوس والضرائب الفاحشة بهدف تمويل الحملات الصليبية أو بناء الكاتدرائيات المسيحية الفخمة، وشاع بين الإنجليز أن اليهود اعتادوا إقامة طقوسهم الدينية عن طريق سفك دماء الصبية المسيحيين وانتزاع أعضاء الذكورة منهم؛ ولهذا كان الإنجليز أحيانًا يبادرون بمصادرة أموالهم عقابًا لهم على سفك دماء المسيحيين الصغار الأبرياء، ولعل أشهر إشاعة عن حادثة سفك دم فى إنجلترا من هذا القبيل هى تلك التى قيل إنها وقعت للصبى المسيحى هيو أف لنكولن عام ١٢٥٥ حيث تولى الملك هنرى الثانى بنفسه الإشراف على تعذيب وشنق اليهودى المتهم بارتكاب هذه الجريمة النكراء، عندئذ لم يتورع ملك بريطانيا عن السماح بطريقة غير مباشرة للدهماء بنهب يهود يورك وحرقهم والاعتداء على حياتهم، ومعنى ما تقدم أن اليهود

تعرضوا للخسف والاضطهاد لأنهم رفضوا الانصهار فى المجتمع الإنجليزى، وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن يتعرض اليهود للاضطهاد بسبب إصرارهم على الانعزال عن المجتمع فى حين أن مجمع لاتيران الدينى المنعقد عام ١٢١٥ قرر إجبار اليهود على لبس شارة مميزة تحول بينهم وبين الاندماج فى المجتمع.

وبعد استنفاد موارد اليهود لجأ العرش البريطانى إلى تضييق الخناق عليهم وفرض عليهم الملك إدوارد الأول قيداً مزدوجاً عندما استن قانوناً يحرم على اليهود الاشتغال بالربا، ويسمح لهم بالاشتغال بالأعمال الصغيرة والحرف والزراعة فى حين حرمتهم من عضوية النقابات الحرفية وهى شرط لازم لممارسة أى عمل، ولما كانت إنجلترا أول بلد فى أوروبا يقدم على طرد اليهود من أراضيه فقد كال مجمع لاتيران المديح والثناء على همة ملكها.

ظل اليهود لمدة ٣٧٤ سنة غائبين عن إنجلترا وذلك فى الفترة الممتدة من ١٢٩٠ حتى ١٦٥٦ باستثناء حالات قليلة كانت العائلة المالكة الإنجليزية تستقدم أفراداً منهم للعمل كأطباء فى البلاط الملكى، وكان هؤلاء الأطباء يتعرضون للاضطهاد ويعتبرون سحرة إذا فشلوا فى علاج الملوك والملكات وذويهم، وعلى الرغم من غيابهم عن الأراضى البريطانية فقد ظهرت لهم صورة نمطية استمرت حتى العصر الحديث، وهى صورة شيطانية مفزعة أحياناً وتبعث على الضحك أحياناً أخرى، هذه الصورة النمطية لليهودى اتسمت ببعض الخصائص فهى إما لرجل بخيل مقتر كثير التلويح والتشويح بيديه وشهوانى يملك طاقة جنسية هائلة أو لرجل مخنث بصورة تدعو إلى الانزعاج. هذا هو اليهودى كما درجت قصائد البالاد ومسرحيات المعجزات والأسرار المعروفة فى القرون الوسطى على تصويره، وقد استمرت هذه الصورة شائعة عند كبار الأدباء الإنجليز أمثال تشوسر ومارلو وشكسبير.

ثم بدأ اليهود تدريجياً فى العودة إلى إنجلترا فى الفترة من ١٦٣٠ حتى ١٦٦٤، غير أن وجودهم فيها لم يكن له أية شرعية أو صفة قانونية، الأمر الذى اضطر الملك تشارلز الثانى (بعد عودته من منفاه فى فرنسا إلى إنجلترا عام ١٦٦٠) إلى اتباع سياسة قبولهم فى البلاد بهدوء ودون إثارة أية مشاكل أو عقبات قانونية.

وفى عام ١٧٣٥ تقدم البرلمان الإنجليزى بمشروع منح الجنسية الإنجليزية لليهود المقيمين فى إنجلترا لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر وبالسماح لليهود المتجنسين بالجنسية الإنجليزية بامتلاك الأراضى، ولكن هذا المشروع تسبب فى إثارة أعمال العنف والشغب بين الجماهير الإنجليزية الساخطة، مما اضطر الحكومة الإنجليزية إلى سحب اقتراحها، وبطبيعة الحال استوعب يهود إنجلترا هذا الدرس القاسى الذى علمهم أن يكتفوا بلعب دورهم فى إنعاش الاقتصاد من وراء الستار دون الظهور للعيان، ومعنى ذلك أن اليهود آنذاك كانوا مطالبين بالعمل على زيادة نمو إنجلترا الاقتصادى دون أن يكون لهم أى كيان مستقل ودون المطالبة بأى حقوق مدنية، وقد شاهدت هذه الفترة إنشاء «هيئة ممثلى اليهود» التى استوعبت أيضًا الدرس جيدًا، غير أن اليهود المهاجرين من روسيا وأوروبا الشرقية إلى إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بدءوا على استحياء يلوحون فى أفق الحياة الإنجليزية، ولكن «هيئة ممثلى اليهود» طالبتهم بالاختفاء عن الأنظار ومداراة أنفسهم حتى لا يجلبوا على أنفسهم نقمة أصحاب البلاد الأصليين أو يثيروا بتصرفاتهم عداوة الإنجليز ضدهم، ومعنى هذا أن «هيئة ممثلى اليهود» المتضافرة مع السلطات البريطانية كانت تشجع اليهود على التخلى عن القيم اليهودية المتوارثة فى سبيل تجنب نقمة الإنجليز عليهم، ورغم ذلك فما أن هبطت أعداد غفيرة من اليهود أرض إنجلترا هربًا من المجازر الروسية التى وقعت فى أواخر القرن التاسع عشر حتى بدأت الشحناء تظهر بين الإنجليز واليهود، واتخذت هذه المشاحنات والخلافات شكلا عرقيًا ودينيًا أى بين المسيحية واليهودية وبين غير اليهود واليهود، والجدير بالذكر أن هذه التفرقة الدينية ليست جديدة فهى ترجع إلى القرون الوسطى، ولكن الجديد أن نرى هذه التفرقة تتخذ شكلا عنصريًا قائمًا على الاعتقاد بوجود هوة عرقية سحيقة لا يمكن تخطيها تِفصل بين اليهودى والإنجليزى وأن هذه الهوة العرقية تجعل من المستحيل على اليهود الاندماج فى المجتمع الإنجليزى لأن اليهودى بطبعه جبان ومنحط وجشع ويميل إلى السيطرة على الآخرين والتحكم فى العالم المسيحى بأسره.

ولعبت بروتوكولات حكماء صهيون (١٩٠٣) دورًا كبيرًا فى الترويج لفكرة تآمر اليهود من أجل السيطرة على العالم كله رغم ثبوت أن قيصر روسيا هو الذى أمر

بتزوير البروتوكولات، وتماشيًا مع نظرية وجود مؤامرة يهودية على العالم اعتقد الكثيرون أن اليهود هم السبب فى إشعال حرب البوير فى جنوب إفريقيا فى الفترة من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٠٢ والحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد آمن اللورد بيفر بروك بنظرية المؤامرة اليهودية وعبر عن إيمانه عام ١٩٣٨ قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية إذ قال: «إن اليهود قد يدفعوننا إلى الحرب.. فنفوذهم السياسى يحركنا فى اتجاهها»، فضلا عن أن اليمين السياسى فى إنجلترا وقطاعات كبيرة من الرأى العام الإنجليزى حملت اليهود مسئولية الفساد الحكومى المستشرى فى بريطانيا والمتمثل فى فضيحة ماركونى «فى الفترة من عام ١٩١١ حتى عام ١٩١٣» وأيضًا حملهم كثير من الناس مسئولية الكساد العظيم الذى ساد العالم عام ١٩٢٩». كما أنهم اعتبروا اليهود مسئولين عن إضرام الثورة البلشفية فى روسيا عام ١٩١٧، كمجرد مقدمة لاجتياح العالم كله، حتى «عصبة الأمم» كانت فى نظر عدد من الناس أداة صنعها اليهود لخدمة مؤامراتهم.

خشيت بريطانيا من تدفق اليهود المهاجرين من روسيا وأوروبا الشرقية إليها فى أوائل القرن العشرين ففكرت فى إبعادهم عنها وتوطينهم فى فلسطين وشمال إفريقيا، وراق وعد بلفور الصادر عام ١٩١٧ فى عيون الكثير من البريطانيين لدرجة أن الزعيم السياسى اليمينى هـ، هـ، بيميش Beamish عبر عن فرحته به وكتب يقول: إنه ينبغى إرغام اليهود على العيش فى فلسطين تمامًا كما تعيش الأفاعى والحشرات الأخرى فى الغابات وليس فى بيوت الناس، حتى الكاتب الكبير هـ، ج، ويلز وجد فى فترة من حياته أن فكرة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فكرة عاقلة وعملية تمامًا.

وإذا كان بعض الإنجليز قد رحبوا بفكرة إنشاء وطن قومى لليهود بسبب رغبتهم فى التخلص منهم فإن عددًا آخر حمل حملة شعواء على الصهاينة الذين أتوا إلى أرض فلسطين لاستعبادها، ولعل أبرز جهات إعلامية تصدت للهجوم على الصهيونية آنذاك هى صحيفة «باتريوت»، و«المورنينج بوست»، و«الاسبكتاتور»، و«التايمز»، و«الديلى ميل»، و«الديلى إكسبريس»، و«الصنداى إكسبريس»، وكتب اللورد نورثكليف صاحب صحيفة التايمز تقارير فى فلسطين جاء فيها أن هذا البلد

العربى كان ينعم بالسكينة والهدوء حتى جاء اليهود الراغبين فى السيطرة وفرض السطوة فعكروا صفوه، كما أن دابليو إ، ب، ويتاكر المراسل الخاص لصحيفة الديلى إكسبريس فى فلسطين وصف الصهاينة بالحثالة التى تمثل خطرًا على المرأة الأوروبية، ولكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن عموم الشعب الإنجليزى استهجن فكرة توطين اليهود فى فلسطين للتخلص من هؤلاء الأغراب الذين ينغصون على الإنجليز حياتهم، والذى يؤكد رغبة الإنجليز فى استبعاد هؤلاء اليهود عن أراضيهم، أن البرلمان الإنجليزى فى العقد التالى للحرب العالمية الأولى اتخذ سلسلة من الإجراءات فى مقدمتها سن قانون الأغراب لعام ١٩١٩ الذى سمح باستبعاد اليهود غير المرغوب فيهم عن البلاد كما تضاءلت فرص هؤلاء اليهود فى الإسكان والتعليم وشغل الوظائف، غير أن حال اليهود فى إنجلترا مهما ساء كان أفضل من حالهم فى البلاد الأوروبية الأخرى بسبب رسوخ التقاليد الليبرالية فى بريطانيا.

وفى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ظهرت جماعة صغيرة من الإنجليز سلكت سبيل الفاشية والنازية فى كراهيتهما لليهود، ولكن هذه الجماعة لم يقيض لها الذيوع والانتشار بين الجماهير العريضة فى بريطانيا، كما ظهرت فى صفوف البرجوازية البريطانية فئة قليلة من أعداء السامية ممن نأوا بأنفسهم عن استخدام العنف، أطلق عليها بعض المؤرخين «عداوة الصالونات ضد السامية» ولا شك أن اليمينى المتطرف أزوالد موسلى Oswald Mosley زعيم اتحاد الفاشيين البريطانيين كان على رأس قائمة المعادين للسامية ممن استخدموا العنف ضد اليهود، والجدير بالذكر أن عددًا كبيرًا من الإنجليز المعادين للسامية كانوا يمقتون الألمان بقدر مقتهم لليهود كما أن البعض الآخر اعتبر كلا من ألمانيا وبريطانيا ضحيتى النفوذ اليهودى الهدام، وبعد قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ أكدت الكاتبة بستا ويستر أن اليهود الذين روجوا للثورة ينفثون سموم البلشفية فى الأراضى الألمانية تمامًا مثلما تفعل ذبابة التسى تسى المعروفة.

والغريب أن بعض الذين اشتهروا بالدفاع عن اليهود مثل ونستون تشرشل عارضوا هجرة اليهود على نطاق واسع إلى بريطانيا، ففى عام ١٩١٨ كتب تشرشل

إلى لويد جورج يحذره من السماح بزيادة عدد اليهود في بريطانيا، فضلا عن أن تشرشل شن هجومًا عليهم بعد ذلك بسبب دورهم النشط في إشعال نار الثورة البلشفية، وأيضًا عبر اللورد لندنبرى وزير خارجية بريطانيا في الفترة من ١٩٣١ حتى ١٩٣٥ عن مشاعر مماثلة عندما كتب خطابًا في عام ١٩٣٦ إلى السفير الألماني في إنجلترا قال فيه: «إنني لا أحمل الود العظيم لليهود ويمكننا أن نتتبع إسهامهم في إثارة القلاقل الدولية التي خلقت كثيرًا من الفوضى في بلاد مختلفة».

ويتهم بعض اليهود السلطات البريطانية بوضع عصابة على عينها حتى لا ترى اضطهاد هتلر لبني إسرائيل وحتى تبرر عدم فتحها باب الهجرة أمامهم عندما كان هتلر يسومهم مر العذاب، كان تشامبرلين يرأس الوزارة البريطانية قبل نشوب الحرب العالمية الثانية وبالتالي كان البريطاني الوحيد الذي يستطيع إنقاذ اليهود من براثن هتلر، غير أن تشامبرلين لم يكن يحب اليهود فهو يقول: «لا شك أن اليهود ليسوا شعبًا محبوبًا وأنا شخصيًا لا يعنيني أمرهم»، ومن المعروف أن تشامبرلين هو الذي جعل هتلر يتمادى في غيه وعدوانه باتباع سياسة المهادنة معه وعدم أخذ صرخات اليهود من أهوال النازية بالجدية اللازمة.

قلنا: إن الحكومة البريطانية اتبعت قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها سياسة تهدف إلى تقليص عدد اليهود المهاجرين إليها، واتبعت ألمانيا النازية مع اليهود سياسة الطرد والإبعاد من أراضيها في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤١، ولكن السياسة النازية تحولت في أكتوبر عام ١٩٤١ من الطرد الجماعي لليهود إلى الإبادة الجماعية لهم، وفي هذا العام (١٩٤١) منعت ألمانيا اليهود من مغادرة البلاد، غير أن عددًا من اليهود استطاعوا في الفترة السابقة على هذا التاريخ الهجرة إلى أثيوبيا وشمال إفريقيا وبعض البلاد التي أبدت استعدادًا لقبولهم، وكما أسلفنا يتهم اليهود إنجلترا بأنها في تلك الفترة وضعت العراقيل أمام هجرتهم إليها في حين أنها فتحت باب الهجرة على مصراعيه أمام اليوغسلافيين واليونانيين والهولنديين والبلجيكيين، ويذكر بعض المؤرخين أن الولايات المتحدة أنحت باللائمة على بريطانيا لتقاعسها في مد يد العون إلى اليهود المضطهدين، ولكن يبدو أن هذا التقاعس كان على المستوى الرسمي حيث إن استطلاعات الرأي بين الشعب

البريطانى تدل على أن غالبية هذا الشعب عارضت سياسة الحكومة ورحبت بهجرة اليهود إلى بريطانيا، ولكن هذا التعاطف الشعبى مع اليهود لم يدم طويلا بعد أن طيرت وكالات الأنباء قيام الصهاينة فى فلسطين بقتل شاوشين إنجليزيين عام ١٩٤٧ الأمر الذى أثار غضب الجماهير البريطانية التى انخرطت فى أعمال شغب ضد السامية.

أول دراسة عن اليهود فى الأدب الإنجليزى:

فى عام ١٩٥١ نشر دافيد فيليبسون David Philipson كتابًا بعنوان «اليهود فى الرواية الإنجليزية The Jaw in English Fietion» وهو أول دراسة تتناول اليهود فى الأدب الإنجليزى، ويناقش المؤلف فى هذه الدراسة شرعية معالجة موضوع اليهود فى الأدب الإنجليزى ويتشكك فى هذه الشرعية لأنه يرى أنه طالما أن اليهودى الإنجليزى قد ترك الحى اليهودى والعادات اليهودية وأصبح يتصرف كما يتصرف الإنجليز وتحركه نفس مشاعرهم الوطنية فليس هناك إذًا معنى لتناول الأدباء الإنجليز موضوع اليهود فى إنتاجهم الأدبى إلا إذا كان هدفهم من وراء ذلك تصويره كمعتنق للدين اليهودى، ويضيف فيليبسون أن جورج إليوت هى الأديبة الإنجليزية الوحيدة التى نجحت فى تصوير اليهودى على هذا النحو فى روايتها المعروفة دانييل ديروندا Daniel Deronda، والجدير بالذكر أن دراسة دافيد فيليبسون تغطى فترة زمنية طويلة تمتد من عام ١٥٩٠ حتى عام ١٩٠٠، ويسعى فيليبسون من وراء كتابه إلى إقناع غير اليهود بأنه يمكن لليهودى أن يتصرف بطريقة عادية وينتهج نفس المنهج الذى ينتهجه البرجوازى الإنجليزى، ويهاجم فيليبسون الكتب المؤلفة عن اليهودى التى تحض على معاداة السامية وتسمم أفكار الناس ضدهم، ولهذا نراه يتهم الكاتب المسرحى الإليزابيثى الكبير كريستوفر مارلو مؤلف مسرحية «يهودى مالطا» (١٥٩٢) بالشطط فى تأليب الناس ضد اليهود، وحتى يثبت أن الأدب الإنجليزى لا يتحرى الدقة أو الصدق فى تصوير شخصية اليهودى نراه يقول: إن هذا الأدب على مدار العصور درج على اتهام اليهود زورًا وبهتانًا بأنهم قلة من المرابين الجشعين فى حين أن الاشتغال بالربا لم يكن قاصرًا على اليهود إذ كان المسيحيون يمارسونه بصورة أبشع، فضلا عن أن فيليبسون

يسعى جاهدًا إلى إثبات أن المهاجر اليهودى الجديد يفتقر إلى الثقافة والتهذيب ويتسم بالفظاظة والخشونة، ولكنه يستطرد قائلا: إن المهاجرين الأيرلنديين والفرنسيين الجدد كانوا كذلك حيث إن الثقافة تحتاج إلى وقت حتى تترسخ فى أعماق الأفراد، فإذا شئنا أن نصدر حكمًا عادلا على اليهود فعلينا الاستشهاد بمسلك العائلات اليهودية العريقة والمستقرة، وليس بمسلك اليهود المهاجرين الجدد، ويقول فيليبسون: إنه يحب شكسبير ولكن يعيب عليه تحيزه ضد شيلوك، وأيضًا يحدثنا فيليبسون عن شخصية اليهودى فاجن الذى تزعم عصابة السطو فى رواية ديكنز المعروفة «أوليفر تويست» فيقول: إن نية ديكنز فى بادئ الأمر كانت الحط من شأن اليهود ولكنه أصلح خطأه فى رواية «صديقنا المشترك»، وينوه فيليبسون بسعى اليهود إلى الاندماج فى المجتمع الإنجليزى بسرعة فائقة، ويقول: إنه من المؤسف أن الأدباء الإنجليز فاتهم أن يلاحظوا سعيهم الحثيث إلى الانصهار فى بوتقة المجتمع الإنجليزى، وحتى يؤكد صحة وجهة نظره نراه يبنى ما حققه زعماء اليهود فى هذا المجتمع من نجاح وما أصابوه من ازدهار.

الحبر اليهودى إدوارد كاليش:

ألف الحبر اليهودى إدوارد كاليش Edward Calisch عام ١٩٠٩ كتابًا بعنوان «اليهودى فى الأدب الإنجليزى كمؤلف وكموضوع The Jew in English Literature as Author and Subject»، وفيه يذهب إلى أن العالم أساء الحكم على اليهود وأخطأ فى فهمهم، وأبرز إدوارد كاليش فى كتابه الفرق الكبير بين الكُتّاب الإنجليز الذين يعضدون اليهود دون مواربة مثل ريتشارد كمبرلاند فى مسرحية «اليهودى» (١٧٩٤) ووالتر سكوت فى روايته «إيفانهو» (١٨١٩) وجورج إليوت فى روايتها «دانييل ديروندا» (١٨٧٦) وبين الذين هاجموا اليهود فى أعمالهم الأدبية بضراوة بالغة مثل مارلو فى مسرحيته «يهودى مالطا» (١٥٩٢) ووليم شكسبير فى مسرحية «تاجر البندقية» (١٥٩٤) وتشارلز ديكنز فى رواية «أوليفر تويست» (١٨٣٨)، ويهدف كاليش من وراء هذا إلى الدفاع عن اليهود وعرض سيل الشتائم القانعة التى يتعرضون لها، ويعبر المؤلف عن اعتقاده أن اليهود حققوا أخيرًا وبعد طول معاناة

قدرًا عظيمًا من السعادة ويؤكد استمساكهم المدهش بدينهم وولائهم المطلق لإنجلترا رغم قرون الاضطهاد والقمع المروع التى واجهوها.

بدأ كاليش كتابه بدراسة مسرحيات وأشعار بالاد القرون الوسطى، ولعله أول كاتب إنجليزى يبرز ما للإنجيل من أثر بالغ السوء فى تشويه صورة شعب إسرائيل، فضلا عن أنه حمّل الكنيسة مسئولية اختلاف أكذوبة أن اليهود يسفكون دم الأطفال المسيحيين من أجل ممارسة طقوسهم، كما أنه ينحى باللائمة على المؤرخين الأولين (ماثيو باريس Mathew Paris – جون سبيد John Speed – رالف هولنشيد Ralph Holinshed) الذين يسردون بدم بارد الكوارث التى تعرض لها اليهود دون إظهار أى عطف عليهم، ويهاجم كاليش شكسبير هجومًا عنيفًا لأنه أساء إلى اليهود إساءة مروعة حين رسم شخصية شيلوك دون أن تكون له أية معرفة شخصية باليهود معتمدًا على تقليد صورة اليهودى كما رسمها أسلافه ويضيف كاليش أن فكرة التشفى والانتقام التى ألحت على عقل شيلوك أبعد ما تكون عن الحقيقة والواقع لأن الانتقام ليس فى خصال اليهودى، ويأسف كاليش لأن شكسبير جعل الشر يقترن بالشخصية اليهودية بل بالدين اليهودى فى حين أنه فى تصويره للمسيحيين الأشرار لم يحاول الربط بين شرهم وديانتهم.

وكذلك حذا كاليش حذو سلفه فيليبسون فى تقريع تشارلز ديكنز ولومه على الصورة القميئة التى رسمها لليهود فى شخصية فاجن، ولم يغفر كاليش لديكنز هذه الغلطة الفظيعة، ولم يشفع لديكنز لديه أنه غير موقفه العدائى من اليهود فى رواية «صديقنا المشترك».

م. ج. لاندا:

واصل لاندا M. J. Landa المنحدر من عائلة أنجلو-يهودية هجومه على الأدباء الإنجليز الذين قدموا اليهود فى صورة منفرة فى كتابه المهم «اليهودى فى الدراما» The Jew in Drama ١٩٢٦، وترجع أهمية كتابه إلى احتوائه على حصر شامل لكل المسرحيات التى تتضمن شخصيات يهودية منذ البداية حتى زمانه، ويحمل لاندا

أكثر من أسلافه الأدب الإنجليزى بوجه عام وشكسبير بوجه خاص مسئولية تحامل شعوب الأرض قاطبة وتحيزها ضد اليهود عبر العصور والأزمان وأنه نشر طاعون معاداة السامية فى كل مكان وكل الأجواء كما اتهمه ببلورة كراهية القرون الوسطى لليهود وأعطى الدهماء سلاحًا سهلا للقمع سوف يستمر إلى الأبد، والرأى عنده أن عملية تحرير اليهود فى إنجلترا كانت تنمو نموًا طبيعيًا وخطوة بخطوة حتى ظهرت شخصية فاجن القميئة التى رسمها ديكنز لتوقف عجلة هذا التحرر، ويضيف لاندا إلى ذلك قوله إن وضع اليهودى السيئ استمر على ما هو عليه «حتى جاء عام ١٨٥٨» لنرى يهوديًا يسمح له أن يصبح عضوًا فى البرلمان.

مونتاجيو مودر Montagu Modder:

فى عام ١٩٣٩ نشر مونتاجيو مودر كتابًا عن اليهود بعنوان «اليهود فى الأدب الإنجليزى حتى نهاية القرن التاسع عشر» The Jew in the Literature of England: To the End of the 19th Century، ويشوب كتاب مودر عيب خطير يتلخص فى تناقضاته، وعلى أية حال يسعى مودر إلى إثبات تحسن أحوال اليهود فى إنجلترا الأمر الذى يبشر بالخير والتفاؤل، يقول مودر: «لم يعد من الممكن ممارسة الطغيان الوضيع مع اليهود بنفس حصانة الماضى حيث إن الكلمة المكتوبة أصبحت سلاحًا فى الحرب الحديثة، هذه الكلمة المكتوبة أصبحت صديق اليهودى المدافع عنه»، والرأى عند مودر أن الأدب لا يصور الحقيقة بالضرورة، فبعض الكُتّاب يختلقون أمورًا تتعارض مع الواقع وتشوهه عن عمد مثل تشويه البعض لصورة اليهودى، فاليهودى فى الواقع أكثر إيجابية ويغاير الصورة السلبية النمطية التى يحلو للأدب الإنجليزى رسمها، وهو يتفق مع كاليش فى الرأى القائل بأن شكسبير يكذب ولا يلتزم بالواقع عندما يقدم لنا شخصية شيلوك، ويضيف: إن ديكنز بعكس شكسبير كان يعرف اليهود معرفة وثيقة، ولكن اليهود الذين عرفهم فى حياته كانوا من أسوأ خلق الله الأمر الذى يفسر فكرته السيئة عنهم دون أن يعنى هذا أنه كان معاديًا للسامية.

ويدحض مودر رأى الناقد هيلير بيلوك Hilair Belloc القائل بأن ديكنز يكره اليهود، فديكنز فى نظره لا يضمر أى مقت لهم «ولكنه يصف شريرًا فى أوكار لندن تصادف أنه من أصل يهودى، ويرجع الفضل إلى مودر فى أنه قدم لنا لأول مرة على مستوى النقد الأدبى تصنيفًا للشخصيات اليهودية فى الأدب الإنجليزى مثل «شيلوك المتجول» و«اليهودية كبطلة وفتاة ودودة» و«اليهودى كبطل على غرار شخصية كونجسين التى رسمها دزائيلى».

هيرمان سينشمير Hermann Sinshaimer:

ألف الكاتب الألمانى هيرمان سنشمير كتابه «شيلوك: تاريخ شخصية» أثناء الحكم النازى الذى قام بمصادرته عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧، غير أن المؤلف نجح فى نشره فى إنجلترا عام ١٩٤٧، ويتناول المؤلف شخصية شيلوك باعتبارها تجسيدًا لليهودى الجائل ويهوذا الخائن والمرابى اليهودى الجشع، وينصرف هذا الكتاب إلى فحص وتمحيص النص الشكسبيرى لـ «تاجر البندقية».وفيه يبذل المؤلف قصارى جهده كيهودى نشأ وترعرع فى ألمانيا دون أن يشعر فى قرارة قلبه بانتماء لها متشبثًا بشكسبير الذى أحبه من سويداء قلبه وساعيًا قدر طاقته لتبرئته من معاداة السامية، عبر هيرمان سينشمير عن سخطه عن أسلوب ألمانيا النازية فى تقديم شيلوك كشخصية منفرة متعطشة للدماء ومبعثًا للضحك والاستهزاء، يقول هيرمان فى هذا الشأن: «لابد وأن شكسبير تبين أن هناك خطأ فى كيفية معاملة اليهود كما أنه آثر الوقوف دون مواربة إلى جانبهم لأنهم مضطهدون ومجروحون، ويشوب الكتاب التناقض فتحمسه لأدب شكسبير لا يمنعه من القول إنه كان ينبغى عليه أن ينهى محاكمة شيلوك بالانتصار له، أى أنه يريد لأحداث المحاكمة أن تجرى على غير ما أراده شكسبير، وعلى كل حال كان المؤلف هيرمان يرمى إلى القول بأنه لا يجب على أعداء السامية أن يعتبروا شكسبير واحدًا من أنصارهم».

برنارد جريبانير Bernard Grebanier:

لم يتحر برنارد جريبارنير فى كتابه «حقيقة شيلوك» (١٩٦٢) The Fruth about Shylock تمحيص النص الشكسبيرى لمسرحية «تاجر البندقية» مثلما فعل هيرمان

سينشمير، والرأى عند برنارد أن يهودية شيلوك شىء عارض ومجرد مصادفة وأن الذين يعتبرونه ممثلا لليهود هم الذين لديهم حساسية خاصة ضد اليهود، ويستطرد برنارد أن الموضوعية تقتضى منا الاعتقاد بأن كل الشعوب تحتوى على أبرار وأشرار، ويتهم البعض عدداً من أثرياء اليهود بإمداد هتلر بالمال، ويخلص المؤلف إلى تبرئة شكسبير من تهمة معاداة السامية لأنه لو كان معاديًا لها حقًا لما فات النظام النازى استخدام مسرحية «تاجر البندقية» كسلاح للحط من شأن اليهود، والنازيون لم يفعلوا هذا لأنهم كانوا يفهمونها على حقيقتها ويفهمون أيضًا أن شكسبير لم يكن مناهضًا لليهود بأية حال.

الحبر اليهودى جوشوا ترانشينبرج Rabbi Joshua Trachranberg:

يصنف جوشوا تراشينبرج كتابه «الشيطان واليهود: مفهوم العصور الوسطى عن اليهود وعلاقة هذا المفهوم بمعاداة السامية الحديثة (١٩٤٣) The Medieval Conception of Jews and Its Relation to Modern Artisemitism بأنه دراسة ثقافية أكثر من كونها دراسة نقدية أدبية، وهو يذهب إلى أن دراسته ليست منبتة الصلة بعملية إبادة اليهود فى أوروبا مضيفًا أن حاضر اليهود مرتبط بماضيهم، ويقول جوشوا فى هذا الشأن: «إذا كان اليهودى فى يومنا الراهن محتقراً ومبعثًا للخوف فالسبب يرجع إلى أننا ورثنا هذه الفكرة فى القرون الوسطى، فاليهودى كشخصية شيطانية تعادى الإنسانية مثلما صورتها عقلية القرون الوسطى لا تزال مسيطرة على خيال الناس».

وتتميز دراسة جوشوا باهتمامها أكثر من دراسات أسلافه باستجلاء الأسباب الداعية لمعاداة السامية فهو يردها إلى كراهية الأجانب وتضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية وأساليب الدعاية التى يستخدمها الديماجوجيون وحاجة الإنسان إلى كبش فداء، والرأى عنده أن الخطر الحقيقى لا يكمن فى الأدب المعادى لليهود بقدر ما يكمن فى الأسطورة التى تناقلها هذا الأدب عبر القرون، ومن الواضح أن جوشوا يتناول معاداة السامية من منظور جديد، وهو يضيف أن كراهية اليهود ليست أمرًا عقلانيًا بالمرة، بل مسألة تتصل بوعى الكاتب ولاوعيه وأن عالم النفس المعروف يونج لم يجانبه الصواب عندما ربط بين أسطورة اليهودى الشرير

وتوارثها وبين استقرارها عبر الأزمنة والعصور فى لا وعى الإنسانية الجماعى، وهو ما يعرف فى اللغة الإنجليزية باسم archetype أى النموذج الأصل المتوارث، يقول يونج عن هذا النموذج الأصل:

«إن هذا النموذج الأصل هو السبب فى وجود الفكرة المبهمة المسحورة عن اليهودى ذى القرون المتعطش إلى سفك دم المسيحى وينفث السموم، وينشر الأمراض ويدعو إلى برلمان عالمى يهودى سرى يجتمع بصورة دورية كى يخطط ويتآمر، وكذلك الاعتقاد بأن لليهودى رائحة خاصة به أو يمارس السحر الأسود وتفسد عينه الشريرة كل شىء»، وجميعها أفكار لا تزال تنتشر بين الناس «فضلا عن أن الدعايات النازية الراهنة تحث على كراهية السامية تحت لافتة العلم.

ويخلص جوشوا من خلال استقصائه لأسطورة اليهودى الشرير إلى وجود صلة وثيقة بين الاعتقاد بأن اليهودى شيطان رجيم وما أنتجته القرون الوسطى من شعر ومسرح، وهو اعتقاد توارثته العصور والأجيال المتعاقبة بحيث أصبح اليهود يمثلون قوى الشر المخيفة الغامضة التى تهدد سلام الإنسانية. ولهذه الأسطورة كما يشرحها جوشوا جانبها الجنسى حيث توارثت الأجيال فكرة أن اليهودى يمثل الشهوة الجنسية الجامحة والتعطش للجماع.

إدجار روزنبرج Edgar Rosenberg:

فى عام ١٩٦٠ ألف إدجار روزنبرج دراسة شاملة للغاية عن اليهود فى الأدب الإنجليزى بعنوان «من شيلوك إلى سفنجاى» From Shylock to Savengai تناول فيه العلاقة القائمة بين المؤلف والنص على نحو ما فعل الناقد البنيوى Roman Jacobson ، والرأى عند روزنبرج أن هناك نوعاً من التواصل بين المؤلف وهو راسل الرسالة والقارئ الذى يتلقاها، ويضيف أن الروائيين لا يعكسون بالضرورة مواقف مجتمعاتهم من اليهود بل يعكسون على أحسن تقدير الذوق السائد بين جمهور القراء، ولا يعنى روزنبرج باستقصاء الموقف الشخصى للكاتب من اليهود وحقيقة مشاعره نحوهم بل يعنى فى المقام الأول بتمحيص النص المكتوب وما يكمن وراءه مثلما نرى فى مواقف النقاد المتضارية من ديكنز، فمنهم من يؤكد أن ديكنز يمقت

اليهود ومنهم من يعتقد أنه يعطف عليهم، ومن ثم فإن هناك هوة تفصل بين تصوير شخصية فاجن فى أوليفر تويست كزعيم عصابة وما عرف عن ديكنز من سماحة دينية وفكرية، ومعنى هذا أن هناك فرقًا بين «الاستعارة» المتمثلة فى تصوير اليهودى عبر القرون كوغد شرير وبين التعبير عن الرأى فيه فى «تصريح» أو «بيان»، كما أن هناك فرقًا بين «الخلق» أو «الإبداع» والنقد، يقول روزنبرج: إن آفة الدراسات الأدبية السابقة وعيبها يكمن فى الفشل العام فى التمييز بين الحالتين المشار إليهما، ويحذرنا روزنبرج فى مغبة الخلط بين الحياة والفن وبين الخبرة أو التجربة والأدب لأن مثل هذا الخلط يتجاهل أمرًا مفاده أن الأدب الروائى قد يكون أكثر قدرة على الإقناع عندما يقوم بتشويه الواقع تشويهًا جذريًا.

ويستطرد روزنبرج فيقول: إن وشائج القربى تربط بين شخصيتى شيلوك وفاجن فهما فى نظره نسختان من أسطورة مستقرة، ويتفق روزنبرج مع كل من كاليش وتراشنبرج على أن تصوير اليهودى كمجرم يلبس أقنعة مختلفة متمثلة فى تقديمه كسافح لدم المسيحيين وخائن ومراب جشع إلى آخره أمر يحظى من البداية بمباركة الكنيسة، وهو يضيف أن تصوير الشاعر تشوسر لليهودى كسافك لدم المسيحى ليس بالأمر الجديد فهو تقليد أدبى ثابت ومستقر سابق على تشوسر بفترة لا تقل عن قرنين ونصف، ناهيك عن صورة هيرودس فى الإنجيل الذى سفك دماء جميع الأطفال فى عمر المسيح بهدف التخلص منه إلى جانب يهوذا الخائن الذى سلم السيد المسيح إلى جلاديه وكذلك اليهودى الذى سقى المسيح الخل حين طلب المسيح جرعة ماء وهو يتألم على خشبة الصليب، وبعد أن تناقلت الأجيال أسطورة اليهودى كمجرم حتى وصلت إلى شكسبير كانت قد استقرت وغارت فى أعماق الناس.

يقول روزنبرج فى وصف اليهودى المجرم كتقليد متوارث: «اليهودى مادى إلى أبعد الحدود وجبان فى الناحية البدنية ونهّاز للفرص فى الأمور المالية وأشبه ما يكون بالساحر المحتال فى تسويق بضاعته، وهو غريب فى ممارساته الدينية يولى قبيلته الولاء ويحيط أسلوب عيشته بسياج من التكتم والسرية، وهو خانع ذليل فى

علاقته بالمسيحيين الذين يحمل لهم المقت والكراهية، وهو من الناحية الجسمانية يتسم بأنف طويلة ورائحة غير طيبة ويتلعثم كثيرًا عن الكلام، كما أنه كثير التلويح بيديه عندما يتحدث.، وهو يجلس مثل العنكبوت وسط خيوط تجارته وأمواله الهائلة. وأيضًا تطلق عليه أوصاف الحيوانات فهو يشبه القنفذ والفأر والوحش الكاسر والثعلب والضفدع والأفعى والنحلة، وهو كإنسان يخطئ فى حق الناس أكثر مما يخطئ الناس فى حقه كما أنه يخلو من الصفات التى تجعل منه بطلا مأساويًا، فضلا عن أن بنيانه الجسدى منفر وعاداته شاذة ودوافعه عدوانية تجعل منه نموذجًا للاستهزاء به وتصويره على نحو مرعب».

ويذهب إلى أن صورة فاجن أبشع بكثير من صورة شيلوك.

وأخيرًا يتناول روزنبرج رواية «تريلبى» Trilby (١٨٩٤) التى ألفها الروائى جورج دى موريبه George Du Maurier فى فصل بعنوان «اليهودى كفنان وشخص منحل»، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه أول مؤلف يعالج شهوانية اليهودى مثل شخصية سفنجالى الحيوانية المنفرة الذى يغوى الفتيات البريئات.

هارولد فيش Harold Fisch:

وفى عام ١٩٧١ ظهر كتاب هارولد فيش Harold Fisch الصغير «الصورة المزدوجة The Duol Image أى الصورة المزدوجة لليهودى كشرير وكشخص خير، وفى هذا الكتاب يسعى المؤلف إلى الغوص فى أعماق الصورة التقليدية التى درج العالم على رسمها، لليهود، ويحذو فيش حذو ترانشينبرج فى الاعتقاد بأن الشخصية اليهودية فى الأدب الحديث عبارة عن نموذج تقليدى متوارث على نهج عالم النفس المعروف يونج ينبع فى اللاوعى الجماعى للإنسان الحديث، وهو يعزو تصوير اليهودى بأنه سافك دماء إلى رغبة المسيحيين فى وضع وزر إحساسهم بالخطيئة على كاهل اليهود، فالمسيحيون سفكوا دماء آلاف اليهود بسبب عقديتهم وشعروا بالذنب لذلك فأرادوا التخلص من هذا الذنب بإلقاء حمله الثقيل على ضحاياهم، وهو ما يعرف فى علم النفس بالتحويل بـ Transference أو الاستبدال Substitution، يقول فيش فى شرح هذه الظاهرة النفسية:

«يقوم الشخص الرازح تحت شعوره بالذنب بتحويل ذنبه فى خياله إلى الضحية التى يتهمها على وجه التحديد باقتراف نفس جريمته، وبهذه الطريقة يتم تحويل الإحساس بوطأة الذنب إلى شخص آخر ويتم فى ذات الوقت تبرير الجريمة عن طريق اعتباره نوعًا من العقاب تستحقه الضحية على جرم اقترفته فيما مضى،، وليس من قبيل المصادفة أن يقترف دومًا إحياء تهمة سفك اليهود لدم (الأطفال) المسيحيين بنشوب أعمال العنف والشغب ضد اليهود، ومن الواضح أن يلجأ (الجالى) إلى الأسطورة كما يبرر باقتراف جريمته التى سبق للاوعيه أن دبرها».

وهكذا يشرح فيش ظاهرة معاداة السامية فى العالم المسيحى.

تشارلوت لى كلاين Charlotte Lea Klein:

ولدت تشارلوت كلاين من أصل يهودى ثم تحولت إلى المذهب الكاثوليكى أسست كلاين تنظيمًا يهدف إلى التفاهم بين الكاثوليك واليهود، أعدت تشارلوت فى عام ١٩٦٧ رسالة دكتوراه بعنوان «صورة اليهود فى الرواية والدراما الإنجليزية والألمانية فى عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٣٣».. وواضح من عنوان الرسالة أن الباحثة لا تتناول الأدب الإنجليزى بمعزل عن غيره من الآداب، وتختلف كلين مع كل من روزنبرج وفيش بقولها إن الأدباء غير اليهود يتخذون موقفًا متناقضًا من الشخصية اليهودية وأن عداءهم لها ليس عداءً خالصًا بل مزيجًا من الكراهية والقبول، وهى أيضًا تختلف مع روزنبرج وتفند زعمه أن الأدب لا يعكس الواقع حيث تؤكد كلين أن الأدب يعكس الواقع بشكل أو آخر وفى عدد من الأمور المهمة، كما ترى أن دور اليهودى فى الأدب يتلخص فى تصوير القلق والمشكلات الاجتماعية بوجه عام.

وتقرأ كلين فى الأدب الألمانى انشغالا متصلا باليهود والخوف منهم، وهى تشير هنا إلى شهوانية اليهودى الذكر على وجه التحديد، ويرجع خوف الألمان منه إلى أنه يمثل تهديدًا قويًا لهم من الناحيتين الجنسية، والاقتصادية، وهى ترى أن الخوف من اليهود تضخم فى أواخر القرن التاسع عشر فى حين أنها ترى أن اليهود لم يكونوا يمثلون أى خطر يذكر فى الأدب الإنجليزى الصادر قبل عام ١٨٨٠، وترد كلين هذا إلى قلة عدد اليهود فى إنجلترا وكثرة عددهم فى ألمانيا كما ترده إلى تزايد عدد المهاجرين اليهود فى روسيا وشرق أوروبا فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٠٥.

وتهاجم كلين الصهيونية لأنها تجعل اليهود يفقدون ولاءهم للبلاد التى يعيشون فيها ويركزون كل ولائهم لصهيون، وتنتهى كلين إلى القول بوجود شبه عظيم بين صورة اليهودى فى الأدبين الإنجليزى والألمانى فى الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٣٣.

جينا ميتشيل Gina Mitchell:

فى عام ١٩٧٤ كتبت جينا ميتشيل مقالا عن كاتبى المغامرات سيريل ماك نيل Cyril Mc Neile وجون بوتشان John Buchan بعنوان «كاريكاتور روح البول دوج Caricature of the Buledog Spirit، وتذهب جينا فى مقالها إلى استجلاء العلاقة بين عسكرية الذكور والإعلاء، من شأن الحرب والتقتيل واعتبارهما دلالة على الفحولة الجنسية وكذلك الحاجة إلى إيجاد أو خلق عدو ذى مرتبة أدنى يستحق معاملته كحشرة لابد من القضاء عليها وهو الأمر الذى يتمثل فى موقف اليمين المتطرف بما فيه النازية.

ميلتون هندوس Milton Hindus:

فى عام ١٩٤٧ نشر ميلتون هندوس مقالا بعنوان «ف. سكوت فيتز جيرالد F. Scott Fitzgerald and Literary Anti - Semitisn، والرأى عندها أن عداوة سكوت فيتزجيرالد للسامية يمثل الاتجاه الأدبى الذى ساد كلا من إنجلترا والولايات المتحدة فى عقد العشرينيات من القرن العشرين.

فيرا إيبلز دولانوفا Vera Ebels Delanova

كتبت فيرا فى عام ١٩٨٩ مقالا بعنوان «حول اليهودى الغنى» مقال عن العداء الأدبى للسامية On the Rich Jew، وتناولت فيرا فى هذا المقال المسرحية التى ألفها الكاتب اليسارى رينر فيرنر فاسبيندر Rainir Werner Fassbinder بعنوان «القمامة والمدنية والموت» (١٩٧٥)، وتذهب فيرا إلى أن النمط الحديث فى تصوير اليهود - بغض النظر عن نية المؤلف، لا يمكن فصله عن الصور القديمة لهم وعن تاريخهم القديم والحديث.

ليسلى فيلدر Leslie Fielder:

يعتبر فيلدر واحداً من أبرز نقاد الأدب المحدثين، كتب فيلدر عدداً من البحوث المتعلقة باليهود نذكر منها «ماذا يمكن عمله لفاجن؟ (١٩٤٩) What Can We Do About Fagin و«الزنجى واليهودى: مقابلة فى أمريكا» (١٩٦٠) و«الغريب فى أدب شكسبير» (١٩٧٢)، وجميع هذه الأبحاث تدور حول صورة اليهودى فى الأدب كما أنها جزء من دراسته الشاملة عن «الآخر فى الأدب»، يقول فيلدنج عن عداوة غير اليهود لليهود ما يلى: «يجب على غير اليهودى أن يعلم أن شيلوك من خلق خياله ومخاوفه، ومن ثم فإن غير اليهودى يقوم بتحويل الشر الذى يملؤنا إلى شخص غريب عنه أى إلى الآخر».

ويشرح فيلدر الشر الذى درج العالم على نسبته إلى اليهود فى مقاله عن فاجن: «يجب أن نترجم لأنفسنا (ونحن نقرأ عن التقتير الذى يتملك جوارح اليهودى وعدميته ورغبته فى التمثيل بالأجساد وتشويهها) إلى لغة أكثر شمولا من مجرد وصف اليهود بالوحشية الأسطورية، كما يجب أن ندرك أن الصورة النمطية المتوارثة عن اليهود ليست أكذوبة، فنحن نعرف أن مثل هذه الدوافع كامنة فينا ليس بطبيعة الحال كيهود بل هى تكمن فينا كبشر».

يقول فيلدر فى تحليله لمسرحية «تاجر البندقية» وكذلك فى «الغريب فى أدب شكسبير» إلى جذور شيلوك ترجع إلى الأسطورة النمطية المتوارثة الخاصة بالأب الشرير الذى يقوم بإخصاء أبنائه، ويضيف أن لشيلوك جذوراً فى العهد القديم حيث يزمع إبراهيم تقديم ابنه إسحق كذبيحة.

ويعبر فيلدر عن شعوره بالغربة فى المجتمع الأمريكى فهو يقول فى مبحثه «الزنوج واليهود» أن وشائج القربى تربط بين اليهود والزنوج من حيث مكابدتهم للاغتراب، والرأى عنده أن «تاجر البندقية» تنضح بكراهية اليهود ولا جدوى من محاولة التخفيف من وطأة هذه الكراهية، ويذهب فيلدر بعيداً عندما يطبق علم النفس الفرويدى عقدة أوديب فى مبحثه، يقول فيلدر فى هذا الشأن أن الرجل، وبالذات

الأبيض، يشعر بالخوف من الإخصاء ومن فقدان فحولته، ومن ثم فهو يَسقط شعوره بهذا الخوف على اليهودى الشهوانى والذى يتميز بطاقة جنسية غير عادية.

وعندما نشر فيلدر بحثه «ماذا يمكننا فعله مع فاجن» ثار جدل حامى الوطيس اشترك فيه عدد كبير من المؤلفين والكُتّاب اليهود فى أمريكا على صفحات مجلة «تعليق» Commentary عام ١٩٤٩، فعلى سبيل المثال كتب هارى ليفين Harry Levin يقول: «لا يوجد سبب يجعل الكُتّاب المنحدرين من أصل يهودى لا يندمجون فى منظومة التقاليد الأدبية الأنجلو أمريكية»، وأيضاً اتهم هارولد روزنبرج Harold Rosenberg فيلدر بأنه يعانى من عقد الاضطهاد التى يعانى منها اليهود ويضيف أن شيلوك لا يعدو أن يكون واحداً من الأشرار الذين صورهم شكسبير فى أدبه، وإن شره لا يمنع أى يهودى من الاستمتاع بقراءة «تاجر البندقية» ولم يشارك فيلدر شعوره بالاغتراب اليهودى عن المجتمع الأمريكى سوى ثلاثة كُتّاب أمريكان هم Irving Howe وكارل شابيرو Karl Schapiro وألفريد كازين Alfred Kazin

كريستوفر ريكس Christopher Rieks:

فى عام ١٩٨٨ كتب ريكس كتاباً بعنوان «ت، س، إليوت والتحيز» T. S.Eliot and Prejudice تناول فيه معاداة هذا الشاعر الكبير للسامية وهو ما أنوى الاستفاضة فيه فى مبحث مستقل.

القسم الأول

(١)

اليهود فى الكتابات النثرية الإنجليزية فى القرن الثامن عشر

يذهب نفر من الباحثين إلى أن الأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر سواء كان أدبًا روائيًا أو مسرحيًا ملىء بذكر اليهود، ففى مجال الكتابة النثرية نرى هذا واضحًا فى كتابات أديسون Addison وديفو Defoe وشافستبرى Shaftesbury وسويفت Swift وبوب Pope وفيلدنج Fielding.

نبدأ بكاتب النثر البارز جوزيف أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩) فنقول إنه تناول اليهود فى مجلة اسبكتاتور عدة مرات، ولعل المقالين اللذين كتبهما فى العددين ٢١٣ و٤٩٥ من هذه المجلة أهم ما سطره أديسون عنهم، ويرجع تاريخ العدد الأول إلى ٣ نوفمبر ١٧١١ فى حين أن تاريخ العدد الثانى هو ٢٧ سبتمبر ١٧١٢، ويتضمن هذان المقالان رأيه السيئ فى الدين اليهودى وما يتضمنه من خزعبلات، غير أنه يعترف بمهارة اليهود فى مجال التجارة ورغم أنه يفضل الدين المسيحى على الدين اليهودى فإنه يفعل هذا على نحو لا يسىء إلى مشاعر اليهود.

وبالمقارنة بأديسون نجد أن هجوم دانييل ديفو (١٦٥٩ - ١٧٣١) على اليهود فى أدبه الروائى أكثر وضوحًا وجلاء فهو يرسم صورة بشعة لليهود فى روايته الذائعة روكسانا Roxana التى أعيد نشرها فى طبعات متعددة، والأمر الذى يدعو إلى الغرابة والاندهاش أن ديفو نشر فى عام ١٧٠٢ نبذة رائعة دافع فيها دفاعًا مجيدًا

عن الحرية الدينية، ورغم هجومه على اليهود فلا مناص من الاعتراف أنه توخى الصدق وتحرى الموضوعية الكاملة فى تصويره محاكمة يهودى يدعى فرانسيس فرانسيا بسبب اشتراكه عام ١٧١٥ فى تمرد اليعاقبة مما ترتب عليه توجيه تهمة الخيانة العظمى إليه.

وهناك إشارة ساخرة فى كتابات ديفو عن اليهود تضمنتها «صحيفة الضباب» الصادرة فى إبريل ١٧٢١، وهى إشارة يبدو أنه استقاها من الكاتب المسرحى كولى كيبر Colley Cibber، وتدور هذه الإشارة حول قدرة التجار ورجال الأعمال اليهود فى الإفلات من قبضة الإفلاس فى أيام المحن والأزمات، فضلاً عن أن ديفو يحدثنا عن اليهود الملاعين الذين صلبوا السيد المسيح، وهناك أيضًا الهجوم الذى شنه أنتونى كولسين على يهود العهد القديم فى كتابه «خطاب عن حرية الفكر» (١٧١٣).

قلنا إن دانييل ديفو رسم صورة قميئة لليهود فى الرواية التى نشرها عام ١٧٢٤ بعنوان «روكسانا أو السيدة السيئة الحظ» التى جمعت بين الجمال والسلوك المهذب رغم هجرانها لأطفالها الشرعيين من أجل حياة العز والترف والفخفخة، ورثت روكسانا عن عشيقها الأول الجواهرجى مجموعة كبيرة من المجوهرات، ثم اختارت لنفسها أحد الأمراء عشيقًا لها فزاد ذلك فى ثرائها، وبعد أن تضخمت ثروتها قررت أن ترحل عن باريس وتعود إلى إنجلترا، ولم تعرف روكسانا ماذا تفعل بجواهرها الغالية الثمن فقدمها أحد معارفها وهو تاجر هولندى إلى يهودى كى تلتمس لديه المشورة، وما أن وقع نظر اليهودى على جواهرها «المتلتلة» حتى زاغ بصره، ولم يتمالك أعصابه وتظاهر برغبته فى شرائها، ولكنه سعى إلى تحريض التاجر الهولندى الوسيط على الاشتراك معه فى سرقتها وتظاهر الوسيط بالموافقة ولكنه أبلغ روكسانا بما يضمر لها اليهودى من شر، وهكذا يقدم لنا دانييل ديفو فى روايته «روكسانا» اليهودى كلص ووغد يسطو على أموال الغير ويمارس القتل والابتزاز والشهادة الزور، وديفو لا يعطى لهذا اليهودى فى روكسانا اسمًا بل يلقبه بالوغد اللعين والوحش الكاسر والشيطان الرجيم والخائن الغادر، ويبدو أن هناك سببًا شخصيًا دعا ديفو إلى كراهية اليهود على هذا النحو فمن المعروف أن ديفو أفلس فى عام ١٦٩٢ الأمر الذى اضطره إلى الاقتراض من مراب يهودى، ومن

الجائز أنه استقى هذه الصورة البشعة والمقززة لليهودى من شخصية اليهودى البشع باراباس التى رسمها الكاتب المسرحى المعروف مارلو فى مسرحيته المعروفة «يهودى مالطا»، وإلى جانب ذلك ألف ديفو عملا أدبيًا بعنوان «ذكريات الكابتن جورج كارلتون» عام ١٧٢٦ يصف فيها جشع اليهود إلى المال واضطرار النبيل إيرل بيتر بورو إلى اقتراض مائة ألف جنيه من يهودى إسبانى يدعى كيرتيسون من أجل أغراض عسكرية ورغم هجوم ديفو القاذع على اليهود فإنه يعترف بتراحمهم مع بعضهم البعض.

وكذلك يشير ديفو فى «حياة ومغامرات مسز كريستيان دنفير التى تُعرف عادة باسم «الأم روس» (١٧٤٠) فى ثلاثة مواضع إلى شوق اليهود الجارف للالتحاق بصفوف الجيش من أجل إرضاء شهوتهم إلى السلب والنهب.

نأتى الآن إلى موقف الروائى الساخر المعروف جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٣١) Jonathan Swift - الذى كان معاصرًا لدانييل ديفو وأكبر منافس أدبى له - من اليهود، كان سويفت يكره اليهود ولا يحمل لهم أى عطف، فقد كتب بتاريخ ١٢ إبريل ١٧١١ فى صحيفة أسبوعية محافظة تحمل عنوان «الفاحص» Examiner يهاجم المنشقين على كنيسة إنجلترا ويتهمهم بالتواطؤ مع الكرسى البابوى على تحطمها ثم يتساءل سويفت: «ماذا لو أن اليهود تكاثروا وأنشأوا بين ظهرانينا حزبًا مروعًا، أترى هل يبادر هؤلاء المنشقون بالتحالف مع اليهود بنفس الطريقة حيث إنهم يتفقون معهم فى بعض المبادئ العامة وحيث إن اليهود عرف عنهم النزوع إلى التمرد».

ويذهب سويفت فى نبذة أخرى بعنوان «دحض كامل للمزاعم الشريرة الموجهة إيرازموس لويس المحترم» (١٧١٣)، وهو صديق سويفت الذى اتهمه يهودى اسمه هنرى ليفى زورًا وبهتانًا بغية التشهير به.

وتتضمن النبذة التى كتبها سويفت بعنوان «بنك صاحب القسم وضمانة البرلمان لإقامة بنك جديد فى إنجلترا» (١٧٢٠) سخرية من اقتراح تقدم به يهود هولندا لإنشاء بنك وطنى فى لندن.

ويقارن سويفت الخطاب رقم ٧ بتاريخ ١٧٢٤ ضمن خطاباته المعروفة بعنوان «خطابات الصواف» Drapiel's Letters حالته بحالة يهودى فى مدريد حكم عليه بالموت حرقًا بسبب ديانته اليهودية، وبينما هو فى طريقه إلى خشبة الحرق إذ بالصبية الذين يتفرجون عليه يخشون أن ينبذ ديانته فتضيع عليهم فرصة التلذذ بمنظره والنيران تلتهمه ولهذا يتصايحون وراءه قائلين: «كن ثابتًا صامدًا يا موسى».

وفى مطبوعته التى نشرها سويفت عام ١٧٣٣ بعنوان «أسباب تكرار الاختبار المقدس لصالح الكاثوليك» نراه يضع اليهود فى مصاف الأتراك والكفار والمهرطقين، وهو ما دَرِج عليه كُتَّاب كثيرون مثل الكاتب المسرحى جرانفيل فى مسرحيته «يهودى البندقية» (١٧٠١) وكذلك ماكلين Macklin فى مقدمة الرجل الإنجليزى فى باريس، وهو أيضًا ما يكرره سويفت عام ١٧٣٤ فى أشعاره التى تحمل عنوان «الدكتور راندل أسقف درى» On Dr. Rundle Bishop of Derry.

وفى مطبوعة «العالم» الصادرة فى ٢٥ أكتوبر ١٧٥٣ نشر إدوارد مور (١٧١٢ - ١٧٥٧) خطابًا نسبه إلى شخص وهمى معبرًا فيه عن رغبته فى أن يوصى المؤلف جميع القساوسة بأن يغفلوا فى «عطائهم التوسل من أجل اليهود والأتراك والكفرة» لأن «اليهود - منذ أن أصدر البرلمان تشريعه الأخير - أصبحوا مكروهين من كل الأمة لأن هناك اشتباهًا فى أن البعض تقدم إليه بمشروع قانون يدعو إلى منح الأتراك الجنسية (الإنجليزية) ومن ثم فإن الحكماء يحبذون الامتناع عن امتداحهم فى صلواتنا».

وفى مطبوعة «العارف بالأمور» الصادرة فى ٧ فبراير ١٧٥٤ نشر كل من جورج كولمان Gorge Colman (١٧٣٢ - ١٧٩٤) وبونيل ثورنتون Bonnell Thornton (١٧٢٤ - ١٧٦٨) خطابًا بعث به يهودى رفيع المقام شاكيًا من أن الرسامين المشهورين لم يتركوا وراءهم غير صور العائلة المقدسة والمسيح المصلوب ومريم العذراء وطالبًا من الفنانين أن يتعلموا رسم غير هذه الموضوعات لأن الإنجليز قد

تعلموا منها الصلاة من أجل خلاص اليهود والأتراك والكفار والهراطقة، وأغلب الظن أن جورج كولمان وبونيل ثورنتون قاما بنفسيهما باختراع هذا الخطاب المشار إليه ذرا للرماد فى العيون حتى يداريا شدة مقتهما وتحاملهما على بنى إسرائيل.

لقد سبق لى أن شرحت فى كتابى «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى» تعاطف الأديب الإنجليزى ريتشارد كمبرلاند مع اليهود، وأود أن أضيف هنا قصته التى ألفها عام ١٧٨٥ بعنوان «قصة ند دروزى» Story of Ned Drowsy تؤكد ذلك.

نعود فنذكر أن سويفت عبّر أيضًا عن زرايته باليهود مع قصيدته التى تحمل عنوان «عن إخواننا البروتستانت والرفاق المسيحيين» On the Words Brother Protestents and Fellow Christians إلى جانب قصيدة أخرى تحمل عنوان «الانتقام الإلهى فى التورية» وكذلك هجائية بعنوان: «رواية صادقة ومخلصة لما حدث فى لندن» وعنوانها الأصلى بالكامل هو A True and Narrative of what Passed in London during the general Consternation of all Ranks and Degrees of Mankind. وهذه الهجائية تحدثنا عن اليهود الذين يتربحون من كفرهم، وحين يشير سويفت إلى اليهود نراه كثيرًا ما يقرنهم بالثراء الفاحش.

والجدير بالذكر أن الشاعر الإنجليزى المرموق ألكسندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨ - ١٧٤٤) نشر هجائية عن تحول ناشر وصاحب مكتبة اسمه إدموند كيرل Edmund Curll إلى الدين اليهودى وكيف أجريت له عملية الختان التى يتطلبها هذا الدين، جمع كيرل ثروة طائلة من وراء نشر الكتب البذيئة والسطو على الأعمال الأدبية ومن بينها أحد أعمال ألكسندر بوب نفسه، فضلا عن أنه نشر مطبوعة ألمح إلى أنها من تأليف هذا الشاعر الأمر الذى أغضب بوب وجعله يهجوه فى قصيدته المنشورة عام ١٧٢٨ بعنوان «البليد» Dunciad، وقد اخترع الشاعر بوب قصته تحول كيرل المسيحى إلى اليهودية بغرض التشنيع عليه وتلطيخ سمعته، ويقال إن بوب سطر نبذة أخرى بعنوان «نبوءة مدهشة» تعبر عن زرايته باليهود وتحول بعض الإنجليز الكفرة إلى الدين اليهودى، ويتضمن القسم الثانى فى قصيدته المعروفة «اغتصاب خصلة شعر» (١٧١١) the Rape of He Loek إشارة إلى اليهود المنافقين الذين يتبعون أسلوب التقية ويلبسون صلبانًا حول رقابهم بغية الخداع والتضليل.

وأيضًا كان رأى الروائى الإنجليزى هنرى فيلدنج (١٧٠٧ - ١٧٥٤) فى اليهود لا يقل سوءًا عن رأى كل من ديفو وسويفت وبوب فيهم، ففى روايته المعروفة جوزيف أنــدروز Josph Andrews التى ألفها عام ١٧٤٢ نرى القس آدمز يقول فى الفصل السادس عشر من الجزء الثانى: «أسعده أن يجد بعض المسيحيين الباقين فى المملكة لأنه كاد أن يشك فى أنه يسافر فى بلد لا يسكنها سوى اليهود والأتراك»، وهذه إشارة تدل على أنه كان يعتبر اليهود أشرارًا وأوغادًا.

وفى النبذة التى ألفها فيلدنج عام ١٧٥١ بعنوان «مبحث فى أسباب الزيادة الأخيرة فى عدد اللصوص» يذكر هذا المؤلف أن اليهود برعوا وتخصصوا فى شراء المسروقات، ولعل هذا ما أوحى لتشارلز ديكنز فيما بعد برسم شخصية اليهودى زعيم العصابة فاجن فى روايته المعروفة «أوليفر تويست» (١٨٣٧)، يقول فيلدنج فى النبذة المشار إليها: «وبين اليهود الذين يعيشون فى مكان معين فى المدينة كان هناك - ولعلهم مازالوا موجودين إلى يومنا هذا - بعض التجار المعروفين ممن يتاجرون فى المسروقات بطريقة تكاد تكون علانية ويتعاملون على مدى عدة سنوات مع روتردام بهولندا حيث يقيمون مخازنهم ومستودعاتهم، وحيث يجنون مكاسب هائلة من تصدير بضائعهم، وقد ظهر كل هذا بجلاء شديد فى الشتاء الماضى عندما تم التحقيق مع يهودى من كادوزا فى حضرة الراحل العظيم دوق ريتشموند ونبلاء وقضاة عظام آخرين». والرأى عند لاندا Landa أن ديكنز استقى تصويره لشخصية اليهودى فاجن فى رواية أوليفر تويست فى شخصية تاجر مسروقات يدعى إيكى سولومنز Ikey Solomons، كما أنه يرى أن ديكنز ربما تأثر بشخصية يهودى آخر هامشية اسمها بارنى فنس Barney Fence أى بارنى الحرامى التى أوردها و.ت. مونكريف W. T. Moncrieff فى كتابه ««بلدفان دييمنز» (١٨٣٠) Van Diemen's Land، ولكن البعض يرجح أن ديكنز استقى شخصية اليهودى فاجن الذى يتاجر فى المسروقات فى رأى هنرى فيلدنج كالتى فى اليهود الذين برعوا فى هذا النوع من التجارة وفى سرقة المتاجر والسطو على البيوت واحتراف النشل، وهى الجرائم التى احترفها أفراد عصابة فاجن، وكذلك يخبرنا فيلدنج عن براعة اليهود فى سرقة

الساعات الذهب والفضيات والمجوهرات، وهى نفس المسروقات التى تخصصت فيها عصابة اليهودى فاجن.

والجدير بالذكر أن إحدى المعجبات اليهوديات بتشارلز ديكنز أرسلت إليه خطاباً بتاريخ ١٠ يوليه ١٨٦٣ تنحى عليه باللائمة لأنه جعل من اليهودى فاجن فى رواية أوليفر تويست زعيم عصابة وتاجر مسروقات فرد عليها معتذراً بقوله: «إن شخصية فاجن فى رواية أوليفر تويست يهودية لأنه صحيح أن هذا الصنف من المجرمين فى الوقت الذى وقعت فيه أحداث الرواية كانوا فى العادة من اليهود»، وقد سبق لفيلدنج أن قال نفس الشىء تقريبًا بأسلوب ملطف ويبدو أن ديكنز كان أكثر مبالغة من فيلدنج فى تقدير عدد محترفى الإجرام اليهود فى لندن فى منتصف وأواخر القرن الثامن عشر، ويذهب بعض المحللين إلى أن ديكنز كان على علم باسم اللص بارنى حيث إنه أورده على نحو هامشى فى رواية «أوليفر تويست»، فضلا عن انه كان على علم باسمى تاجرى المسروقات اليهوديين أيكى وسولومن اللذين ذكرهما فى كتابه «طريق فى حياة مستر أتكنز توتل A Passage in the Life of Mr. Watkins To Hle التى تشكل فصلا فى كتابه المعروف باسم «اسكتشات بوز» (١٨٣٦) Sketches by Boz.

نعود إلى الحديث عن موقف هنرى فيلدنج من اليهود فنقول إنه ألف هجائية بعنوان «رحلة من هذا العالم إلى العالم الآخر» (١٧٤٣) A Journey From this World to Me Next حيث نرى المرتد جوليان يسافر فى رحلة حج إلى كوكب الأرض متمثلا فى شخصية يهودى شديد التقتير يدعى بالثازار الذى يتجشم مشقة السفر من الإسكندرية إلى القسطنطينية كى يبيع بعض الجواهر بأعلى سعر، وحتى لا يتكبد نفقات السفر نراه يتخفى فى هيئة شحاذ يحتال على جيرانه ويبيع لهم الخمور المغشوشة، ويشكو هذا اليهودى البخيل من أنه لا يغمض له جفن بسبب قلقه وخوفه على ما يكتنزه من مال، ويحدثنا فيلدنج فى كتابه المنشور بعد وفاته عام ١٧٥٥ تحت عنوان «صحيفة الرحلة» عن يهودى معروف اشتهر باكتناز المال الذى يدفعه إلى الرضا ولكنه يحرمه القلق عليه من السكينة وهدوء البال.

(٢)

توبياس سمولت Tobias Smollett

لا شك أن توبياس سمولت يفوق جل الكُتَّاب الإنجليز في القرن الثامن عشر فى اهتمامه البالغ باليهود. فضلاً عن أن تصوره لهم ليس دائمًا بالقبح والاستبشاع الذى درج هؤلاء الكُتَّاب عليه.

أشار سمولت إلى اليهود لأول مرة فى كتابه المنشور بعنوان «اللوم» عام ١٧٤٧ Reproof. كما أنه رسم صورة وضيعة ومقيتة لشخصيتين يهوديتين فى رواية «مغامرات روديريك راندوم» (١٧٤٨) The Adventures of Roderick Random حيث نشاهد مرابيًا يهوديًا اسمه إيزاك رابين Rapine يسافر من نيوكاسل إلى لندن برفقة روديريك وستراز فتنعته إحدى المسافرات بأقذع النعوت وتحاول ابتزازه بإدعائها أنه حاول غوايتها، والجدير بالذكر أن تفاصيل مظهر إيزاك رابين الخارجية تشبه الأوصاف التى خلعها الروائى الإسكتلندى المعروف السير والتر سكوت Scott على شخصية اليهودى إيزاك يورك التى رسمها فى روايته المنشورة عام ١٨١٩ بعنوان إيفانهو Ivanhoe. ويكاد سكوت فى تصويره لشخصية هذا اليهودى أن يحذو حذو سمولت فى رسم الشخصية اليهودية، ويبدو أن سمولت لم يستق ملامح شخصيته اليهودية من الواقع ولكنه استمدها من صورة اليهودى كما رسمها كل من كيبر Cibber وفيلدنج. وهى صورة منفرة ليهودى ماجن تضمنتها روايته روديريك راندوم. أضف إلى ذلك أنه رسم صورة يهودى آخر داعر يشتغل بالتجارة فى مدينة روتردام بهولندا فى روايته التى تحمل عنوان «مغامرات بيرجرين بيكل» (١٧٥١) The Advantures of Peregrine Pickle. وتصل زراية المؤلف بهذا اليهودى إلى الحد الذى جعله لا يعطيه اسمًا بل يكتفى بالإشارة إليه باليهودى أو

الإسرائيلي، وليس أدل على هذه الزراية من أن أحد شخصيات الرواية واسمه جولتر يشبه هذا اليهودى بكرة من روث الخيل، ويضيف أن الله يشيح بوجهه غاضبًا من جميع اليهود الأمر الذى أدى إلى شتاتهم فى أنحاء الأرض مما ملأ قلوبهم بالموجدة والحقد وجعلهم يجنحون إلى الفسق والمجون، ونحن نرى على صفحات هذه الرواية قسيسًا وطبيبًا، ويحاول الطبيب السخرية من عذرية مريم العذراء فيرد عليه القسيس بقوله: «أنت إنسان فظيع ولن أطلق عليك اسم مهرطق لأنك أسوأ من ذلك كعادة جميع اليهود». وتقول الرواية: إن هذا اليهودى الشهوانى ظل يحملق بشهوانية فى وجه عاهرة فرنسية كانت تسعى إلى غوايته. «ويكاد هذا اليهودى أن يفلح فى مضاجعة هذه العاهرة لولا أن منافسًا له اسمه بيليه نجح فى فضح أمره وقام بجره من رجليه حيث كان يختبئ تحت السرير». وهذه القصة تشبه قصة مماثلة إلى حد كبير أوردها سمولت فى رواية «روديريك راندوم». وهكذا يتضح أن سمولت فى أعماله الروائية الأولى سار على نفس الدرب الذى سبق لأسلافه أن سلكوه فى التعبير عن احتقارهم لليهود.

ومن بين الشخصيات العديدة التى تحتوى عليها رواية «بيرجرين بيكل» توجد أيضًا امرأة يهودية تقع فى غرام مسيحى وتهرب معه إلى خارج إنجلترا وهو موضوع شائع فى الأدب الإنجليزى مثل قصة اليهودية جيسيكا اليهودية التى تعشق لورنزو المسيحى فى مسرحية شكسبير المعروفة «تاجر البندقية». ولكن يمكن القول إن الأدب الإنجليزى الروائى والمسرحى فى القرن الثامن عشر كان لا يركز على وصف اليهوديات بل يعرض لهن بطريقة هامشية، ويكتفى بتناولهن فى الأحداث الفرعية فى حين أنه أبرز دور المرابى اليهودى الماكر.

وفجأة خرج سمولت عما اعتاد عليه فقد أصدر رواية بعنوان «مغامرات الكونت فاثوم» The Advantures of Count Fathom (١٧٥٣) رسم فيها صورة رائعة لليهودى المحب للخير، وهى صورة نادرة لبنى إسرائيل فى ذلك الوقت.. وتدور أحداث هذه الرواية المتعاطفة مع اليهود حول رجل يدعى ميلفيل يحتاج إلى المال فيسعى دون جدوى للاقتراض من مسيحى يعيش فى لندن الأمر الذى يجعله ييأس من قساوة قلوب المسيحيين، ويلجأ الرجل إلى الاقتراض من يهودى فيجده شديد

الكرم والأريحية، وأغلب الظن أن هذا اليهودي الخَيِّر الكريم الذي رسمه سمولت أوصى إلى كمبرلاند برسم صورة محببة للنفس لشخصية شنيا اليهودي عام ١٧٩٤. والجدير بالذكر أن رواية سمولت «مغامرات الكونت فاثوم» لم تحظ بالذيوع والانتشار، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تحامل غالبية الناس على اليهود واعتيادهم على تصويرهم على نحو قميء ومنفر.

وهكذا نرى أن سمولت يتأرجح بين المغالاة في تصوير اليهود على نحو منفر وتصويرهم على نحو محبب ونذكر في هذا الشأن أن الروائي الإسكتلندي المعروف السير والتر سكوت كان من أوائل الذين رسموا في أدبه اليهودي على نحو محبب. ومن الجائز أنه في ذلك تأثر بالصورة المحببة للنفس التي رسمها سمولت في روايته «مغامرات الكونت فاثوم».

ما الذي جعل سمولت في عام ١٧٥٣ يغير موقفه من اليهود ويتخلى عن تصويرهم بالطريقة التقليدية المنفرة؟ يرجع هذا التغير إلى أسباب وأحداث سياسية وقعت بين عامي ١٧٤٥ و ١٧٥٣ كان لها بالغ الأثر في مستقبل اليهود، فعندما ادعى الأمير تشارلز إدوارد الأحقية في العرش وفي أرض إسكتلندا واستولى على أدنبرة زاحفًا بقواته إلى لندن تصدى له اليهود وأظهروا قدرًا كبيرًا من الوطنية وانضم عدد منهم إلى صفوف ميليشيات العاصمة وتطوعوا لحمل السلاح دفاعًا عن بلادهم، وأيضًا انبرى أثرياء اليهود الإنجليز للذود عن الوطن، وتقدم الثري اليهودي البارز سمسون جدعون في لندن إلى إقراض مبالغ طائلة للحكومة البريطانية لمساندتها وتعضيدها ضد مطامع الأمير تشارلز إدوارد ومزاعمه، الأمر الذي شجع غيره من التجار اليهود على تقديم العون لهذه الحكومة، وحين احتاجت الحكومة البريطانية في لندن إلى سفينتين للحيلولة دون نزول أتباع هذا الأمير إلى اليابسة بعد عبور التيمز قاموا بتزويدها بها مما جعل الحكومة البريطانية تشعر بالامتنان نحوهم. ولهذا قامت هذه الحكومة في عام ١٧٥٣ بتحرير مشروع قانون في البرلمان ينص على منح الجنسية الإنجليزية لكل اليهود المقيمين في الأراضي البريطانية، ولم يمر هذا القانون بسهولة فقد اعترض عليه حزب المحافظين البريطاني بضراوة تنذر بالشر المستطير لدرجة أن رئيس أساقفة كانتربري توماس هيرنج (١٦٩٣ - ١٧٥٧)

المتعاطف مع اليهود خشى أن يتحول الصراع بين المعارضين والمؤيدين إلى صراع دموى، وذهب المعارضون لهذا القانون إلى أنه سوف يملأ إنجلترا بالسماسرة والمرابين، وأنه سوف يسمح لليهود الأثرياء بشراء الأراضى كما أنه سوف يجعل اليهود يزاحمون الإنجليز فى شغل الوظائف. فضلا عن أن المعارضين رأوا أن القانون يتعارض مع نبوءة الكتاب المقدس التى حكمت على بنى إسرائيل بالشتات. ومع ذلك فقد تصدى للدفاع عن مشروع القانون المقترح حتى تم تمريره فى مجلسى العموم، اللوردات المستنيرون من رجال الإكليروس وبعض المشتغلين بالتجارة والصناعة المدافعون عن حرية التجارة.

ويبدو أن سمولت الذى ينتمى إلى حزب الأحرار أو الويجز Whigs كما كان يسمى آنذاك تخلى عن سابق عداوته لليهود تماشياً مع حكومة حزب الأحرار التى تبنت الدفاع عن القانون المقترح.

أطلق سمولت اسم مانسيه Manasseh على شخصية اليهودى الكريم الذى رسمه فى أدبه اللاحق، وهو اسم يذكره جميع اليهود فى إنجلترا بالإجلال والتقدير فهو يذكرهم باسم عزيز عليهم هو اسم مانسيه بنى إسرائيل (١٦٠٤ - ١٦٥٩) ذلك اليهودى الذى تمكن من الهروب بجلده من بطش محاكم التفتيش والذى أصبح حبر أمستردام قبل سفره إلى إنجلترا عام ١٦٥٥ كى يتفاوض مع كرومويل حول عودة اليهود إلى بلاد الإنجليز.

ولعل سمولت تأثر فى أدبه اللاحق برواية سبق للكاتب الألمانى كريستيان فيرتشيجوت جيليرت Christian Furchtegott Gellert (١٧١٥ - ١٧٦٩) (الذى قلد الروائى الإنجليزى صامويل ريتشاردسون) أن نشرها عام ١٧٥٢ أى قبل صدور رواية سمولت «الكونت فاثوم» بعام واحد، وتحمل هذه الرواية الألمانية العنوان التالى: «تاريخ الكونتيسة السويدية جيلد تسترن». وبذلك يصبح هذا الكاتب الألمانى من أوائل الأدباء الألمان الذين صوروا اليهودى على نحو محبب، «واللافت للنظر أن سمولت لا يتحرى الواقعية ويبالغ فى تصوير أريحية شخصيته الروائية اليهودية يشوع مانسيه أكثر مما يفعل الكاتب الألمانى جيليرت حيث إن التاجر اليهودى الذى صوره جيليرت يرد الجميل ويحسن إلى من أحسن إليه فى حين أن التاجر اليهودى

الذى صوره سمولت خير بطبيعته ويتصرف من تلقاء نفسه بكرم وشهامة.

وأغلب الظن أن الكاتب الألمانى المعروف لسنج Lessing تأثر بأدب جيليرت عندما كان طالبًا يدرس فى جامعة ويتنبرج، وعلى أية حال فإن الكُتّاب الثلاثة جيليرت وسمولت ولسنج يرون أن التسامح الدينى ليس قاصرًا على شعب بعينه أو ديانة بعينها بل يمتد إلى سائر الشعوب والأديان.

والغريب أن سمولت لا يلبث أن يعود فيما بعد إلى سابق استخفافه وزرايته باليهود وتصويرهم على نحو مضحك مثلما فعل فى الرواية التى ألفها عام ١٧٦٢ بعنوان مغامرات السير لونسيلوت جريفز The Advanture of Sir Launcellot Greaves. ونحن نجد نفس الزراية باليهود فيما كتبه سمولت عام ١٧٦٥ بعنوان «رحلات إلى فرنسا وإيطاليا» Travels Through France and Italy وفى رائعته الروائية التى نشرها عام ١٧٧٠ بعنوان حملة كلينكر The Expedition of Humphry Clinker يحدثنا سمولت عن تنكر رجل مسيحى فى هيئة بائع متجول يهودى كى يتمكن من مقابلة حبيبته المسيحية، ويسأل شقيق الفتاة أخته عن العلاقة التى تربطها بالوغد اليهودى، والجدير بالذكر أن توماس ديبدين Thomas Dibdin أعد رواية «همفرى كلينكر» إعدادًا مسرحيًا قدم على خشبة «السيرك الملكى» يوم ٦ يوليه ١٨٢٨ إلى جانب تقديمها على مسرح آخر هو مسرح سادلر ويلز يوم ٦ يوليه ١٨١٨. وأضاف توماس ديبدين فى إعداده المسرحى شخصية يهودى اسمه موردخاى يقرض الملابس لمن يريد أن يتنكر فى زى يهودى، وقد شاع تصوير اليهودى الذى يساعد غير اليهود على التنكر فى زى يهودى فى الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر، وأيضًا تتضمن رواية همفرى كلينكر، عبارات تحط من شأن اليهود مثل هجائها لامرأة مسيحية تواظب على حضور الكنيسة بحماس شديد ولكنها على أتم استعداد للتفاهم والتعامل مع أعداء الكنيسة من اليهود. وأيضًا تتضمن الرواية زراية باليهود الذين يجمعون المال عن طريق الغش والربا والابتزاز، ويحلو للبعض تبجيلهم ليس بسبب فضائلهم وجميل سجاياهم ولكن بسبب ما يتمتعون به من ثراء عريض. وقد يرجع السبب فى تغير موقف سمولت المتعاطف مع اليهود إلى أن الحكومة الإنجليزية سرعان ما ألغت ١٧٥٤ القانون

الذى يمنح الجنسية الإنجليزية لليهود المقيمين فى بريطانيا، ورغم هذا فلا مناص من الاعتراف بأن سمولت امتدح اليهود وأعلى من شأنهم فى روايته «الكونت فاثوم» بعد أن عبر عن احتقار جم لهم فى كل من روايتيه «رودريك راندوم» و «برجرين بيكل».

(٣)

ريتشاردسون وستيرن وجولد سميث وبيرني وآخرون

ريتشاردسون:

شاهدنا في الصفحات السابقة أهمية عام ١٧٥٣ بالنسبة ليهود إنجلترا بسبب السريان المؤقت للقانون الذي منح الجنسية لكل اليهود المقيمين في إنجلترا، والجدير بالذكر أن الروائي الإنجليزي الكبير صامويل ريتشاردسون Samuel Richardson (١٦٨٩ - ١٧٦١) ألف رواية بعنوان «السير تشارلز جراندسون Sir Charles Grandson تتضمن صورة لشخصية يهودي منفر اسمه سليمان ميرسيدا.؛وميرسيدا يهودي فاسق داعر هاجر من البرتغال إلى إنجلترا، ومن الجائز أن المؤلف استقى صورته من روايات سلفه سمولت الباكرة.

لورانس ستيرن:

كان لورانس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) Laurance Sterne قسيسًا ومن ثم كان من الطبيعي أن يورد في أعماله الروائية إشارات إلى اليهود كما جاء ذكرهم في العهد القديم، فهو يشير إليهم في روايته «حياة وآراء ترستام شاندي» (١٧٥٩ - ١٧٦٥) The Life and Opinion of Tristam Shandy. وأيضًا تخبرنا الرواية أن العريف تريم كان له أخ يدعي توم تطلع إلى الزواج من أرملة يهودي في لشبونة ورثت عن زوجها محلاً مزدهرًا لبيع السجق مما أغراه بالزواج منها الأمر الذي جعل محاكم التفتيش تقدمه إلى المحاكمة لأنه كان يخلط لحم الخنزير بالسجق الذي يبيعه للزبائن، ورغم أن ستيرن لا يهاجم اليهود في أدبه الروائي هجومًا صريحًا ومباشرًا فإنه يكتفي بالهجاء المبطن لهم، وكذلك تتضمن رواية ستيرن التي ألفها

عام ١٧٦٨ بعنوان «رحلة عاطفية فى كل من فرنسا وإيطاليا» قدحًا فى يهودى يدير فندقًا فى ميناء كاليه الفرنسى.

أوليفر جولد سميث:

تتميز كتابات أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ - ١٧٧٤) Oliver Goldsmith بأنها كثيرًا ما تظهر تعاطفًا مع اليهود وترسم لهم صورة محببة للنفس بالمقارنة بمن أسلفنا من الكُتّاب.

وتتضمن مقالات جولد سميث المكتوبة بين عامى ١٧٥٨ و ١٧٦٥ إشارات متكررة لليهود حيث نرى اليهودى المستر ديبنز عضو جمعية الهارمونيكا يناقش موضوع الأديان. ونحن نطالع فى المقال رقم ٢ أن الفيلسوف المنفير يحض على شن الحرب على إسبانيا وهو يصيح: «ماذا يعنى ارتفاع أو انخفاض البورصة بالنسبة لنا نحن المحتاجين والمعوزين؟ دع اليهودى الهولندى ناثان خانك يفرح أو يحزن على أحوال البورصة». ويحدثنا المقال رقم ٦ عن عازف متجول فقير من أهل منطقة كورنوول يقول: «نحن نقابل الثراء أينما نذهب. وإذا أغرق الفيضان واكتسح نصف مساحة كورنوول فسوف أشعر بالرضا لأننى لا أملك أية أراض هناك، وإذا انخفضت أسهم البورصة إلى أدنى مستوى فلن أشعر بأىِ انزعاج لأننى من غير اليهود. أما المقال رقم ١٠ فيحدثنا عن المستر جاكوب الذى يعتبر نموذجًا عظيمًا لصمود ومثابرة المسيحيين لا ينتمى إلى شعب بنى إسرائيل.

وفى كتابه «المواطن العالمى» (١٧٦٠ - ١٧٦٢) The Citizen of the World يناقش جولد سميث مسألة الأمومة فى الصين حيث الزواج حرًا بلا قيود وحيث ينمو السكان فى القامة والجمال بعكس المجتمعات القبلية المغلقة مثل اليهود الذين يتزاوجون من بنى جلدتهم الأمر الذى يسبب تدهورهم وإصابتهم بالتشوه.

وعلى النقيض من ذلك كتب جولد سميث عام ١٧٥٩ مجموعة من المقالات بعنوان «النحلة» تصف يهود الإسكندرية بأنهم أنشط السكان وأكثرهم إقبالاً على العمل. وإلى جانب ذلك يتحدث بعطف واضح فيما كتبه عام ١٧٦٤ بعنوان «فى الأسر» عن بؤس وشقاء اليهود وشتاتهم بعد بابل وسقوط اليهود فى الأسر، وبعض الأشعار

التي تتضمنها هذه المقالات تذكرنا بالعطف العظيم الذي يظهره «اللورد بيرون على اليهود في منظومته الشعرية «أغنيات عبرية بجوار أنهار بابل» Hebrew Melodies: By the Rivers of Babylon .

والجدير بالذكر أن أشعار كل من جولد سميث وبيرون في هذا الشأن تنم عن تأثرهما بالمزمور رقم ١٣٧. ويؤكد هنري أوستن دوبسون Henry Austin Dobson أن كتاب «Hannah» الذي ألفه كريستوفر سمارت Christopher Smart تركت أثرًا عميقًا في نفس جولد سميث وأوحت إليه بنظم قصيدته «في الأسر» وليس أدل على أن جولد سميث يختلف عن الكتاب السابقين عليه في مقدار تعاطفه مع اليهود وعدم التحامل عليهم وهو ما يتجلى لنا في مقاله «التحيزات القومية».

الروائية فاني بيرني:

في عام ١٧٨٢ ألّفت الروائية فاني بيرني Faney Burney (١٧٥٢ - ١٨٤٠) رواية بعنوان «سيسيليا أو مذكرات وريثة» Cecilia or Memoirs of an Heiress تناولت فيها شخصية يهودية، وتدور بعض أحداث هذه الرواية حول رجل يدعى هاريل تضع الوريثة القاصر سيسيليا فيه كل ثقتها، ويعبر هاريل لهذه الوريثة عن حاجته إلى المال فتحاول مساعدته ولكن الأوصياء عليها يرفضون ذلك فينصحها هاريل باللجوء إلى يهودي مشهود له بالأمانة، وبالفعل تقوم الوريثة باتباع نصيحته رغم عزوفها عن التعامل مع أي يهودي آخر من شعب إسرائيل، وتطلب سيسيليا من اليهودي العجوز أريون أن يقرضها مبلغًا من المال بشروط سمحة وميسرة وتقتسمه مع المستر هاريل الذي لا يلبث في اليوم التالي أن يجيئها طالبًا منها المزيد من المال. غير أن اليهودي المقرض العجوز أريون كان غائبًا عن المدينة. ولم يكن هناك في طول البلاد وعرضها يهودي آخر في مثل سماحته؛ فاليهود جماعة من الأوغاد الذين يبتذون الناس ويستغلون حاجتهم إلى المال. ويسقط في يد سيسيليا لأنها أنفقت نصيبها من المال المقترض في أغراض خاصة بها ويجري هاريل اتصالاته مع يهودي آخر اسمه زخاري فتسأله سيسيليا إذا كان قد سبق له التعامل مع هذا اليهودي فيجيبها قائلاً: «أبدًا فأنا لا أعرف غير أريون العجوز لأنني أخشى التعامل مع أي من شعب إسرائيل حيث إنني أتطير منهم «أشعر أني لو وقعت في براثنهم

فلن يكون لى فكاك منهم أبدًا» ويستمر هاريل فى طلب المال من سيسيليا وتستمر هى فى تقديم المعونة له، وعندما تبلغ سيسيليا سن الرشد تواصل الاقتراض من اليهودى أريون فينصحها أحد الذين كانوا أوصياء عليها أن تكف عن ذلك «لما فى هذا من حطة من شأنها من وجهة نظر العالم» ويتقدم ابن المستر ديلفيل لخطبتها ولكن أباه يلومها لأنها سبق حين كانت قاصرة أن اتصلت باليهود وتعاملت معهم».

وإذا كانت فانى بيرنى قد صورت اليهودى أريون كرجل طيب القلب ومحب للخير فإنه فى نهاية الأمر استثناء من القاعدة التى يمثلها اليهودى الخسيس زخارى الذى يجسد شرور شعب إسرائيل الذى يشتغل بالربا ويستغل عوز الناس وحاجتهم أبشع استغلال.

ويمكن القول إن جنوح الروائيين الإنجليز إلى تصوير اليهود على نحو كاريكاتورى هو الذى دفعهم إلى المبالغة والمغالاة فى قدحهم أو مدحهم، وقد استقرت صورة اليهودى الشرير فى المسرح الإنجليزى زمنًا طويلاً.

كتاب المقال فى نهاية القرن الثامن عشر:

بوجه عام كان كُتَّاب المقالات فى إنجلترا فى نهاية القرن الثامن عشر لا يخفون عداءهم لليهود وخاصة فى فترة الملاحاة التى نشبت بسبب استنان القانون الخاص بمنح جميع اليهود الجنسية البريطانية، وهذا واضح فى قول المؤرخ ليكى Lecky عن هذه الفترة : «لا توجد صفحة واحدة فى تاريخ القرن الثامن عشر لا تنم بصورة قاطعة على مدى انحطاط الحالة الفكرية والروحية للرأى العام».

وقد نشر الكاتب الإنجليزى المعروف صامويل جونسون (١٧٠٦ - ١٧٨٤) Samuel Johnson مقالاً فى صحيفة «الرامبلر» The Rambler بتاريخ ١١ فبراير ١٧٥٢ فيسخر من رجل يهودى خبير فى الأحجار الكريمة اسمه إبراهام هانس Abraham Ben Hannase وأيضًا نشر صامويل جونسون فى صحيفة «الأيدلر» Idler بتاريخ ١٧ يونيه ١٧٥٨ بعض العبارات التى تزدرى اليهود وتحط من شأنهم.

ويطالعنا ريتشارد باثرست Richard Bathurst المتوفى عام ١٧٦٢ بمقال بعنوان «مغامرات نصف بنس» نشره فى صحيفة «المغامرة» Adventure بتاريخ ٣ إبريل

١٧٥٢ يسخر من تقتير اليهود وشحهم، ويقول إدوارد مور (١٧١٢ - ١٧٥٧) Edward Moore فى المقال الذى نشره فى صحيفة «العالم» The World بتاريخ ١٦ أغسطس ١٧٥٣ أنه على استعداد لأن يتحمل تصرفات الحكومة البريطانية التى استنت قانون منح الجنسية الإنجليزية لليهود ولكنه بكل تأكيد سوف يتخلى عن موقفه هذا فى حالة انتهاء حالة الشتات التى كتبها الله على اليهود، أو فى حالة أن يسن البرلمان الإنجليزى الجديد قانونًا يجبر الذكور على الطهور.

وفى يوم ٦ ديسمبر ١٧٥٣ نشر الابرل أف تشستر فيلد مقالاً معاديًا لليهود (١٦٩٤ - ١٧٧٣) وكذلك نشر فيليب دورمر ستانهوب Philip Dormer Stanhope فى صحيفة «العالم» المشار إليها مقالاً على نفس النهج بعنوان «توصيات ساخرة للوقت الحالى Ironical Recommendations of the Present Time يعبر عن شدة كراهيته لليهود نافيًا عن نفسه تهمة الدفاع عنهم فى البرلمان البريطانى، فضلاً عن تعبيره عن استبشاعه لطقوس شعب إسرائيل الدينية.

وأيضًا ساهم ريتشارد كامبريدج (١٧١٧ - ١٨٠٢) Richard Cambridge بمقال منشور فى صحيفة العالم بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٧٥٣ جاء فيه إن الدافع وراء حضوره إلى لندن هو السعى إلى إلغاء قانون منح الجنسية لليهود الإنجليز.

ونحن لا نجد بين كُتَّاب المقالات الإنجليز فى القرن الثامن عشر من يفوق كلاً من كولمان Colman وثورنتون Thornton المحررين فى صحيفة «الخبير» The Connoisseur فى كراهيتهما لليهود حيث نطالع فى العدد ١٢ من هذه الصحيفة الصادر فى ١٨ إبريل ١٧٥٤ تعريضًا باليهود وسخرية منهم، ويواصل كولمان وثورنتون الزراية باليهود فى بعض الأعداد اللاحقة فى مجلة «الخبير» ومن بينها الأعداد الصادرة فى ٦ نوفمبر ١٧٥٥ و ١١ ديسمبر ١٧٥٥ و٢٩ يوليه ١٧٥٦ و ٢ سبتمبر عام ١٧٥٦. ومن الواضح أن بعض هذه المقالات التى تحدثنا عن تحويل اليهوديات إلى الدين المسيحى وزواج المسيحيين بهن تدل على تأثر كل من كولمان وثورنتون ببعض الآراء السيئة عن اليهود التى سبق للروائى سمولت أن عبر عنها وخاصة تلك التى وردت فى روايته «بيرجرين بيكل» (١٧٥١) أضف إلى ذلك أن مجلة «الخبير» تتضمن تعريضًا باليهود سطره إيرل كورك Cork كما أن صحيفة

«الميرور» The Mirror الصادرة فى ١٥ مايو ١٧٧٩ تحتوى على إشارات تحط من شأن اليهود.

ريتشارد كمبرلاند:

سبق أن عالجت موقف ريتشارد كمبرلاند Richard Cumberland المتعاطف مع اليهود فى كتابى «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى» (كتاب الهلال مارس ١٩٩٩) حيث اقتصرت فى حديثى على تناول عدد من أعماله المسرحية، وأود هنا أن أضيف أن كمبرلاند فى بداية حياته عبّر عن زرايته باليهود شأنه فى ذلك شأن غالبية السابقين عليه والمعاصرين له.

ألّف كمبرلاند أكثر من خمسين مسرحية وعددًا ضخمًا من المقالات وعديدًا من القصائد والروايات التى طواها النسيان، وفى مطلع حياته نشر عام ١٧٨٥ مجموعة من المقالات المدافعة عن اليهود بعنوان الأوبزرفر (أى المراقب) The Observer. فهو فى المقال رقم ١٥ يصف قيام محاكم التفتيش الإسبانية بحرق يهودى فى مدريد قائلا: «كان اليهودى يكابد العذاب على أيدى المسيحيين الذين ساموه مر العذاب». وفى موضع آخر نراه يصف اليهود بقوله: «يبدو أن هؤلاء المساكين مطية سهلة لكل الملل والنحل توجه إليهم الزراية والاحتقار، ولست أعرف لماذا يلقى هؤلاء المشردون التعساء مثل هذه المعاملة». ويصور كمبرلاند فى كتاباته النثرية شخصيتى يهوديين من إسبانيا هما شخصيتا إبراهام إبراهامز Abraham Abrahams ونيكولاس بيدروسا Nicolas Pedrosa اللذين يتبعان أسلوب التقية فيجاريان المجتمع الإسبانى فى اعتناق المسيحية جهرًا فى حين يستمسكان بدينهما اليهودى سرًا، ويسمع ابن اليهودى الأول راهبًا يسب والده ويلعن دينه اليهودى فيقوم بطعنه ثم يلوذ بالفرار من إسبانيا المتعصبة إلى إنجلترا المتسامحة متخفيًا تحت اسم إبراهامز فيكتشف أن عداوة الإنجليز لليهود لا تقل عن عداوة الإسبان لهم، ويشكو اليهودى المهاجر من المسرح الإنجليزى الذى لا يكف عن ازدراء اليهود بمناسبة وبدون مناسبة ويتساءل: أليس اليهودى إنسانًا له نفس المشاعر والأحاسيس مثل سائر البشر؟! ويعلق كمبرلاند على هذه الزراية باليهود الشائعة فى إنجلترا بقوله: «نحن كمسيحيين نكن قدرًا من الاحترام لليهود باعتبارهم شعب الله المختار لأنهم حفظة

سجلات الأنبياء التى تبشر بمجىء المسيح». ونحن نطالع فى المقالات من ٤١ حتى ٤٦ التى نشرها كمبرلاند فى «الأويزرفر» تصويرًا لليهودى إبراهامز باعتباره إنسانًا كريمًا ومحبًا للخير يهب لنجدة المحتاجين وانتشالهم من عوزهم، كما أنه يمتدحه واصفًا إياه بالتواضع والود والأمانة والعطف على المحتاجين، والجدير بالذكر أن كمبرلاند تأثر هنا بكتابات جيليرت Gellert وسمولت المتعاطفة مع اليهود. ولا شك أيضًا أن كمبرلاند تأثر بروح القرن الثامن عشر التى تميزت بالتسامح والفكر المستنير والدعوة إلى أخوة جميع البشر، ففى هذا القرن حمل لواء الحرية والأخوة الإنسانية روسو وفولتير وأترابهما فى فرنسا لتمتد إلى جميع أرجاء العالم، وقد لخص كمبرلاند هذا التطلع نحو الحرية والإخاء والمساواة فى مقاله رقم ١١١ المنشور فى «الأويزرفر» حيث نطالع العبارات التالية: «إن الزمن الحاضر يقدم وجهة نظر مختلفة، فالكنيسة أصبحت أكثر لطفًا عن ذى قبل وانكسرت حدة تعصبها، وبدأت المجتمعات المختلفة تزداد قربًا من غيرها من المجتمعات كما شاع التحسن فى السلوكيات وانتشر التسامح ولم نعد كما كنا عبيدًا لأوامر الدين ونواهيه، بل بدأنا نستخدم العقل فى فهمنا للدين ،وأصبح من المسموح لنا به تمحيص الأدلة وفحص الأساس الذى تنهض عليه عقيدتنا لنكتشف أن المسيحية دين إحسان وسماحة وعقل وسلام وتعاطف مع الآخرين ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان والإشفاق على بلاء الآخرين كما أن المسيحية تنص على السلوك المهذب وتمنعنا من السخرية والتعريض بالآخرين وتحثنا على أن نباركهم.

ونحن نطالع فى الكتاب الذى ألفه توماس هولكروفت Thomas Holcroft عام ١٧٩٢ بعنوان «الطريق إلى الدمار» دعوة حارة وصادقة إلى الأخوة البشرية بين جميع الشعوب والأجناس وتحرير الإنسان من ربقة العبودية بسبب اجتياح الحرية لكل بقاع المعمورة.

وفى ألمانيا حمل لواء الدفاع عن اليهود كل من لسنج Lessing ودوم Dohm ومندلسون Mendelssohn كما تصدى للدفاع عن اليهود فى فرنسا كل من رابود سانت إتيين Rabaud Saint Etienne وميرابو صاحب كتاب «حول موسى مندلسون والإصلاح السياسى لحالة اليهود بوجه خاص». إلى جانب دفاع الأب جريجوار

Abbé Gregoire الحار عن اليهود فى مبحثه «مقال حول أحياء اليهود» عام ١٧٨٨ الذى مهد السبيل إلى إدخال إصلاحات لصالح اليهود فى نظام فرنسا السياسى.

ويعتبر رودلف إيريك راسب (١٧٣٧ - ١٧٩٤) Rudolf Eric Raspe فى مقدمة الأدباء الإنجليز المدافعين عن اليهود، انحدر راسب من أصل ألمانى ونفته السلطات الألمانية إلى إنجلترا، وفى عام ١٧٨١ قام بترجمة مسرحية لسنج الشعرية المدافعة عن اليهود «ناثان الحكيم» ترجمة إنجليزية نثرية رأت طريقها إلى النشر عام ١٧٨١. صدر راسب هذه الترجمة بمقدمة تدافع دفاعًا مجيدًا عن اليهود جاء فيها: «إن لسنج لم يكتب ناثان الحكيم بهدف تقديمها على خشبة المسرح ولكن كتبها كترياق للتعصب الدينى البغيض الذى تتسم به معاملة الألمان لليهود فى كثير من أنحاء ألمانيا». ويضيف راسب إلى ذلك قوله: «إن الصدق الفلسفى الحق الذى تنبغى به هذه المسرحية التى تجرؤ على معاملة الكفرة والرهبان وشيوخ الكنيسة معاملة عادلة يبدو سمة تتميز بها هذه الأمة (يعنى إنجلترا). ورغم أن شخصية شيلوك المقيتة وغير السوية تظل تنفخ فيما تبقى من جمر التعصب الذى اتسمت به محاكم التفتيش ورغم أن التسامح العالمى لم تترسخ أقدامه رسوخًا عنيدًا بعد فإن الأمل المعقود على كل حال يكمن فى أن ينجح فى إبطال مفعول السم الذى تركته عصور البربرية فى عقول المتعصبين، كما أن الأمل يحدو بنا إلى الإيمان بأن شكسبير والأحزاب السياسية قد تنجح فى إشعال جذوة التسامح التى خمدت نارها».

يقول كمبرلاند فى هذا الصدد: «أعتقد اعتقادًا صادقًا بأن شخصية شيلوك البغيضة الحقت بنا نحن أبناء إبراهيم المشتتين فى الأرض اضطهادًا أقل من الضرر الذى ألحقته محاكم التفتيش بنا». ومن المحتمل أن يكون كمبرلاند قد تأثر بتعليقات راسب عن اليهود الذين تضمنتهم ترجمته لمسرحيات لسنج «ناثان الحكيم». والجدير بالذكر أن ترجمة راسب لهذه المسرحية لم تكن جيدة أو متميزة، الأمر الذى حدا بوليم تيلور من نورتيش (١٧٦٥ - ١٨٣٦) William Taylor of Norwich لإعادة ترجمتها فى عام ١٧٩٠: «عندما كانت مسألة التسامح مطروحة على الساحة.. ولكن هذه الترجمة ظلت محدودة التداول بين أصدقاء المترجم

ومعارفه حتى اتسعت دائرة انتشارها فى عام ١٨٠٥ . وصدر تيلور ترجمته بكلمة جاء فيها: «إنها مسرحية جدلية تهدف إلى بذر بذور التسامح الدينى بين الطوائف المختلفة». ومن المحتمل أيضًا أن يكون كمبرلاند قد تأثر بأعمال الشغب التى قادها اللورد جورج جوردون (١٧٥١ - ١٧٩٣).

وفى عام ١٧٩٠ رسم كمبرلاند صورة ليهودى آخر أبعد عن المعقولية والتصديق فى شخصية إبراهامز التى سبق أن أشرنا إليها، وهذه الشخصية التى يصعب على القارىء تصديقها هى نيكولاس بيدروسا الذى يشتغل حلاقًا وجراحًا فى مدريد. وهو يهودى منافق يجهر بالمسيحية فى حين أنه يستمسك سرًا بالدين اليهودى، ويكرر كمبرلاند هنا هجومه على محاكم التفتيش وأساليبها القمعية التى تستخدمها فى اضطهاد اليهود على غرار ما فعل عندما قدم لنا شخصية إبراهامز. ويمكن اعتبار هجومه على اضطهاد محاكم التفتيش لليهود جزءًا لا يتجزأ من الحركة الداعية للأخوة الإنسانية التى برزت فى أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر. وهى روح تجلت فى العطف العام الذى أبدته الحركة الرومانسية الإنجليزية على شعب إسرائيل مثلما فعل الشاعر كولريدج فى المأساة التى سطرها عام ١٧٩٧ بعنوان «الندم» والعطف الذى أظهراه كل من أندروز Andrews وباى Pye فى إعدادهما المسرحى لمسرحية ألمانية قدماه عام ١٧٩٨ بعنوان «مفتش محاكم التفتيش». أضف إلى ذلك ما نجده من هجوم على محاكم التفتيش أورده كل من الكاتبين الألمانية كوتزيبو Kotzebue عام ١٧٨٩ ودون كارلوس عام ١٧٨٧ Don Carlos.

ونحن نطالع فى «الأوبزرفر» تسجيلا لإسهام كمبرلاند فى الجدال الدائر حول معجزات موسى والسيد المسيح بين يهودى يدعى دافيد ليفى David Levi وقس متبحر فى العلم اسمه الدكتور بريستلى Priestley. ورغم ما تميزت هذه الملاحاة من سماحة فى التفكير فإن كمبرلاند يرى أن من الطبيعى أن ينكر اليهود على المسيح الذى سفكوا دمه إتيانه بالمعجزات، غير أن البحث الذى نشره كمبرلاند عن السحر والسحرة يتضمن دفاعًا عن اليهود فهو يؤكد أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية اعتادت توجيه تهمة الاشتغال بالسحر إلى المهرطقين واليهود والمسلمين.

يتضح لنا مما تقدم أن عطف كمبرلاند على اليهود على نحو صريح يقتصر على كتاباته النثرية، والغريب أن الكثير من أشعاره يخلو من هذا العطف مثل الهجائية التى نظمها عام ١٧٨٥ تحت عنوان «قصيدة عن دوريندا» A Poem on Dorinda. ونحن نجد نفس الروح غير المتعاطفة مع اليهود فى القصيدة التى نظمها عام ١٧٨٩ بعنوان «الشعبية» Popularity. ولكن هذا لا يجب أن ينسينا عطفه عليهم فى عدد من أعماله المسرحية.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن فيلسوف المذهب النفعى الإنجليزى جيرمى بنثام الداعية المعروف للإصلاح الاجتماعى Jeremy Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢) أظهر تعاطفًا مع اليهود ودعا إلى حسن معاملتهم فيما سطره عام ١٧٧٨ بعنوان «رأى فى مشروع القانون الخاص بالأعمال الشاقة». يحدثنا بنثام عن نفاق الإنجليز الذى يجعلهم يعيبون على اليهود اشتغالهم بالربا ثم السماح لهم بمزاولة هذا العمل حتى تتضخم ثرواتهم فيقومون بالاستيلاء عليها وتجريدهم من نفائسهم. وهذا ما صوره والتر سكوت فى روايته المعروفة «إيفانهو». ويبدو أن هناك توافقًا فى الرأى بين كل من بنثام ووالتر سكوت.

وفى عام ١٧٩٤ قدم لنا روبرت بادج (١٧٢٨ - ١٨٠١) فى روايته «رجل وليس برجل: أو هير مسبرونج (١٧٩٤) صورة تقليدية للمرابى اليهودى الجشع الذى شاعت صورته فى المسرحيات الكوميدية التى ظهرت فى نهاية القرن الثامن عشر.

ورغم انتشار الروح المتسامحة مع اليهود فى الأدب الإنجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر فإن ذلك لا يعنى بطبيعة الحال أن الصورة التقليدية البشعة قد اختفت واندثرت إلى غير رجعة فأدب ماريا إدجورث الروائى Maria Edgeworth (١٧٦٧-١٨٤٩) احتفظ بالعداوة التقليدية لبنى إسرائيل، ومن الواضح أنها تأثرت فى هذه العداوة بالروائية فانى بيرنى، وقد عبرت إدجورث عن عداوتها لليهود فى الروايات التالية: «قلعة راكرانت» (١٨٠٠) «وحكايات أخلاقية» (١٨٠١) Moral Tales و«الغائب» (١٨١٢) The Absentee «وهارنجتون» Harrington.

(٤)

كتَّاب المسرح الإنجليزى واليهود في القرن الثامن عشر

سبق أن عالجت هذا الموضوع بإيجاز فى كتابى «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى» المشار إليه آنفًا. وتناولت فى هذا الكتاب المسرحية التى قدمها أمير الشعراء «جون درايدن» Dryden عام ١٦٩٣ بعنوان «انتصار الحب أو الطبيعة سوف تسود» Love Truimphant على مسرح درورى لين فى لندن وذلك بعد مرور سبعة وستين عامًا على ظهور آخر يهودى على المسرح الإنجليزى، وأود أن أضيف أنه فى الفترة من ١٦٢٧ حتى ١٦٩٤ اختفت شخصية اليهودى من المسرحيات الكوميدية والتراجيدية على عكس المسرح الإليزابيثى الذى كان يعج بالشخصيات اليهودية، وقد يبدو غريبًا اختفاء اليهود من المسرحيات الإنجليزية طوال معظم القرن السابع عشر، ولكن الأمر يصبح مفهومًا إذا علمنا أنه بوصول البروتستانتى المتشدد كرومويل إلى سدة الحكم والإجهاز على الملك تشارلز الأول صدر أمر بإغلاق المسرح الإنجليزى فى عام ١٦٤٢ حتى عودة الملكية فى ١٦٦٠. يقول لاندا Landa فى تفسير هذه الظاهرة إن كُتَّاب المسرح آنذاك كانوا يمتلكون مادة مسرحية ثرية ومن ثم لم يكونوا بحاجة إلى شخصية اليهودى فى مسرحياتهم. يقول لاندا: إن عدد اليهود فى إنجلترا آنذاك كان ضئيلاً للغاية، وأن هذا العدد الضئيل كان يتمتع بحماية الملك، ويرفض بعض النقاد تفسير اختفاء اليهود من المسرح الإنجليزى بضآلة عددهم بقولهم: إن إنجلترا فى عهد الملكة إليزابيث كانت تخلو تمامًا من اليهود، ورغم ذلك قدم لنا المسرح الإليزابيثى شخصيات يهودية خالدة مثل شيلوك فى «تاجر البندقية» وباراباس فى «يهودى مالطا». والجدير بالذكر أن

درايدن لم يستهزئ باليهود فى مسرحية «انتصار الحب» إلا بعد أن فقد معاشه وإمارته على الشعر، وبعد عودة الملكية إلى إنجلترا عام ١٦٦٠ بدأ المسرح الإنجليزى من جديد يقدم الشخصيات اليهودية حيث عادت مسرحية «تاجر البندقية» إلى الظهور دون أن تلقى نجاحًا يذكر لأن رومانسية شكسبير وجدت من الجمهور البريطانى صدودًا وعزوفًا، فضلاً عن أن المسرح الإنجليزى بعد عودة الملكية استلهم كُتَّاب المسرح الفرنسى أمثال كورنيل وراسين وموليير الذين خلت مسرحياتهم من أية إشارة إلى اليهود، وعلى أية حال فمن الواضح أن درايدن فى «انتصار الحب» تأثر برواية «دون كيشوت» التى ألفها الكاتب الإسبانى المعروف سيرفاتيس (١٥٤٧ - ١٦١٦) التى ظهرت ترجمتها الإنجليزية آنذاك، وتختلف معالجة درايدن لليهود عن معالجة كُتَّاب المسرح الإليزابيثى فدرايدن يصوره كمغفل ومأفون فى حين صوره الإليزابيون كوغد جشع يتقن الختل والخداع. وعن طريق تصوير اليهودى كمغفل قام درايدن بإفساح الطريق أمام المسرح الإنجليزى للزراية به.

يهودى البندقية :The Jew of Venice

فى عام ١٧٠١ نشر جورج جرانفيل George Granville (١٦٦٧ - ١٧٣٥) الشاعر والمؤلف المسرحى الخامل الذكر مسرحية بعنوان «يهودى البندقية» استقاها من مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية». قدم جرانفيل مسرحيته لأول مرة على خشبة مسرح لينكولن إن فى مايو ١٧٠١ وظلت تمثل على خشبة المسرح بدلا من مسرحية شكسبير الأصلية لمدة أربعين عامًا حتى بدأ الاهتمام بمسرحية شكسبير الأصلية فى عام ١٧٤١.

وتكاد أحداث مسرحية جورج جرانفيل الأساسية أن تكون صورة طبق الأصل من مسرحية شكسبير «تاجر البندقية»، ولكن زهو جرانفيل وخيلاءه جعلاه يزعم أن مسرحيته تتفوق على مسرحية شكسبير، وعلى أية حال أجرى جرانفيل بعض التعديلات على النص الشكسبيرى مثل إسقاطه على نحو مخل أحيانًا مالا يقل عن ثمانى شخصيات فرعية وغير فرعية، ولا يوجد ثمة خلاف جوهرى بين شخصية اليهودى شيلوك فى كلا النصين المذكورين، والجدير بالذكر أن شدة مأساوية

المسرحية الشكسبيرية ورومانسيتها لم تروقا فى عين جرانفيل الذى آثر التركيز على الاستهزاء بشخصيته وتصويره بطريقة مضحكة مقتديًا فى ذلك بدرايدن فى «انتصار الحب» ومن الواضح أن جرانفيل كان من أشد المعجبين بالشاعر جون درايدن وليس أدل على رغبة جرانفيل بالزراية بشيلوك من أنه أسند دوره كممثل كوميدى معروف آنذاك يدعى دوجيت Dogget الذى مثل أيضًا دور اليهودى فى مسرحية درايدن عام ١٦٩٣. ويعلق أمير الشعراء نيكولاس راو (١٦٧٤ - ١٧١٨) Nicholas Row على معالجة جرانفيل الكوميدية الصرف لشخصية اليهودى شيلوك بقوله: «رغم أننا رأينا تلك المسرحية تقدم وتمثل كعمل كوميدى وأن الذى قام بلعب دور اليهودى ممثل كوميديان ممتاز، فإنى أذهب إلى أن المؤلف أراد أصلاً أن يصوره بطريقة تراجيدية تتسم بروح التشفى والانتقام المميتة وبالوحشية الفتاكة كما تتسم بالنزوع الدموى للقسوة والشر على نحو لا يتفق مع طبيعة الكوميديا وشخصياتها». ويضيف الناقد جينست Genest إلى ذلك قوله «وهذا واضح لدرجة تدعو المرء إلى الاستغراب من أن يتعامى جرانفيل عن ذلك». ومن الجلى أن دافع جرانفيل إلى الاستهزاء بشيلوك يرجع إلى شدة مقته لليهود.

ونذكر فى هذا الشأن أن العنوان الذى اختاره جرانفيل لمسرحيته «يهودى البندقية» هو نفس العنوان الذى أطلقه الكاتب المسرحى توماس ديكر Thomas Dekker على مسرحيته الضائعة.

ولعله من المفيد أن نذكر أن جرانفيل أدخل تغييرات على شخصيته اليهودية جسيكا (ابنة شيلوك) لتصويرها على نحو أسوأ من تصوير شكسبير لها؛ فهى لا تجد أدنى غضاضة من الاستهزاء بأبيها والضحك عليه وهو ما لا نجده عند شكسبير، ويبدو أن جرانفيل اقتفى أثر درايدن فى رغبته فى الحط من شأن اليهود.

(٥)

أثر مسرحية «رحلة عاهرة» فى الأدب الإنجليزى

إذا نحن نظرنا إلى الأعمال الأدبية عن اليهود التى ظهرت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر نجدها قليلة العدد بالمقارنة بنظيراتها فى النصف الثانى من هذا القرن فهى لا تزيد عن أربع مسرحيات هى:

١ - مسرحية كيبر Cibber «تقدم العاهرة» (١٧٣٣) The Harlot's Progress.

٢ - مسرحية مجهولة المؤلف بعنوان «خداع اليهودى أو تقدم عاهرة» (١٧٣٥) The Jew Decoyed, or The Progress of a Harlot.

٣ - مسرحية فيلدنج «الآنسة لوسى فى المدينة» (١٧٤٢) Miss Lucy in Town.

٤ - مسرحية مجهولة المؤلف بعنوان «مستوصف أورشليم» (١٧٤٩) The Jerusalem Infirmary.

ولعل السبب فى قلة عدد الأعمال الأدبية التى تعالج اليهود فى النصف الأول من القرن الثامن عشر يرجع إلى ما أظهره اليهود عام ١٧٤٥ من ولاء للحكومة الإنجليزية أيام التمرد اليعقوبى عليها، ويشير الروائى الإسكتلندى والتر سكوت إلى هذه الفترة فى كتابه «ابنة الجراح» The Surgeon's Daughter بقوله عن اليهود: «على الرغم من أنهم فى الغالب الأعم أناس محترمون للغاية فإنه لم يكن لديهم أراض أو أملاك لأن القانون كان يحرم عليهم ذلك... كان اليهود يحبون الحكومة حبًا عظيمًا ويحملون الكراهية للبابا والشيطان، وفى عام ١٧٤٧ أظهر اليهود حماسًا عظيمًا لمقطوعة هاندل الموسيقية عن يهوذا المكابى واعتبروه تجسيدًا للبطل اليهودى، ونحن نقرأ فى النصف الأول من القرن الثامن عشر إشارات كثيرة تتعاطف مع

اليهود، فقد أظهر رئيس أساقفة كانتربرى توماس هيرنج Thomas Herring وداً وصداقة لهم. فضلا عن أن المؤرخين فى ذلك الزمان لم يخفوا عطفهم على بنى إسرائيل. ففى عام ١٧٠٦ بدأ المؤرخ ورجل الدين البروتستانتى فى روتردام يعقوب كريستيان باسناج Jacob Christian Basnage فى نشر كتابه المعروف «تاريخ الدين اليهودى منذ السيد المسيح حتى وقتنا الراهن». وقد اضطلع أ. م. تيلور A. M. Taylor فى عام ١٧٠٨ بترجمة هذا الكتاب إلى الإنجليزية الأمر الذى ساهم فى دعم روح التسامح مع اليهود. ومما ساعد على دعمه أيضاً أن الدكتور بلوسيير توفى D. Blossiers Tovey نشر فى عام ١٧٣٨ مبحثاً بعنوان «اليهودية الإنجليزية أو تاريخ اليهود فى إنجلترا» ويشير هذا المبحث فى مقدمته إلى كثير من حوادث الاضطهاد التى تعرض لها اليهود، ويضيف المؤلف قائلا: «إن لليهود الحق شرعاً فى عبادة الله بطريقتهم الخاصة، ورغم عدم وجود أى قانون إيجابى يسمح لهم بذلك فإنى مازلت أعتبر حرمانهم من هذا الحق أمراً غير معقول». وربما ترجع ضآلة الإشارات إلى اليهود فى النصف الأول من القرن الثامن عشر (وبالذات فى الفترة من ١٧٠١ إلى ١٧٣٣) إلى الفشل الذريع الذى منيت به مسرحية درايدن «انتصار الحب» ومسرحية جرانفيل «يهودى البندقية».

غير أن بعد اليهود فى أوائل القرن الثامن عشر عن دائرة الضوء حتى عام ١٧٣٣ لا يعنى مطلقاً غيابهم عن الأذهان تماماً حيث توجد إشارات إليهم فى أعمال كل من وليم كونجريف (١٦٧٠ - ١٧٢٩) Congreve وجورج فاركار (١٦٧٨ - ١٧٠٧) George Forguhar والسير جون فانبرو (١٦٧٢ - ١٧٢٦) John Vanbrugh. ونحن نرى إشارات مسيئة لليهود فى مسرحية «الغشاش» The Double Dealer التى قدمت على مسرح دروری لین فى أكتوبر ١٦٩٣ و «طريق العالم» The Way of the World وكذلك فى مسرحية فاركوهار «السير هارى وايلد إير Sir Harry Wild aire التى مُثلت على مسرح درورى لين فى إبريل ١٧٠١ و «الغريمان التوءم» The Twin Rivals التى مثلت على نفس المسرح فى ١٤ ديسمبر ١٧٠٢.

وفى مسرحية فانبرو «المؤامرة» The Confederacy التى قُدمت على مسرح الهاى ماركت فى أكتوبر ١٧٠٥ نرى أن كلمة يهودى تستخدم كشتيمة يقصد بها

الإساءة والمعايرة، وهو ما نراه فى المسرحية الهزلية الذائعة الصيت التى ألفها جون جاى (١٦٨٥ - ١٧٣٢) John Gay بعنوان «الذى تسميها» The What d'ye Call it علمًا بأن جون جاى ألّف مسرحية أخرى ناجحة بعنوان «أوبرا الشحاذ» The Baggar's Opera التى مُثلت على مسرح لينكولن إن فيلدز فى يناير عام ١٧٢٧ - ١٧٢٨.

وهناك أيضًا إشارات مسيئة إلى اليهود فى الكوميديا الشعبية التى ألفتها السيدة سوزانا سنتليفر Susannah Centlivre بعنوان «المشغول» وقدمتها على مسرح درورى لين فى مايو ١٧٠٩ إلى جانب مسرحيتها التى قدمت على خشبة مسرح لينكولن إن فيلدز فى فبراير عام ١٧١٨ بعنوان «خبطة جورة بالنسبة إلى زوجة».

ولا مناص فى هذا الصدد أن نذكر مسرحيات كولى كيبر (١٦٧١ - ١٧٥٧) Colley Cibber مثل مسرحية «غير المحلف» The Non-Juror التى قدمت على مسرح درورى لين فى ديسمبر ١٧١٧ ومسرحية «الرفض: أو فلسفة السيدات» The Ladies Philosophiy أو The Refusal أو التى مثلت على خشبة المسرح فى فبراير ١٧٢١ إلى جانب مسرحية ثالثة بعنوان «الزوج الغاضب أو رحلة إلى لندن أو The Provoked Husband or a Journey to London التى مُثلت كذلك فى مسرح درورى لين فى يناير ١٧٢٧/١٧٢٨. ولا يفوتنا أن نذكر مسرحية كولى كيبر «الحب يصنع الرجال» Love Makes a Man or the Fop's Fortune التى قُدمت على خشبة درورى لين فى ديسمبر عام ١٧٠٠ تضم شخصية واحد من اليهود، والجدير بالذكر أن كيبر استقى هذه المسرحية الكوميدية الناجحة فى المزاوجة بين مسرحيتين سابقتين ألفهما فلتشر Fletcher بعنوانين «عادات الريف Custom of the Country التى مُثلت عام ١٦٢٨ و «الأخ الأكبر» The Elder Brother التى مُثلت بعد عام ١٦٢٥.

ومن المهم هنا أن نذكر أن النصف الأول من القرن الثامن عشر شاهد ظهور عدد كبير من المسرحيات الدينية التى تعالج اليهود كما أوردهم الكتاب المقدس من منظور تاريخى. وفيما يلى قائمة بالمسرحيات اليهودية الدينية والتاريخية التى ظهرت فى خلال القرن الثامن عشر بأكمله وتواريخها:

١٧٠٢: مسرحية أنتبوك العظيم أو النكسة المميتة.

Antiochus the Great; or The Fatal Relapse

مأساة من تأليف السيدة جين وايزمان Jane Wiseman.

١٧٠٣: مسرحية مجهولة المؤلف بعنوان «قسم جيفتا الطائش أو تضحية العذراء»

Jephta's Rash Vow or The Virgin's Sacrifice.

١٧٠٣: مسرحية «الملك شاؤول» مأساة من تأليف الدكتور جوزيف تراب Joseph Trapp

١٧١٥ مسرحية «استر أو انتصار الإيمان»

Esther; or Faith Triumphant مأساة من تأليف توماس بريريتون Thomas Brereton.

١٧١٧: «أغسطوس» Augustus تأليف إدوارد بيدل Edward Biddle.

١٧١٩: مسرحية مجهولة المؤلف بعنوان «حياة ملك أهاسفيروس أو تاريخ إستر المتع The Life Of King Ahasverus; or The Delightful History of Esther.

١٧٢١: مأساة بعنوان «أنتيوكوس» Antiochus تأليف جون هوتلي John Mottley.

١٧٢٣: مأساة ماريان Marianne تأليف إليا فنتون Elizah Fenton.

١٧٢٤: مأساة أتاليا Athaliah تأليف وليم دنكومب William Duncombe.

١٧٢٧: مسرحية شعرية بعنوان بالتازار أو اليهودى البطل Belteshazzar; or The Heroic Jew تأليف توماس هاريسون Thomas Harrison.

١٧٤٠: مسرحية بعنوان «هيرود العظيم» Herod The Great تأليف فرانسيس بيك Francis Peck.

١٧٤٠: مأساة جديدة بعنوان «أنتيوكوس» Antiochus تأليف تشارلز شكبرج Charles Shuchkburgh.

١٧٥٠: «أغنية سليمان» The Song of Soloman تأليف جون بلاند JohnBland

١٧٦٠: مأساة «شاؤول» Saul تأليف أريون هيل Aaron Hill.

١٧٦١: مـأسـاة «شـاؤول وجـوناثان» Saul and Jonathan تـأليف إدوارد كـرين Edward Crane.

١٧٦٣: «مأسـاة حصار أورشليم» The Siege of Jeruslem تأليف مارى لاتر Mary Latter.

١٧٦٦: مسـرحـية تتويج داوود The Coronation of David تأليف جـوزيف وايز Joseph Wise.

١٧٨٢: «مسـرحيات دينية مقدسـة (موسى - بلشازار - دافـيد وجليـاط - دانيال) Sacred Dramas تأليف السيدة حنا مور Hannah More.

١٧٨٣: مسرحية شعرية بعنوان «ابنة جفتاه» Jephthah's Daughter تأليف السـيدة أن ويلسون Ann Wilson.

١٧٨٥: «مسـرحـيات دينية مـقدسـة (موت آدم - هـاجر فى البرية - أخـوة يوسف يتـعرفـون عليـه - عـودة توبياس - روث وناعومى - إسـحق كضـحـيـة - أرملة ساريبتا Sacred Dramas.

١٧٨٩: مسـرحية دينية مقدسة مجهولة المؤلف بعنوان «أخوة يوسف يقومون ببيعه» Joseph Sold by his Brethren.

١٧٩٣: إعداد مسرحى لكتاب «دانيال تأليف السيدة مور» More مجهول الهوية.

١٧٩٨: مسرحية دينية مقدسة بعنوان «حزقيال ملك اليهودية» Hezekiah King of Judah تأليف ألن Allen.

مسرحية تقدم العاهرة أو رحلة العاهرة:

بالنظر إلى الطابع الدينى والتاريخى للمسرحيات الآنفة الذكر عن اليهود فإنها لا تعـالج اليـهـودى بشـحـمـه ولحـمـه كمـا درج الناس على مـعـرفـتـه؛ ولهـذا يذهب المتخـصـصـون إلى أن أول صـورة حـقيقـيـة لليـهـودى تنبض بالحياة فى القرن الثـامن عشـر هى مـسـرحـيـة «تقـدم العـاهـرة أو رحلـة العـاهـرة The Harlot's Progress التى ألفـها ابن كولى كيبر - ثيوفيلوس كيبر الممثل الفاشل (١٧٠٣ - ١٧٥٨) The ophilus Cibber. ورغم أن هذه المسـرحـيـة منيت بالفـشل الذريع عند تقديمها على مسرح دروری لين فى مارس عام ١٧٣٣ فإن أهميتها ترجع إلى الأثر الكبير الذى تركته فى العديد من المسرحيات الإنجليزية التى تدور حول اليهود.

أهدى ثيوفيلوس كيبر مسرحيته إلى الرسام وليم هوجارث (١٦٩٧ - ١٧٧٤) William Hogarth الذى بلغ ذروة شهرته فى عام ١٧٣٢ عندما نحت ست لوحات أطلق عليها اسم «تقدم العاهرة» التى تصور صروف وتقلبات حياة فتاة ريفية ترحل من الريف إلى المدينة حيث تصبح عشيقة يهودى ثرى، وتدخل الفتاة الإصلاحية وتخرج منها مصابة بمرض عضال، وتسكن حجرة شديدة التواضع. وتصور لوحة هوجارث الأخيرة جنازتها بعد وفاتها فى عار وشنار. ويعتقد أن هوجارث استقى اسم لوحاته فى رواية جون بانيان المعروفة «رحلة الحاج» (١٦٧٨).

ويسمى كيبر مؤلف المسرحية الفتاة الريفية المومس الآنسة كيتى كما يسمى عشيقها اليهودى الثرى موردخاى، وتدور أحداثها حول كيتى التى تخون هذا اليهودى مع شخص يدعى هارلكوين فيقوم العاشق الغيران بطردها من منزله غير أنها تغافله وتغافل عشيقها فى المسكن الذى وفره لها اليهودى موردخاى الذى تثور ثائرته فينوى طردها، ولكن ثائرته تهدأ عندما يزورها فى مسكنها لأنها تنجح فى إخفاء عشيقها الثانى عن موردخاى عشيقها الأول، وتومئ الفتاة إلى خادمها كى يقوم بتهريب هارلكوين ولكن لسوء الحظ يسقط سيفه على الأرض محدثًا صوتًا يلفت اليهودى إلى وجوده فيجرى وراءه فتسقط اللوحات المعلقة التى تتحول إحداها بقدرة قادر إلى منظر كيتى وعشيقها غير اليهودى يتعانقان، وإذا كان هوجارث قد صور اليهود على أنه فاسق فإن كيبر فى مسرحيته أمعن فى الزراية به فصوره على أنه فاسق ومغفل معًا.

هناك عدة إشارات إلى اليهود الذين يحتفظون بعشيقات فى عدد من مسرحيات القرن الثامن عشر مثل «أوبرا الشحاذ» التى ألفها جاى فى عام ١٧٢٨ و مسرحية «الزوج الغاضب» التى ألفها كيبر فى نفس العام، وفى مسرحية «الغريمان التوءم» التى ألفها فاركوهار عام ١٧٠٢. وهناك احتمال كبير أن يكون هوجارث قد تأثر بالمسرحيتين الأولى والثانية بسبب نجاحهما الباهر، ومن المعروف أن هوجارث كان شديد الإعجاب بـ «أوبرا الشحاذ» وأنها أوحت له ببعض رسومه.

وفى عام ١٧٣٢ شاهدت لندن اندلاعًا لأعمال الشغب ضد اليهود، ففى هذا العام نشر شخص يدعى أوزبورن مقالا يتهم فيه اليهود بقتل بنى جلدتهم الذين يتزوجون من خارج المجتمع اليهودى، وأثار هذا الاتهام غضب سكان لندن فقاموا بالاعتداء على بعض اليهود المشتبه فيهم.

لم يقتصر تأثير لوحات هوجارث الخاصة باليهود على الكاتب المسرحى ثيوفيلوس كيبر وحده بل امتد إلى كثير من كُتَّاب المسرح آنذاك. ففى عام ١٧٣٥ ظهرت فى لندن أوبرا - بالاد مجهولة المؤلف بعنوان «خداع يهودى أو رحلة عاهرة» لم تمثل قط على خشبة المسرح، وأحداث هذه المسرحية شبيهة بمسرحية كيبر باستثناء بعض التفاصيل وبلغت زراية هذه المسرحية ببنى إسرائيل حدًا جعل مؤلفها المجهول يطلق اسمًا يهوديًا مرموقًا ومحترمًا (هو اسم ماناسيه بن إسرائيل) على شخصية اليهودى الداعر، وسوف ندرك مقدار هذه الزراية إذا تذكرنا أن ماناسيه بن إسرائيل هو الذى نجح فى عام ١٦٥٥ فى إقناع الحكومة الإنجليزية بالسماح بعودة اليهود إلى أراضيها، والجدير بالذكر أن جانبًا من الزراية بهذا اليهودى ماناسيه ترجع إلى لهجته وعدم إتقانه باللغة الإنجليزية وسوء نطقه بها، وهو تقليد مسرحى درج على استخدامه عدد من كُتَّاب المسرح أمثال كمبرلاند فى «العاشق الأنيق» (١٧٧٢) The Fashionable Lover وفوت Foot فى مسرحية «الغشاشون» (١٧٧٤) The Cozeners ومسرحية أوكيف O' Keeffe «الكويكرالشاب» The Young Quaker (١٧٨٣).

لقد سبق لنا الإشارة إلى هنرى فيلدنج وزرايته باليهودى فى أعماله الروائية. ونود أن نضيف أنه فعل نفس الشىء فى مسرحيته «الآنسة لوسى فى المدينة». بدأ فيلدنج الكتابة للمسرح بعد رحيله من مدينة لبرن الهولندية، كتب فيلدنج سبعًا وعشرين محاولة مسرحية سوف نقتصر على معالجة خمسة منها هى «البخيل» The Miser (١٧٣٢) و «دون كيشوت فى إنجلترا» (١٧٣٣). Don Quixote in England وباسكوين (١٧٣٦) Pasquin و «الآنسة لوسى فى المدينة» (١٧٤٢).

ومسرحية «البخيل» ترجمة جرة للمسرحية المعروفة التى ألفها الكاتب موليير

بنفس العنوان عام ١٦٦٨. ومثلت مسرحية «دون كيشوت فى إنجلترا» على مسرح الهاى ماركت نحو شهر إبريل عام ١٧٣٤. ومن المحتمل أن يكون فيلدنج تأثر بهوجارث فى زرايته باليهود وخاصة لأنه كان صديقه ومن أشد المعجبين به، ونفس الأثر واضح فى مسرحية فيلدنج التالية «باسكويت: هجائية درامية لزماننا» التى قدمت على مسرح الهاى ماركت فى مارس عام ١٧٣٥ - ١٧٣٦. وتأثر مسرحية فيلدنج الهزلية «الآنسة لوسى فى المدينة» بلوحات هوجارث «رحلة العاهرة» جلى للعيان. والآنسة لوسى زوجة يهودية تخون زوجها وتهرب مع عشاقها. وقد تعرضت هذه المسرحية عند تمثيلها للمصادرة المؤقتة ليس لأنها تهزأ باليهود وتصورهم على نحو منفر ولكن لأنها تضمنت تعريضاً بأحد النبلاء الإنجليز الأحياء، ويحتمل أيضاً أنها تأثرت بكل من كيبر ومسرحية «خداع اليهودى» المجهولة المؤلف، فجميع هذه المسرحيات ترسم لها صورة يهودى فاسق وداعر تخونه عشيقته مع غيره من الرجال وهو نفس الموضوع الذى تناوله سمولت فى روايتيه السالفتى الذكر «رودريك راندوم» (١٧٤٨) و «بيرجرين بيكل» (١٧٥١).

وقد ترك فيلدنج أثراً فى مؤلف مسرحى لاحق يدعى جوزيف ريد Joseph Reed ألف مسرحية هزلية بعنوان «مكتب التسجيل» The Register Office التى قدمت على مسرح درودى لين فى ٢٥ إبريل ١٧٦١ وتشتمل هذه المسرحية على شخصية يهودى فاجر اسمه زوروبابل.

مسرحية «مستوصف أورشليم» الهزلية:

الاسم الكامل لهذه المسرحية باللغة الإنجليزية The Jerusalem Inirmary or a Journey to the Valley of Jebosaphat والمسرحية لا تحمل اسم مؤلفها المجهول الهوية، ويقال: إنه كان من المزمع تمثيلها فى «سوق سونوارك» ونشرها عام ١٧٤٩ فى البندقية ويذهب الباحثون إلى ضياع هذا النص المسرحى المستهزئ باليهود، ولكن أحد الباحثين عثر على لوحة تحمل نفس عنوان المسرحية فى مكتبة البوبليان فى أكسفورد الأمر الذى حدا به إلى تخيل أحداث المسرحية. وليس هناك ما يدعو إلى سردها لأنها قد تبعد كثيراً عن حقيقة النص الضائع.

٦ـ تشارلز ماكلين Charles Macklin

يجدر بنا أن نذكر أن يهوديًا ثريًا يدعى موسى منديز Moses Mendez (المتوفى عام ١٧٥٨) ألف أربع مسرحيات أصابت اثنان منها وهما بعنوان «خيبة أمل مزدوجة The Double Disappointiment (١٧٤٦) «وتاج من الزهور» (١٧٤٩) The Chaplet. نجاحًا ملحوظًا بالإضافة إلى مسرحيتين موسيقيتين استعراضيتين هما روبن هود (١٧٥٠) Rebin Hood «ويانصيب الراعي» (١٧٥١) The Shepherd's Lottery ويرجع ظهور كاتب مسرحي يهودى فى الأدب الإنجليزى إلى بدء اتساع نطاق تسامح الإنجليز مع اليهود، غير أن هذه المسرحيات الأربع لم يكن فيها أية معالجة للموضوعات التى تهم اليهود.

وبعد صمت دام عشرة أعوام تقريبًا انقطعت فيها المسرحيات التى تتناول اليهود ظهرت مسرحية تشارلز ماكلين (١٦٩٧ ـ ١٧٩٧) «الحب على الموضة» Love a' la Mode التى مهدت السبيل لظهور عدد من المسرحيات خطها براع ماحكين وفوت وشيريدان وكمبرلاند وأندروز وأوكيف ومورتوت. ويعكس الإنتاج المسرحى نحو عام ١٧٥٣ تحامل كثير من الإنجليز على اليهود مما حدا بالحكومة الإنجليزية بأن تلغى قانون منح الجنسية لليهود كما سبق أن أسلفنا.

ولد تشارلز ماكلين نحو عام ١٦٩٧ ومات عام ١٧٩٧، ويقال إن مسرح لينكولن إن فيلدز قام بطرده لأنه دافع عن شخصية شيلوك اليهودى المعروفة، وحاول تصويره كضحية وبطل مأساوى، وفى عام ١٧٣٨ لعب دور موردخاى فى مسرحية «رحلة العاهرة» (تقدم العاهرة) التى مُثلت على مسرح درورى لين، وبعد انقضاء ثلاثة أعوام قام بإحياء مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» حيث برع فى تمثيل شخصية شيلوك التى استمر فى تمثيلها حتى عام ١٧٨٩. وفى عام ١٧٤٢ مثل دور زورا بابل فى مسرحية فيلدنج. «الآنسة لوسى فى المدينة» على مسرح درورى لين.

وبعد مضى سبعة عشر عامًا قدم على نفس المسرح مسرحيته الهزلية «الحب على الموضة» فضلا عن أن زوجته لعبت دورًا فى هذه المسرحية إلى جانب اشتراكها عام ١٧٥٨ فى مسرحية خاركوهار «الغريمان التوءم».

ويمثل عام ١٧٤١ عامًا فارقًا فى مستقبل ماكلين المسرحى فقد طبقت شهرته الآفاق آنذاك بسبب تفسير شخصية شيلوك على أنها شخصية مأساوية على عكس جرانفيل الذى درج منذ عام ١٧٠١م على تقديم شخصيته كمغفل مأفون. وعندما صارح ماكلين زملاءه وأصدقاءه بعزمه على تمثيل شخصية شيلوك بطريقة مأساوية جادة ضحكوا عليه واستخفوا بكلامه، ولم يكد ماكلين يفرغ من تمثيل دور شيلوك بهذه الطريقة المأساوية حتى اهتزت قاعة المسرح بالتصفيق المتواصل الحاد. وغدا الرجل ممثلا يشار إليه بالبنان، وتحمس لتمثيله جمهور المشاهدين لدرجة أن أحدهم قال للشاعر بوب: «هذا هو اليهودى كما صوره شكسبير».

بالإضافة إلى «الحب على الموضة» ألّف ماكلين مسرحيتين رفيعتى المستوى هما «رجل العالم» The Man of the World و«الحب فى التيه» Love in a Maze. وقد قام ماكلين بتمثيل «تاجر البندقية» على مسرح دروری لين فى ١٢ ديسمبر ١٧٥٩.

تشتمل مسرحية «الحب على الموضة» على ست شخصيات فقط إحداها شخصية يهودى اسمه موردخاى تستهزئ به سائر شخوص المسرحية وعلى رأسها شخصيتا السير أرتشى والسير كالاهان، وتصل زراية شخصيات المسرحية به إلى حد وصفه بالوغد الوقح واللعين القذر، ولاشك أن هذه الشتائم تدل على سوء معاملة الإنجليز لليهود حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وخصوصًا عقب إلغاء قانون منح الجنسية لليهود، الأمر الذى دفع كثيرًا من العائلات اليهودية المرموقة إلى اعتناق الدين المسيحى ودرءًا للخطر والاعتداء، ويقال: إن الملك جورج الثانى الطاعن فى السن والذى توقف بسبب تقدمه فى العمر عن الذهاب إلى المسرح سمع الكثير عن مسرحية «الحب على الموضة» فطلب موافاته بنصها المكتوب الذى أدخل عليه تسلية عظيمة ولكنه لم يبد أى امتعاض على الشتائم الموجهة إلى

اليهود في هذه المسرحية التى تحتوى أيضًا علي سخرية من الإسكتلنديين ولكن الإسكتلنديين ـ علي عكس اليهود ـ كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة. ومن ثم كان بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم كما يتضح لنا من النبذة المجهولة المؤلف المنشورة عام ١٧٦٠ «ملاحظات إسكتلندى حول مسرحية (الحب على الموضة) الهزلية، وهذا بعكس اليهود الأذلاء والمهيضى الجناح العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، والجدير بالذكر أن لغة ماكلين فى التعريض باليهود اتسمت بالغلظة والخشونة فى حين أنه لجأ فى هجومه على الإسكتلنديين إلى الفكاهة والدعابة المحببة إلى النفس.

ويذهب النقاد إلى أن ماكلين تأثر فى تأليف مسرحيته المذكورة بمسرحية «العاشق» The Lover التى ألفها ثيو فيليوس كيبر عام ١٧٣٠ ،ومسرحية توماس شيريدان، «الكابتن أوبلندر أو الأيرلندى الشجاع» (١٧٤٥) Captain O'Blunder و«الحب على الموضة» التى ألفها سو ثلاند South Land عام ١٦٦٣ وقصة ليفيتيكوس التى نشرها الدكتور صامويل جونسون فى مجلة «الرامبلر» بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٧٥١. أضف إلى ذلك أن ماكلين تأثر بمسرحية «رحلة العاهرة» التى ألفها كيبر.

غير أن موردخاى اليهودى فى مسرحية ماكلين «الحب على الموضة» يختلف عن قرينه اليهودى الداعر الفاسق كما صوره هوجارث فى لوحته، فهو ذلك اليهودى الطماع الجشع الذى درج الأدب المسرحى الإنجليزى على تصويره مثلما نراه عند درايدن وجرانفيل.

وحين بلغ ماكلين الثمانين من عمره ألّف مسرحيته «رجل العالم» التى قدمها على مسرح كوفنت جاردن فى ١٠ مايو ١٧٨١، ويعطينا ماكلين فى هذه المسرحية نفس الصورة السيئة عن اليهودى التى سبق أن رسمها فى «الحب على الموضة». ولم تقتصر إساءات ماكلين لليهود على مسرحياته فحسب بل امتدت إلى الأدوار التى اضطلع بتمثيلها، فقد كان يحلو له أن يمثل شيلوك على أنه شخصية انتقامية مفترسة تقطر سوءًا وشرًا وخاصة فى مشهد «المحاكمة» لدرجة أنه يقال إن الملك جورج الثانى الذى أغضبه تمرد مجلس العموم عليه قال لرئيس وزارته والبول: «ما

رأيك فى إرسال أعضائه إلى المسرح كى يشاهدوا الممثل الإيرلندى - يقصد ماكلين - وهو يلعب دور شيلوك، «كما أن الروائية ماريا أدجورث فى روايتها «هارنجتون» تصف ماكلين الممثل بأنه «شيلوك شرير منتقم ينذر منظره بالشؤم. يقول كوك Cooke فى كتابه «حياة ماكلين» Life of Macklin أنه اتسم بنظرة قاسية كالحديد وسلوك وحشى لا يرحم جعل النظارة يجفلون ويقشعرون منه. ويكرر ليتشنبرج Lichtenberg نفس المعنى فى الخطاب الذى سطره فى ٢ ديسمبر ١٧٧٥م حيث يقول: «لا سبيل إلى إنكار أن منظر هذا اليهودى يكفى لأن يوقظ فوراً فى أكثر العقول انتظاماً كل ما ورثته فى فترة طفولتها من تحيزات ضد شعب بنى إسرائيل، إن رؤية وجهه الهادئ وهو ينقلب إلى شرير ليس لشره حدود يثير الفزع والرعب، وهذه الصورة المرعبة لا تتماشى مطلقا مع جو المسرحية الكوميدى، ويذهب البعض إلى أن كراهية ماكلين السوداء لليهود هى التى جعلته يصور شيلوك على هذا النحو المرعب يقول فيليبسون Philipson فى هذا الصدد: «عندما كان دور شيلوك يمثل فى القرن الثامن عشر التهبت مشاعر النظارة وتأججت بالحقد والكراهية ضد اليهود».

٧ ـ مسرحيات فوت الهجائية الاجتماعية

كان صامويل فوت Foote (١٧٢٠ ـ ١٧٧٧) صديقا لماكلين. ويذهب البروفيسور م. م. بيلدن Belden إنه ألف ثلاثين مسرحية كوميدية وأنه ممثل بارع ومدير مسرح ناجح، ولكن مسرحياته لم تكن ذات مستوى رفيع، ولعل أهميتها ترجع إلى أنها ترسم صورة للمجتمع الإنجليزى آنذاك، ومعظمها عبارة عن هجائيات اجتماعية أو شخصية فى قالب كاريكاتورى، ومن ثم فليست هناك غرابة فى أنه اقتفى أثر أسلافه فى اتخاذ اليهود مادة للهجوم والهجاء.. غير أن هجاءه لم يقتصر على اليهود بل امتد إلى بعض الملل والطوائف الأخرى مثل طائفة المثيوديست والكويكرز.

هجا فوت اليهود فى إحدى مسرحياته الباكرة بعنوان «الذوق» Taste (التى مثلت فى مسرح درورى لين يوم ١١ يناير ١٧٥٢م). ورغم أن هذه المسرحيات تخلو من الشخصيات اليهودية فإنها تشير إلى سمسار يهودى اسمه موردخاى لازاروس. والجدير بالذكر أن الاسم اليهودى موردخاى يتكرر كثيرًا فى مسرحيات القرن الثامن عشر وأن اسمه يقترن دائمًا بالشر والسوء.

تعتبر مسرحية «القاصر» The Minor (التى مثلت فى دبلن يوم ٢٨ يناير ١٧٦٠) أشهر مسرحيات فوت على الإطلاق. وقد سببت هذه المسرحية ملاحاة شديدة بسبب هجومها الضارى على طائفة الميثوديست المسيحية، ويهجو فوت الربا والمضاربة فى مسرحية «الكوميسارية» The Commisary وتحتوى مسرحيته «الشيطان يمشى على عكازين» The Devil upon Two Sticks (التى مُثلت على مسرح هاى ماركت بتاريخ ٣٠ مايو ١٧٦٨) على شخصية طبيب يهودى جشع وسيئ السمعة يدعى حبقوق Habakkuk فضلا عن أن مسرحيته الهزلية «نابوب» Nabob التى مثلت على مسرح الهاى ماركت فى ٢٩ يونيه ١٧٧٢ تحتوى على شخصيتين يهوديتين هما موسى ومندوزا. وفى تعريضه باليهود يصورهم فوت

بالجشع تارة والعهر تارة أخرى، والكثير من شخصياته اليهودية لا يتقن الحديث بلغة إنجليزية سليمة بل بلهجة مكسورة متبعًا بذلك تقليدًا سبق لأسلافه المسرحيين أن أرسوه على نحو ما ذكرنا مثل كمبرلاند فى مسرحية «العاشق الأنيق». والفرق بين فوت وأسلافه أنه توسع فى استخدام هذا التقليد المسرحى كتكنيك كوميدى فى حين أن أسلافه استخدموه من وقت إلى آخر، والجدير بالذكر أن هذه الإشارات المتكررة الهادئة بالسماسرة اليهود تدل على وجود عدد كبير منهم فى لندن فى القرن الثامن عشر، وبسبب تزايد أعدادهم فى بورصة لندن تدخلت الحكومة الإنجليزية فحددت عدد السماسرة باثنى عشر سمسارًا ولكن هذه الحكومة ألغت هذا التحديد فى عام ١٨٢٨م.

وهناك مسرحيات أخرى لفوت تشتمل على شخصية السمسار اليهودى مثل «المنجد: أو ما الخبر؟» The Upholsterer; or, What News? التى قُدمت على مسرح دروری لين فى ٣٠ مارس ١٧٥٨ ومسرحية «المفلس» The Bankrupr التى مثلت فى مسرح الهاى ماركت يوم ١٥ يوليه ١٧٧٤م. وقد اختتم فوت مستقبله المسرحى بمسرحية «الغشاشون» التى سبق لنا الإشارة إليها.

٨ـ ريتشارد برنسلى شيريدان
Richard Brinsley Sheridan

تعتبر العشرة أعوام من ١٧٧٠ حتى ١٧٨٠ من أخصب الفترات فى تاريخ الكوميديا الإنجليزية فلا غرو فقد شاهدت هذه الفترة الإنتاج المسرحى لكاتبين أيرلنديين عظيمين هما أوليفر جولد سميث (١٧٢٨ ـ ١٧٧٤) وريتشارد برنسلى شريدان (١٧٥١ ـ ١٨١٦) مؤلف مسرحيات بارزة مثل «الغريمان» The Rivals و«الناقد» The Critic «الدوينا أو الشمطاء» The Duenna و«مدرسة الفضائح» The School For Scardal وهاتان المسرحيتان الأخيرتان تحتويان على شخوص يهودية، ولعله من المفيد أن نذكر أن مسرح الكوفنت جاردن قدم فى ٥ ديسمبر ١٧٧٢ مسرحية هزلية مسلية عن اليهود تقع فى فصلين ألفها وليم أوبرين William O'Brion المتوفى عام ١٨١٥ بعنوان «الأغراض المتعارضة» Cross Purposes.

كتب شيريدان مسرحية «الدوينا» عندما كان فى الثالثة والعشرين من عمره. ومثلت هذه المسرحية بنجاح عظيم على خشبة الكوفنت جاردن فى ٢١ نوفمبر ١٧٧٥. وفاقت فى نجاحها المسرحية الشعبية المعروفة باسم «أوبرا الشحاذ».

تدور مسرحية «الدوينا» حول نبيل إسبانى يعيش فى إشبيلية اسمه دون جيرومى له ولد يدعى دون فيرديناند وابنة فاتنة الجمال تدعى دونا لويزا تقوم على خدمتها وحراستها امرأة شمطاء قبيحة الوجه هى «الدوينا». وتقع هذه الفاتنة فى حب شاب غير ثرى اسمه انتونيو ولكن والدها يريد إرغامها على الزواج من يهودى ثرى اسمه إيزاك مندوزا، ولكنها ترفض الزواج منه فيستشيط والدها غضبا ويهدد بمقاطعتها إذا هى أصرت على الخروج عن طاعته ثم يقوم بحبسها فى حجرة مغلقة بالضبة والمفتاح، وتدهور العلاقة بين الحارسة الشمطاء ومخدومها فيطردها من

المنزل ولكنه يسمح لها برؤية ابنته الحبيسة قبل رحيلها فتتحايل عليه بأن تلبس ملابس الفتاة المحبوسة، ويأتى اليهودى فى هذه اللحظة لرؤية محبوبته فيختلط عليه الأمر ويعتقد أن الشمطاء هى الفتاة التى جاء ليخطب ودها، ولكنه بمجرد أن يرفع عينيه يكتشف الخطأ المضحك الذى وقع فيه، ورغم ذلك فإنه لا يرجع عن قراره بالزواج منها ممنيًا نفسه بثروتها الطائلة دون النظر إلى قبحها أو تقدمها فى السن. ويساعد اليهودى الدوينا على الهرب من سجنها ويقبل التحول إلى الدين المسيحى كى يتزوج منها، وفى النهاية يكتشف اليهودى غفلته فعروسه ليست قبيحة فحسب بل مفلسة أيضًا. عندئذ يغلظ لها اليهودى القول فترد له الصاع صاعين.

والجدير بالذكر أن شيريدان فى بادئ الأمر رسم شخصيتين يهودَيتين للظهور فى مسرحية «الدوينا» هما شخصيتا موسى وإيزاك، ولكنه قرر فى النهاية استبعاد شخصية موسى من المسرحية والإبقاء على شخصية إيزاك فقط.. ولكنه عاد بعد مرور عامين ليضم شخصية موسى إلى شخوص مسرحيته اللاحقة المعروفة لكل دارس للأدب الإنجليزى «مدرسة الفضائح» بعد أن عدل عن تصوره الأصلى له كمغفل وقام برسمه كمراب ماكر ولئيم.

وإيزاك الذى رسمه شيريدان فى مسرحية «الدوينا» يهودى واسع الثراء مختال وجبان شديد العجب بنفسه وبمظهره الخارجى وذكائه غير العادى، وهى نفس صفات اليهودى التقليدية الراسخة فى المسرح الإنجليزى فى القرن الثامن عشر. وتصوير اليهودى كشخص جبان ليس قاصرًا على المعالجة المسرحية فقط. فنحن نطالع جبنه فى عدد كبير من الأعمال الروائية مثل رواية «دابورن» Daborne و«مسيحى يتحول إلى تركى» (١٦١٢) A Chistian Turned Turk ورواية والتر سكوت «إيفانهو» (١٨١٩) فضلا عن رواية ديكنز المعروفة «أوليفر تويست»، وإمعانًا فى ازدراء اليهود لم يكتف الكُتَّاب الإنجليز فى القرن الثامن عشر بوصفهم بالخسة واللؤم بل أضافوا إليهما قصير القامة.

يقول بعض النُقاد إنه من الجائز أن شيريدان استقى جانبًا من مسرحية «الدوينا» من قصة رومانسية ألفتها أمه قبل الزواج عندما كانت فى الخامسة عشرة

من عمرها بعنوان «أيوجينيا وأداليد» Eugenia and Adelaide. ومن المرجح أنه تأثر بمسرحية درايدن «انتصار الحب» (١٦٩٣). فكلا المسرحيتين تتحدثان عن يهودى يزهو بنفسه وبلؤمه ويعتنق المسيحية كى يتزوج من امرأة ثرية تضيف إلى ثرائه ثراء جديدًا، ولكن اليهودى فى كلتا المسرحيتين يقع فى «الفخ» ويتزوج من امرأة خاوية الوفاض، والجدير بالذكر أن شيريدان كان شديد الإعجاب بدرايدن.

ويبدو أن الرغبة فى كسب المال كان أحد الأسباب المهمة التى دفعت كُتّاب المسرح الإنجليزى إلى الزراية باليهود، والجدير بالذكر أن الممثل المرموق جون كويك John Quick (١٧٤٨ ـ ١٨٣١) الذى سبق له أن مثل شخصية اليهودى موردخاى فى مسرحية «الحب على الموضة» هو الذى اضطلع بدور اليهودى إيزاك. غير أن الكاتب الإنجليزى المعروف وليم هازليت فى كتابه «محاضرات عن كُتّاب الكوميديا الإنجليز» يرى أن شيريدان لم يتأثر فى تأليف مسرحيته «الدوينا» بأى من الكُتّاب الآخرين. وعلى أية حال فلا مناص من الاعتراف بأن اسم إيزاك اليهودى يتكرر فى عدد كبير من الأعمال الروائية والمسرحية مثل «كوميديا المسن» لكاولى Cowley التى مُثلت فى مسرح الكوفنت جاردن فى ٢٢ فبراير ١٧٨٠ كما يتكرر فى العدد رقم ٣٨ من المجلة التى أصدرها كمبرلاند بعنوان «الأوبزرفر».

ومن المرجح أيضًا أن يكون شيريدان قد تأثر بمسرحية فوت «الغشاشون» ومسرحية كمبرلاند «العاشق الأنيق» ومسرحية جرانفيل «يهودى البندقية».

والرأى عند بعض النُقاد أن هناك احتمالاً أن يكون شيريدان قد ندم بعض الشيء عن زرايته باليهود فى مسرحية «الدوينا» وأنه خفف نوعًا ما من وطأة الهجوم عليهم فى «مدرسة الفضائح» ولكن نفرًا من النُقاد الآخرين يدحضون هذا الرأى قائلين إن موقف شيريدان من اليهود فى كتاباته الأخرى آنذاك اعتبرت شعب إسرائيل أسوأ خلق الله، وذلك بعد مرور عامين على نجاح «مدرسة الفضائح» التى مثلت فى ٢٧ مارس ١٧٧٩م. فضلا عن أنه سمح بعرض بعض المسرحيات الساقطة التى تهزأ من اليهود نحو عام ١٧٨٠م عندما كان مديرًا لمسرح دروری لين الأمر الذى يدل على أن شيريدان لم يخفف من وطأة عداوته لليهود فى الفترة من ١٧٧٥م

حتى ١٧٨٠م. والغريب أن شيريدان تخلى عن هذه العداوة واتخذ موقفًا إنسانيًا منهم فيما بعد من منطلق الدفاع عن كرامة الإنسان وتحرير العبيد والمناداة بحقوقهم، غير أنه لم يعلن صراحة عن ندمه عن زرايته السابقة باليهود، ولعل الشيء الإيجابي الذي فعله في لاحق أيامه هو تشجيعه على تمثيل مسرحية تدافع عن اليهود بعنوان «يهودي موجادور» The Jew of Mogador.

ويبدو أن شيوع موضة الزراية باليهود بين كُتّاب المسرح وسائر الأعمال الأدبية ازدهرت بسبب ما أفضت إليه من نجاح وكسب مادي مضمون، فرجل المسرح الإنجليزي المرموق جاريك (١٧١٦ ـ ١٧٧٩م) Garrick حاول تقديم بعض الشخصيات اليهودية التي استساغها جمهور المسرح، ولكن التوفيق لم يحالفه عندما طلب منه ملك وملكة إنجلترا في عام ١٧٧٧م قراءة نص مسرحي في حضرتهما، ووقع اختياره على مسرحيته الهزلية «ليث» Leth التي سبق أن قدمها على مسرح دروري لين في أبريل ١٧٤٠م. ولكنه أضاف إلى شخوص هذه المسرحية شخصية يهودي ناكر للجميل، ويبدو أن النص المسرحي المعدل لم يرق في عيون صاحبي الجلالة وبلاطه الملكي، وأيضًا قدم جاريك مسرحية أخرى معادية لليهود بعنوان «الرقبة أو لا شيء» Neck or Nothing على نفس المسرح في ١٨ نوفمبر ١٧٦٦م. وكذلك تضمنت مسرحيته «إيزبيلا أو الزواج القاتل Isabella or the Fatal Marriage (التي مُثلت على نفس المسرح في ديسمبر ١٧٣٧م ومسرحية «بنت الريف» (التي مُثلت أيضًا على مسرح دروري لين في ٢٥ أكتوبر ١٧٦٦م) إشارات مسيئة لليهود.

٩ـ أندروز وأوكيف

ازدهرت المسرحيات عن اليهود ازدهارًا عظيمًا فى إنجلترا فى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر، ففى هذين العقدين وحدهما ظهر ما لا يقل عن خمس عشرة مسرحية تحتوى على شخصيات يهودية، وفى خلال تلك الفترة برز كاتبان مسرحيان اتسما بالهجوم الضارى على اليهود وتنفير الناس منهم. هذان الكاتبان هما مايلز بيتر أندروز (المتوفى عام ١٨١٤م) Miles Peter Andrews وجون أوكيف (١٧٤٧ ـــ ١٨٣٣م) John O'Keeffe الذى سار على نفس الدرب الذى سار عليه أندروز والذى تناولت إنتاجه المسرحى بشىء من التفصيل فى كتابى «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى».

ألَّف أندروز مسرحية كوميدية تتكون من خمسة فصول بعنوان «الانحلال» Dissipation ظهرت فيها أول شخصية يهودية نسائية. مثلت هذه الكوميديا فى مسرح دروری لين يوم ١٠ مارس ١٧٨١م. وتدور هذه المسرحية التى تقع أحداثها فى لندن حول حياة الطبقة الراقية من المجتمع الإنجليزى آنذاك، وأيضًا تحتوى مسرحية «الانحلال» على شخصية مراب يهودى فاجر وواسع الثراء اسمه إفرايم لابرادور يتحدث الإنجليزية المكسرة بطريقة تبعث على الضحك، ومن الواضح أن أندروز تأثر بمسرحية «الغشاشون» التى ألفّها فوت.

١٠ ـ مسرحيات غير منشورة عن اليهود

من المهم أن نعرف أن عددًا من المسرحيات التى تعالج اليهود قدم على خشبة المسرح الإنجليزى دون أن ترى طريقها إلى النشر، وقد نجح الباحثون فى العثور على مخطوطات معظم هذه المسرحيات، وفيما يلى قائمة بهذه المسرحيات حسب تواريخ تقديمها على المسرح:

١٧٧٥: «مسرحية» النقيض أو اليهودى والعاهرة المتزوجة (اندثرت) **The Contrast; or the Jew and the Married Courtesan**.

١٧٨٠: موسى وشادراك أو عينة من التعليم اليهودى (موجودة) **Moses and Shadrac; or, a Specimen of Jewish Education**.

١٧٨٥: «الإسرائيليون أو النابوب(*) المسمن. (موجودة) **The Israelites ; or; The Pamperad Nabob**.

١٧٨٥: مسرحية «المهاجرة الشقراء أو الغريمان اليهوديان». (موجودة) **The Fair Refugee' or, The Rival Jews**.

١٧٨٧: مسرحية «عينة من الغزل اليهودى (موجودة) **A Specimen of Jewish Countohip**.

١٧٨٨: مسرحية «خاتم الماس أو اليهودى يخونه ذكاؤه» (اندثرت) **The Diamond King; or; The Jew outwitted**.

١٧٩٠: مسرحية «لحية موردخاى»: (موجودة) **Mordacai's Beard**.

(*) النابوب كلمة تطلق على الإنجليزى الذى يجمع ثروة من الهند ثم يعود إلى إنجلترا لينفقها. فى إشراف وسعة. وهذه الكلمة دخلت الأدب الإنجليزى نحو عام ١٧٦٤.

١٧٩٥: مسرحية «اليهود والأمم» (مندثرة) .The Jew and the yentile.

ومعظم هذه المسرحيات مجهولة المؤلف باستثناء المسرحيتين الأولى والأخيرة فضلا عن أن غالبيتها تتضمن قدحًا قاذعًا فى حق اليهود. وقد مثلت مهزلة «النقيض أو اليهودى والعاهرة المتزوجة» فى مسرح درورى لين فى ١٢ مايو ١٧٧٥ بحيث يخصص دخلها لصالح مؤلفها الذى طواه النسيان: فرانسيس جودولفين والدرون (١٧٤٤ ـ ١٨١٨) Fiancis Godolphia Waldron. ويخبرنا جنست gen-est أن هذه المسرحية لم تر طريقها إلى النشر أبدًا وأن الممثل البارز بادلى Bad-deley اشترك فى تمثيلها. ويبدو فسق اليهودى وفجره من عنوان المسرحية. ومن الجائز أن يكون المؤلف قد تأثر فى هذا الصدد بشخصية اليهودى الداعر موسى ماناسيس التى رسمها الكاتب المسرحى فوت.

نبدأ بمسرحية «موسى وشادراك» فنقول إن الكاتب المسرحى المرموق وصاحب مسرح درورى لين فى هذا الوقت شيريدان تقدم إلى الرقيب البريطانى فى ١٣ إبريل ١٧٨٠ يطلب منه الموافقة على تمثيل هذه المسرحية التى قدمت لأول مرة على خشبة المسرح فى ١٩ إبريل ١٧٨٤. وهذه المسرحية التى تذهب إلى الزراية باليهود إلى أبعد الحدود ليست لها أية قيمة أدبية، والغريب أن يتحمس لتمثيلها كاتب مسرحى كبير فى قامة شيريدان، وهذه المسرحية عبارة عن حوار بين بائع متجول وابنه، ويعلم الأب ولده أن الهدف الأول والأخير لأى يهودى هو انتزاع المال من المسيحيين بأية طريقة والعمل على خراب بيوتهم وإفلاسهم عن طريق إقراضهم بالربا الفاحش، والمسرحية أيضًا تصور استخدام اليهود المضحك للغة الإنجليزية المكسرة.

أما المسرحية الثانية «الإسرائيليون» فتفوق الأولى فى قيمتها الأدبية؛ وهى تمثيلية هزلية تتكون من فصلين قُدمت على مسرح الكوفنت جاردن فى أول إبريل ١٧٨٥. وينسب بعض الدارسين هذه المسرحية هو توبياس سمولت، ولكن لا يوجد دليل قاطع على ذلك وعلى أية حال، استقبلها الجمهور ببرود كما أنها لم تجد طريقها إلى النشر، وقد لعب دور اليهودى فيها الممثل المعروف حينذاك ووتزر الذى

اشتهر بقدرته الفائقة على أدوار اليهود، يقول الدارسون: إن مدير مسرح كوفنت جاردن جيمس هاريس تقدم عام ١٧٨٥م بطلب إلى الرقيب لتمثيلها على خشبة المسرح لصالح شخص يدعى أيكنز، وتحتوى هذه المسرحية على ابن يهودى متلاف يبدد ثروة أبيه على الخمر والنساء والمراهنة على الخيل الأمر الذى يؤدى إلى القطيعة بينهما. ولا يجد هذا الابن الفاسق غضاضة فى نبذ ديانته اليهودية واعتناق الدين المسيحى. يقول الدارسون: إن أسلوب معالجة اليهودى فى هذه المسرحية يختلف عن الأسلوب السائد الهازئ باليهود آنذاك. فالمسرحية تنأى بنفسها عن تصويرهم كأوغاد أو مهرجين بل تصورهم كأشخاص عاديين لهم مثالبهم وفضائلهم ورغم تفاهة مسرحية «الإسرائيليون» من الناحية الأدبية فإنها ذات قيمة سسيولوجية كبيرة فى دراسة المجتمع الإنجليزى حينذاك.

وتتكون مسرحية «المهاجرة الشقراء: أو الغريمان اليهودية» الكوميدية من خمسة فصول، وقُدمت على مسرح هاى ماركت عام ١٧٨٥م ولكنها ألفت فى عام ١٧٨٠م ويبدو أن التصريح بتمثيلها قدم إلى الرقيب عام ١٧٨٤م . والمسرحية لا تخفى عداوتها لليهود وتبرز تقتيرهم وشرههم للمال كما أنها تهزأ من لغتهم الإنجليزية المكسرة وهى تنم عن تأثرها بعدد من المسرحيات السابقة عليها التى ترسم شخصيات يهودية مثل «أوبرا الشحاذ» (١٧٢٨) و«الزوج الغاضب» (١٧٢٨) **The Provoked Husband** و«رحلة العاهرة» (١٧٣٣) و«خداع اليهودى» (١٧٣٥) و«الآنسة لوسى والمدينة» (١٧٤٢) وجميعها مسرحيات تدور أحداثها حول يهود يحتفظون بعشيقات.

ومُثلت مسرحية «نموذج من الغزل اليهودى» التى تتكون من فصل واحد فى مسرح دروري لين يوم ٢٣ أبريل ١٧٨٧م. وهى تشتمل على شخصيتين فقط هما شادراك الذى مثل دوره باديلى والآنسة لى إفرايم التى قام بتمثيل دورها الممثل بانستر **Bannister** (١٧٦٠ ـ ١٨٣٦). ويبدو أن هذه المسرحية التى يعتبرها الدارسون استكمالا لمسرحية «التعليم اليهودى» (١٧٨٤) لاقت قدراً من النجاح وحسن استقبال الجمهور لها، وكالعادة تحتوى هذه المسرحية على لكنة اليهود الإنجليزية المضحكة.

وفى يوم ٢٧ يوليه ١٧٨٨م قدمت مسرحية «خاتم الماس أو اليهودى يخونه ذكاؤه» كما قدمت مسرحية «لحية موردخاى» على مسرح دروری لين يوم ٢٠ إبريل ١٧٩٠ لصالح المستر باديلى الذى اضطلع بدور موردخاى. وعنوان هذه المسرحية الأصلى هو «لحية اليهودى» ولكن العنوان تغير فيما بعد إلى لحية «موردخاى» ولكن الباحثين لا يعرفون من المسئول عن هذا التغيير هل هو المؤلف أم أنه كمبل مدير مسرح الدرورى لين، وتدور أحداث هذه المسرحية الهزلية حول بائع روبابيكيا يهودى له لحية كثة يساوم رجلا أيرلنديًا يريد أن يبيع له جاكت قديمة وهرئة. ويختلف الاثنان على الثمن ويحتدان على بعضهما البعض ويتشاجران فيقوم الأيرلندى بدعك لحية اليهودى بلحم الخنزير حتى يمكنه تنصير جزء من جسده حتى وإن كان عاجزًا عن تنصير كل هذا الجسد، ويلجأ اليهودى إلى قاض إنجليزى شاكيا من اعتداء الأيرلندى عليه ولكن القاضى يسقط فى يده فهو لا يعرف من منهما كذاب ومن صادق فيقوم بتوبيخ كلا المتخاصمين. ثم يحكم على اليهودى بغرامة بسيطة للغاية، ويقول موجهًا توبيخه إلى الأيرلندى: «إنه حكم مخفف أرجو أن يعلمك احترام القوانين الرحيمة التى تحكم هذا البلد الذى يوفر حماية متساوية لكل الأديان والمعتقدات، وأرجو أن يجىء قريبًا اليوم الذى يتعلم فيه (عامة الناس) أن اليهود والمسلمين والأمم وكافة الملل وسائر شعوب العالم يتمتعون بنفس الحماية التى يتمتع بها الإنجليز حين يؤدون عباداتهم المشروعة.

هذه المسرحية لها مغزى أخلاقى جديد على المسرح الإنجليزى وهو أن المسيحى العادى ليس أفضل بأى حال من الأحوال من اليهودى العادى، هذه النظرة الإنسانية إلى اليهود تخلو من التعصب التقليدى والكراهية المتوارثة.

وأخيرًا نعرض لآخر هذه المسرحيات غير المنشورة وهى بعنوان «اليهودى والأمم» فنقول إنها مُثلت فى مسرح السيرك الملكى يوم ٢٤ سبتمبر ١٧٩٥م. ويقال إن مؤلفها هو ج. س. كروس الذى توفى عام ١٨١٠م J.C. Cross ولكن ليس هناك ثمة دليل على ذلك. ولكن من الثابت أن كروس ألف مسرحية عن اليهود بعنوان «الصديق الزائف أو قاتل الصخور» **The False Friend; or, the Assassin of the Rocks**.

التى قُدمت على مسرح السيرك الملكى يوم ٢٥ أغسطس ١٨٠٦م. وهذه المسرحية تعطى صورة محببة للنفس على عكس الصورة التقليدية المنفرة التى درج المسرح الإنجليزى فى القرن الثامن عشر وما سبقه فى رسمها.

ومن المؤكد أن هذه النظرية الإنسانية لليهود جديدة تمامًا وتبشر بمقدم عهد جديد تسوده السماحة الدينية.غير أن هذا التحول الجذرى من الزراية باليهود إلى تصويرهم على نحو إنسانى لم يحدث سوى فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر.

القسم الثانى

بداية العطف على اليهود فى نهاية القرن الثامن عشر وازدهاره خلال القرن التاسع عشر

رأينا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن السمة الغالبة للأدب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر كان التحقير من شأن اليهود وازدرائهم وأن العطف عليهم كان متفرقًا يظهر متقطعًا من آنٍ إلى آخر. ولكن نهايات القرن الثامن عشر شاهدت البداية الحقيقية للعطف على اليهود، وهو عطف ازدهر بشكل ملحوظ خلال القرن التاسع عشر، وبالنظر إلى أننى عالجت هذا الازدهار باستفاضة فى كتابى «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى» فإنى تجنبًا للتكرار سوف أقتصر فى هذا القسم على عرض بدايات هذا العطف كما تجلت فى الدراما الإنجليزيَة فى أواخر القرن الثامن عشر.

* * *

بعد أن ألّف الكاتب المسرحى المرموق كمبرلاند مسرحية «اليهودى» المتعاطفة مع اليهود سار كثير من كُتّاب المسرح الإنجليزى على نفس دربه الأمر الذى خلق تيارًا أدبيًا جديدًا واضح التعاطف مع بنى إسرائيل غير أن البعض لم يرقه هذا فتصدى للهجوم على هذا التيار غير المسبوق والتعريض به، ومن بين المعترضين على هذا التيار كاتب مسرحى يدعى جورج كولمان الأصغر (١٧٦٢ ـ ١٨٣٦م) yeorge Colman الذى ألفَ مسرحية من فصل واحد بعنوان «حشائش جديدة فى السوق القديم ـ New Hay of the Old Market» قُدمت على المسرح الهاى ماركت فى ٩ يونيه ١٧٩٥م. وهى تدور حول ممثل اسمه فستيان يقول لزميل له إنه ألّف مسرحية تراجيدية مثيرة تجارى الاتجاه الجديد للمسرحيات المتمثل فى التخلص من كل

حزازات الماضى وتحيزاته وإنقاذ شخصيات معينة ـ يقصد اليهود ـ من براثن التحامل التقليدى ضدهم، ومن ثم يرسم صورة يهودى يدعى سينيك على نحو محبب للنفس فهو لطيف المعشر خيِّر وكريم، وأغلب الظن أن جورج كولمان يشير هنا إلى شخصية شبيهة بشيفا ذلك اليهودى الذى اشتهر بنبل أخلاقه وقدرته الفائقة على فعل الخير كما رسمها كمبرلاند فى مسرحيته المعروفة «اليهود». والجدير بالذكر أن الذى لعب دور فستيان هو الممثل ريتشارد سويت Richard Suett.

قلنا إن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت انتقالاً جذريًا من التعريض باليهود والزراية بهم إلى العطف عليهم وتصويرهم بأسلوب محبب للنفس. فقد ظهر آنذاك عدد كبير من المسرحية المتعاطفة مع اليهود نذكر أن اثنتين منها جاءتا من خارج إنجلترا.

نبدأ فنقول إن الكاتب المسرحى الألمانى المعروف أوغسط فردرتيش فيرديناند (١٧٦١ ـــ ١٨١٩م) Friedrich Ferdinand Von Kotzebue (المعروف بإنتاجه المسرحى المتعاطف مع اليهود) ألفّ عام ١٧٩٠م مسرحية بعنوان Das Kind der Liebe. لم تمض ثمانية أعوام على ظهور هذه المسرحية الألمانية حتى قام الإنجليز بترجمتها ترجمة حرفية ثلاث مرات. فقد ترجمها ستيفن بورتر Stephen Porter بعنوان «أقسام المحبين أو ابن العشق» Lovers Now; or, The Child of Love أيضًا ترجمتها أن بلومتر Anne Plumptre بعنوان «ابن الزنا» ،وفى المرة الثالثة قامت السيدة إليزابيث إينشبالد Elzabath Inchbald بإعداد ترجمة «أقسام العشاق» إعدادًا مسرحيًا قُدم على خشبة مسرح كوفنت جاردن فى ١١ أكتوبر ١٧٩٨م. ورغم صغر حجم الدور اليهودى فى هذه المسرحية فإنه عظيم الأهمية لأن المسرحية تصور شحاذة فقيرة ومريضة تجلس مستجدية على جانب الطريق ويمر عليها مسيحيون فلا يلقون بالاً إليها، ولكن يهوديًا يراها فيعطف عليها ويرأف بحالها وينفحها بعض المال وهو يعتذر عن ضآلة المبلغ لأنه لا يملك سوى القليل. عندئذ تصيح المرأة الفقيرة قائلة: «هذا حقًا هو الدين والإحسان. ومن الواضح أن هذا القول مأخوذ من الإنجيل».

أما المسرحية الألمانية الثانية التى قدمت على المسرح الإنجليزى بعنوان Der Op-fartod (١٧٩٨م) ومن تأليف كوتزبيو Kotzebue فهى أيضًا تصور يهوديًا اتسم بالأريحية والجود، ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان «التضحية بالذات Family Distiress; or Self Immolation وتقع أحداث الإعداد المسرحى لهذه الترجمة فى مدينة لندن، وهى تدور حول شخصية محورية هى روبرت ماكسويل التاجر الذى جار عليه الزمن فصار فى ضنك وعوز ويعول ابنًا صغيرًا وأم ضريرة وزوجة مريضة. ويطلب هذا المسكين من رفاقه المسيحيين أن يساعدوه فى محنته ولكنهم يولونه ظهورهم. ولم يتقدم لعونه غير دائن يهودى لا يتنازل عن دينه له فحسب بل يقدم له المعونة أيضًا. ومن الواضح أن المؤلف الألمانى كوتزبيو تأثر بكل من لسنج Lessing وجيليرت Gellert اللذين عبرا فى أدبهما عن عطفهما الشديد على شعب إسرائيل.

تميز توماس جون ديبدين (١٧٧١ ـ ١٨٤١م) وهو الابن غير الشرعى لتشارلز ديبدين ـ بغزارة إنتاجه، ويقال إنه ألفَّ نحو مائتى مسرحية وألفى أغنية. سار توماس ديبدين على نفس الدرب الذى بدأه كمبرلاند. قدم هذا الرجل يوم ٢٣ نوفمبر ١٧٩٨م على خشبة المسرح كوفنت جاردن مسرحية هزلية لاقت نجاحًا هائلا بعنوان «اليهودى والطبيب» The Jew and the Doctor ويخبرنا المؤلف أنه كتبها بناء على طلب من مستر دوتون بمسرح درودى لين الذى طلب منه موافاته بمسرحية أكثر هزلا وقدرة على التسلية والإضحاك من مسرحية كمبرلاند «اليهودى» وتحتوى على شخصية يهودية طيبة ومحبة للخير، ولاشك أن نجاح مسرحية توماس ديبدين المنقطع النظير أغرى الكثيرين من كُتَّاب المسرح الإنجليزى بالحذو حذوه. واليهودى فى مسرحية ديبدين رجل فاضل محسن وجواد، فهو يرى لقيطة تدل بعض المرفقات الموجودة معها أنها مسيحية المولد، وتأخذ اليهودى الرحمة بها فيتولى تربيتها كمسيحية دون أن يحاول تهويدها، وتكبر الفتاة فى كنفه وتصبح شابة تقع فى غرام شاب مسيحى، ولكن والد هذا الشاب يعترض على زواج ابنه منها، ويحضر الأب إلى بيت اليهودى ويكيل له الشتائم غير أن اليهودى يحسن استقباله ويعامله معاملة كريمة، فضلا عن أنه يعرض على الأب الغاضب مبلغًا ضخمًا من المال يخصصه

للعروس التى ترعرعت فى أحضانه ولهذا يقبل الوالد أن يتزوج ابنه من العروس. ويعطى اليهودى والد الشاب المسيحى درسًا فى التسامح الدينى قائلاً له: «أحب أن أوضح لك أنه إذا كان المسيحيون يدعون لأنفسهم فضيلة مغفرة الإساءة فإن اليهود بإمكانهم أحيانا ممارسة هذا التسامح بالفعل، ولكن كما تعودنا نرى أن هذا اليهودى المحسن الكريم يتحدث الإنجليزية بلكنة مضحكة.

والجدير بالذكر أن توماس ديبدين ألف عددا من المسرحيات الأخرى التى ترسم صورة لليهود لطيفة ومحببة للنفس مثل مسرحية «مدرسة التحيزات School for Prejudice التى مُثلت فى ٣ يناير ١٨٠١م على مسرح كوفنت جاردن. وهى نسخة مطولة فى مسرحية لنفس المؤلف قدمت على مسرح الكوفنت جاردن بعنوان «آراء ليبرالية » التى غير مؤلفها عنوانها فيما بعد إلى «المحامى واليهودى ورجل من يوركشير The lawyer, The Jew and the Yorkshireman التى مُثلت على مسرح السادلر فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٥م. وتحتوى هذه المسرحية أيضًا على شخصية يهودى محب لعمل الخير، وتتكرر نفس الشخصية اليهودية المحبة للخير فى إحدى مسرحياته الأخرى التى قُدمت على مسرح دروري لين فى ١٢ سبتمبر ١٨١٥م بعنوان: «الغراب أو فتاة بالاسو» The Magpie, or, The Maid of Palaisew إلى جانب إعداده المسرحى لرواية والتر سكوت المعروفة «أيفانهو» بعنوان «أيفانهو أو ابنة اليهودى» Ivahoe, or, The Jew's Daughter التى مُثلت على مسرح سرى Surrey فى ٢٠ يناير ١٨٢٠م. ونحن نطالع فى هذه المسرحية الأخيرة دفاعًا عن المرابين الشرفاء والمحترمين أمثال أفرايم ممن يعطفون على الفقراء والمساكين أكثر مما يفعل المسيحيون المراءون فأفرايم اليهودى يعثر فى طيات ملابس الروبابيكيا التى يشتريها من امرأة مسيحية على مبلغ كبير من المال فتدفعه أمانته إلى إرجاعه إلى صاحبة الملابس، والجدير بالذكر أن الكوميديان المتميز جون فوسيت (١٧٦٩ ـ١٨٣٧م) John Fawcett لعب باقتدار دور اليهودى أفرايم فى هذه المسرحية.

كان لتوماس ديبدين أخ غير شرعى آخر من نفس الأب يدعى تشارلز ديبدين الأصغر (١٧٦٨ ـ ١٨٣٣م). حذا هذا الابن حذو أخيه فألف عددًا ضخمًا من

الأغنيات التى تهدف إلى إثارة العطف على اليهود ومن بين هذه الأغانى مونولوج. «البائع اليهودى المتجول The Jew Pedlar (١٨١٠م)، قام سلادر بغنائها على مسرح سادلر ويل. وتعبر الأغنية عن امتعاضها من سوء المعاملة التى يلقاها اليهود على أيدى غير اليهود، وتنتهى الأغنية بالنصيحة التالية: «خذ هذه النصيحة من يهودى ياعزيزى خير لك أن تصلح الخرق فى ردائك من أن تشير إلى عشرين خرقًا فى رداء جارك».

ألف تشارلز ديبدين مسرحية موسيقية بعنوان «يهودى ويلنا أو الشجاعة ونكران الجميل» The Jew of Wilna, or Bravery and Ingratiulde التى مثلت على مسرح سرى فى ٢٩ أغسطس ١٨٢٥م.

وجميع هذه المسرحيات المشار إليها ترسم صورة جديدة لليهود تغاير الصورة التقليدية الشائعة فى المسرح الإنجليزى، وهكذا أصبح اليهودى شجاعًا كريمًا يحس بآلام الغير ويعطف عليهم، وهكذا أيضًا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن تحولاً جذريًا من اليهودى القمىء والمنفر إلى اليهودى الحبيب للنفس، وهى صورة استمرت بقوة خلال القرن التاسع الذى تخللته بعض الأعمال الأدبية المعادية لليهود. ولكن ينبغى أن نضيف هنا تحفظًا مفاده أن التحسن الواضح فى صورة اليهودى لم تمنع من تقديمه على المسرح على نحو مضحك من آن إلى آخر.

ويرى كثير من الدارسين أن المسرح الإنجليزى فى عمومه تأثر تأثرًا بالغًا بشخصية اليهودى الشهير شيلوك التى رسمها شكسبير فى مسرحيته المعروفة «تاجر البندقية.»الأمر الذى حدا ببعض الباحثين إلى تسجيل أسماء جميع المسرحيات الإنجليزية التى تناولت اليهود منذ بداية القرن السابع عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، وهذه المسرحيات مرتبة ترتيبًا زمنيًا هى:

١٦٠٧: الام الأخوة شيرلى Travailes of the brothers Sherley تأليف داى وراولى وويلكنز Day, Rowley and Wilkins.

١٦١٠: «المسيحى يتحول إلى تركى» A Christian turned Turk تأليف دابورن Daborne.

١٦٢٢: «عــادات الريف» The Custom of the Country تأليف بومنت دفلتشـر Beaumont and Fletcher .

١٦٢٧: «التركى يستشيط غضباً» The Raging Turk تأليف جوف Goffe.

١٦٥٣: «يهودى البندقية» The Jew of Venice تأليف ديكر Decker.

١٦٩٤: «انتصار الحب» Love Triumphant تأليف درايدن Dryden.

١٧٠١: «يهودى البندقية» The Jew of Venice تأليف جرانفيل Granville.

١٧٣٣: «رحلة العاهرة» The Harlot's Progress تأليف كيبر Cibber.

١٧٣٥: «خداع اليهودى» The Jew Decoyed مجهولة المؤلف.

١٧٤٢: «الآنسة لوسى فى المدينة» Miss Lucy in Town تأليف فيلدنج Field-ing.

١٧٤٩: «مستوصف أورشليم» The Jerusalem Infirmary مجهولة المؤلف.

١٧٥٩: «الحب على الموضة» Love a la mode تأليف ماكلين Macklin.

١٧٦٨: «الشيطان يمشى على عكازين» The Devil upon two Sticks تأليف فوت Foote.

١٧٧٢: «العاشق الأنيق» The Fashionable Lover تأليف كمبرلاند Cumber-land.

١٧٧٢: «ثرى إنجليزى من الهند» The Nabob تأليف فوت Foote.

١٧٧٤: «الغشاشون» The Cozeners تأليف فوت.

١٧٧٥: «التناقض أو اليهودى والعاهرة المتزوجة» The Cotntrast, or The Jew and the Married Courtesan تأليف والدرون Waldron.

١٧٧٥: «الدوينا» The Duenna تأليف شيريدان Sheridan.

١٧٧٧: «ليث» Lethe تأليف جاريك Garrick .

١٧٧٧: «مدرسة الفضائح The School for Scandal تأليف شيريدان.

١٧٨٠: «موسى وشادراك» Moses and Shadrac مجهولة المؤلف.

١٧٨١: «الإباحية والانحلال» Dissipation تأليف أندروز Andrews.

١٧٨٣: «الكويكر الصغير» The Young Quaker تأليف أوكيف O'Keeffe.

١٧٨٥: «الإسرائيليون» The Israelites, or the Pampered Nabob مجهولة المؤلف.

١٧٨٥: «المهاجرة الشقراء» The Fair Refugee or the Rival Jews مجهولة المؤلف.

١٧٨٧: «نموذج من الغزل اليهودي» A Specimen of Jewish Courtship مجهولة المؤلف.

١٧٨٨: «خاتم الماس أو اليهودي يخونه ذكاؤه The Diamond Ring, or The Jew Outwitted مجهولة المؤلف.

١٧٨٩: «الأحدب الصغير» The Little Hunckbock تأليف: أوكيف O'Keeffe.

١٧٩٠: «لحية موردخاي» Mordecai's Beard مجهولة المؤلف.

١٧٩٤: «اليهودي» The Jew تأليف كمبرلاند Cumberland .

١٧٩٥: «اليهودي والأمم» The Jew and the Gentile تأليف كروس؟ Cross.

١٧٩٥: «زورينسكي» Zorinski تأليف مورتون Morton.

١٧٩٧: «اليهودي الجوال» The Wandering Jew, or Love's Masqsuerade تأليف فرانكلين Franklin.

١٧٩٨: «اليهودي والطبيب» The Jew and the Doctor تأليف ديبدين Dibdin.

١٨٠١: «مدرسة التحيزات» School for Prejudice تأليف ديبدين Dibdin.

ويرى بعض النُقاد أن تمحيص هذه القائمة يدل على أن التأليف المسرحى فى إنجلترا وبعد مرور ما يقرب من مائة وستين عامًا على تقديم «تاجر البندقية» لشكسبير على المسرح لا يسجل غير إحدى عشرة مسرحية أُلفت عن اليهود، فى حين أن عدد المسرحيات التى تتناولهم زاد أكثر من الضعف (٢٤ مسرحية) خلال السبعة وأربعين عامًا التى مرت على إلغاء قانون منح الجنسية الإنجليزية لليهود، كما نلاحظ أن عدد المسرحيات الإنجليزية التى تعالج اليهود التى قُدمت على المسرح فى النصف الأول من القرن الثامن عشر لا يزيد على خمس مسرحيات، فى حين أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر شاهد تمثيل ثلاث وعشرين مسرحية عن اليهود الأمر الذى يشير إلى الزيادة الواضحة فى اهتمام المسرحيين الإنجليز بمشاكل اليهود فى النصف الثانى من القرن المذكور، والرأى عند بعض الدارسين أن الزيادة فى اهتمام المسرح الإنجليزى باليهود فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لا يرجع إلى تأثير مسرحية شكسبير المعروفة «تاجر البندقية» بقدر ما يرجع إلى إلغاء قانون منح الجنسية الإنجليزية لليهود وعلى أية حال ينبغى ألا نستهين بأثر مسرحية «شكسبير» تاجر البندقية فى تشجيع المسرح الإنجليزى على الزراية باليهود.

القسم الثالث

اليـهود فى الأدب الإنجليزى فى أواخـر الـقرن التـاسع عشر وبدايات والقـرن العشرين

جون بوتشان (١٨٧٥ ـ ١٩٤٠)
Jon Buchan

تلقى السياسى والمؤلف الإسكتلندى جون بوتشان تعليمه فى كل من جلاسجو وأكسفورد وألّف ما يربو على خمسين كتابًا فى موضوعات شتى، بعضها فى التاريخ مثل «تاريخ الحرب العالمية الأولى (من ١٩١٥ حتى ١٩١٩). اشتهر بوتشان فى عالم الأدب بكتابة قصص وروايات المغامرات مثل «برستر جون» (١٩١٠) Prester John ويعتبر بوتشان واحدًا من الكُتَّاب الذين يدعمون الإمبراطورية البريطانية شأنه فى ذلك شأن ريدارد كبلنج، وقد اتخذ كل من بوتشان وكبلنج موقفًا مناهضًا للرأسمالية اليهودية التى اتهماها بأنها مسئولة عن حرب البوير الإفريقية (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) لخدمة أغراضها الاستعمارية، ويقسم هذان الكاتبان المدافعان عن الاستعمار البريطانى اليهود إلى أنوع: نوع يؤازر الإمبريالية البريطانية ويتأقلم مع التحيزات الخاصة بالعنصر أو الجنس ونوع آخر له ميول عدمية وهدامة ويجنح إلى التآمر والشيوعية ونوع ثالث يمثل فى نفس الوقت ـ رغم تمثيله للذات الاستعمارية ـ «الآخر» الذى يبعث على الخوف ومن ثم يجب تمييزه عن الآخرين واحتواؤه تحاشيًا لضرورة هذا النوع الأخير من اليهود الذى يتكون من أثريائهم المقيمين فى جنوب إفريقيا يحيك المؤامرات من أجل إنشاء امبراطورية إنجليزية ـ عبرية تمتد من مصر إلى الجنوب الإفريقى ومن بيبرا إلى سيراليون، الأمر الذى جعل هيندمان -Hynd

man .. يكتب سلسلة من المقالات فى ابريل ١٨٩٦ بعنوان «اليهودية الاستعمارية فى جنوب إفريقيا ولهذا اتهمت الصحافة اليهود المتطرفين بتحريض الرأي العام البريطاني لشن الحرب الاستعمارية في جنوب إفريقيا.وهذا على وجه التحديد ما عبر عنه الكاتب جيرومى Jerame بقوله إن الصحافة اليهودية الألمانية تتهم بالخيانة العظمى الذين يفضلون قضيته إنجلترا وازدهارها وسمعتها الطيبة على نجاح مناجم الذهب (فى جنوب إفريقيا) وأيضاً وصف ج. م. هوبسون فى كتابه عن الحرب فى جنوب أفريقيا المنشور عام ١٩٠٠ بأن هذه الحرب مخطط يهودى استعمارى فى خدمة أصحاب الأموال اليهود. وهو مخطط يتناقض مع المبادئ التقدمية والليبرالية والاشتراكية.

ذهب بوتشان إلى جنوب إفريقيا فى الفترة من ١٩٠١ حتى ١٩٠٣ حيث أنيط به اعادة إنشاء بعض المستعمرات عقب حرب البوير، وهناك نظر بريبة وشك إلى كبار المولين اليهود المتصلين بشركات التعدين والمستثمرين فيها. والجدير بالذكر أن اثنين من كبار الرأسماليين اليهود هما رودس وبيت قاما بتمويل الحملة العسكرية الفاشلة التى قادها جيمسون بمبلغ أربعمائة ألف جنيه إسترلينى، ومن المهم أن نعرف أن بوتشان أظهر قدراً من التعاطف مع اليهود المستثمرين فى جنوب إفريقيا ومن المعروف أنه كان يعتبر رجل السياسة اليهودى الإنجليزى دزرائيلى بطلا.. وبلغ اعجابه به حداً دفعه إلى التفكير فى كتابة سيرة حياته لدرجة أنه قال إنه ينفذ السياسة الخاصة بالإمبراطورية البريطانية التى سبق لدزرائيلى أن رسمها، ولهذا كان من الطبيعى أن يحذو بوتشان حذو مثله الأعلى فى مجال السياسة.

ولعلنا نذكر أن دزرائيلى أعلى من شأن الديانة اليهودية واعتبرها الأصل فى نشأة المبادئ الأرستقراطية، يقول دزرائيلى فى هذا الصدد فى كتابه المنشور عام ١٨٥١ بعنوان اللورد جورج بنتنيك: «سيرة حياة سياسية Lord george Ben-tinck، دعنا نلاحظ طبيعة النفوذ اليهودى ونستيقن من أسلوب عمله..إن اليهود يمثلون مبدأ السامية وكل ما هو روحى فى طبيعتنا منهم حماة التقاليد وحفظة

الجانب الديني في حياتنا، وهم يمثلون الدليل الحي والأشد وضوحًا على زيف وادعاء المذهب الضار الشائع في زمننا الحديث والذي يتلخص في الاعتقاد بأن الطبيعة خلقت جميع البشر متساوين وعلى النقيض من الروائية جورج إليوت ذهب دزرائيلي إلى أن الليبرالية هراء وأن التقليد القائم على التحام التقليد اليهودي بالتقليد المسيحي ترك لنا تراثًا روحيًا ساقمًا يجمع بين اليهودية والمسيحية في بوتقة واحدة. وقد استخدم بوتشان نفس المحاجة التي ساقها دزرائيلي في مبحثه عن جنوب إفريقيا الذي نشره عام ١٩٠٦ تحت عنوان «مسكن في البرية» A lodge in the wilderness فهو يرسم الثري اليهودي بيت على نحو محبب للنفس. ويقول إنه إذا كان لابد أن يوجد أثرياء فيجب أن يكونوا من اليهود، ولكن إعجاب بوتشان الشديد بدور اليهود في بناء الإمبراطورية البريطانية لم يكن مطلقًا أوكاملا حيث إنه كان يعتبر اليهود أداة لبناء هذه الإمبراطورية بقدر ما هم تهديد لها وخطر عليها غير أن إحساسه بخطرهم عليها لم يتضح له إلا في وقت لاحق.

يرى دزرائيلي أن اليهود الذين يسميهم «الشرقيين» يمكن أن تكون لهم فائدة كبرى في دعم الإمبراطورية البريطانية رغم أنهم يعتبرون أنفسهم جنسًا مختلفًا عن الشعوب الأوروبية وبالذات تلك التي تقطن شمال أوروبا، وقد تناول فورد مادوكس فـــــورد Ford me dox Ford احساس اليهود بتميزهم العرقي ودورهم في بناء الإمبراطورية البريطانية في الكتاب الذي نشره عام ١٩٠٥ بعنوان «روح الشعب: تحليل العقلية الإنجليزية» حيث يقول إنه أثناء وقوفه في مراسي السفن في لندن لاحظ كثيرًا من المهاجرين اليهود القادمين من ميناء الأوديسا بروسيا وخطر على باله أنه ربما أصبح واحد منهم دزرائيلي آخر جاء ليقيل إنجلترا من عثارها وأيضًا يحدثنا فورد مادوكس فورد عن الدور الذي يلعبه أصحاب الملايين اليهود في جنوب إفريقيا في تشييد الإمبراطورية البريطانية بغض النظر عن الأساليب التي يتبعونها في جمع المال، غير أن فورد كان واعيًا بالجانب السلبي والمظلم في شخصيه اليهود. وقام بتصوير هذا الجانب عام ١٩٠٣ في الرواية التـي ألفّها بعنوان «المستر فلايت» Mr. Flight حيث يقوم الإنجليزي المستر بلود باستغلال اليهودي

الإسكتلندى المستر فلايت من الناحيتين السياسية والمالية. يقول مستر بلود مبررًا استغلاله لهذا اليهودى:

«إن ظهور اليهودى فى مجتمعنا معناه أن اليهودى هو رجل الحظ والثراء الذى لا يباريه فى ذلك أحد، ورغم أنه ليس جزءًا من بلادنا ولا يدين بمبادئنا الأخلاقية فإنه مؤهل للحكم ويملك قدرة غير عادية كحاكم. ولهذا فإن حزبنا (يعنى حزب المحافظين) يلتقطه ويستغله، واليهودى لايهمه أى جانب يساند لأنه لا يستطيع مجرد البدء فى مشاركتنا فى مشاكلنا أو نظامنا أو سلوكنا الأخلاقى أو نظرتنا إلى الأشياء، وقد صور بوتشان فى أدبه هذه الازدواجية الكائنة فى اليهودى كما صور وضعه فى إطار الإمبراطورية البريطانية التى يستفيد من العيش فى ظلها، ولكنه فى نفس الوقت يشعر بأنه «الآخر» الغريب عن العرف الأنجلو ساكسونى. وهذا واضح من القصة التى كتبها بوتشان عام ١٩١٠ بعنوان «خميلة عشتروت» The grove of Ashraroth فضلا عن أنه كتب رواية «الأرضية الراقصة» (١٩٢٦) من التى تتضمن سيرة مؤلفها الذاتية المتجسدة فى شخصية «ليثين» Leithen التى تعكس تأرجح موقفه اليهود.

وتتضمن رواية بوتشان الصادرة عام ١٩١٦ بعنوان «بيت القوة» The power house فكرة مفادها أن الفاصل بين التمدن والتحضر من جانب والبربرية والهمجية من جانب آخر هو خيط رفيع ومجرد شعرة واهية يمكن أن تتقطع فى أية لحظة، فاليهود يشكلون أعظم دعم للإمبراطورية البريطانية ولكنهم فى نفس الوقت يشكلون خطرًا داهمًا عليها. ناهيك عن قدرتهم الرهيبة على التآمر ففى روايته «تسعة وثلاثون درجًا» (١٩١٥) نرى أن اليهود يستغلون ثراءهم الواسع العريض فى دق إسفين بين ألمانيا وروسيا (التى يحملون لها مقتًا شديدًا بسبب قسوة اضطهادها لهم). وأيضًا يستشف المرء من الرواية سيطرة اليهود على مقدرات العالم نتيجة قدرتهم الفائقة على التآمر على المستوى الدولى. إن اليهود فى أدب بوتشان - كما أسلفنا - يلعبون دورًا ثنائيًا فهم قادرون على تسخير ثرواتهم فى بناء الإمبراطورية البريطانية ولكنهم فى نفس الوقت قادرون على حياكة المؤامرات الشيطانية وإضرام نار الثورات وتهييج خواطر الرعاع ضد حكامهم، ونذكر فى هذا

الصدد أن الأديب الإنجليزى ماثيو أرنولد تحدث عن قدرة اليهود الفائقة وبراعتهم فى الإسهام فى الثقافة العالمية حين يتخلون عن خصوصيتهم العرقية ويتجاوزونها. وعلى النقيض من ذلك أكد دزرائيلى أن سامية اليهود هى التى تستطيع بناء الحضارات والإمبراطوريات. أما بوتشان فقد تأرجح بين هاتين النظريتين المتضاربتين، هذا التضارب جعله عام ١٩٠٠ يقول دون أدنى تحفظ أو مواربة فى روايته «النصف المتحمس» The half. hearted إن عصابة من المضاربين اليهود أفسدت الحياة الإنجليزية على أية حال تظهر هذه الثنائية فى نظرة بوتشان إلى اليهود فى أدبه الروائى فهو يصف شخصية اليهودى يوليوس فيكتور فى رواية «الرهائن الثلاثة» (١٩٢٤) TheThree hostages بأنه «واحد من أغنى رجال العالم» وبأنه فعل الكثير من أجل تحسين الميزانية الإنجليزية فى فترة الحرب الأولى، ويضيف أن كلمة هذا اليهودى المسموعة فاقت فى أهميتها كلمة كثير من رؤساء «الوزارة» غير أن بوتشان فى نفس الوقت يبرز الدور الهدام الذى لعبه اليهود فى نشر البلشفية، ويقارن بوتشان بين الألمان واليهود فيقول: إنه المقارنة بينهم تظهر لنا أن اليهودى قادر على التكيف والتأقلم والخروج من شرنقة ذاته ومجاراة الآخرين فى أنماط حياتهم الأمر الذى يمكنهم من المساهمة النشيطة والفعالة فى تشييد الإمبراطورية البريطانية إلى جانب عدد كبير من المشروعات الضخمة فى ألمانيا.

وبمجيء عقدى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين تخلى بوتشان عن سابق ثنائية موقفة فى اليهود وعبر بجلاء عن عطفة على الصهيونية الأمر الذى أدى فى عام ١٩٣٢ إلى اختياره رئيس لجنة فلسطين فى البرلمان الإنجليزى. كما أنه كان صديقًا لوايزمان رئيس منظمة الصهيونية العالمية.

يتناول بوتشان فى روايته المتعاطفة مع الصهيونية والمنشورة عام ١٩٣٣ بعنوان «أمير الأسر» APrince Captivity موضوع جالية اليهود التى تضع نفسها فى خدمة الإمبراطورية البريطانية ونحن نطالع فى هذه الرواية دفاع إحدى الشخصيات واسمه ماكندور عن الصهيونية ودفاع ملفور القوى عن الإمبراطورية البريطانية ويذهب الصهيونى ماكندور إلى أن فائدة الحركة الصهيونية تكمن فى أنها أعادت النظام إلى الإمبراطورية البريطانية بعد أن نالت منها أضعفتها الحرب العالمية

الأولى. تقول رواية «أمير الأسر» إن ماكندور اليهودى الإنجليزى الذى جاء أصلا من بلجيكا راوده بشدة حلم إنشاء دولة إسرائيل التى رأى أن الله اختار بريطانيا كى تساهم فى إنشائها وانقاذ شعب إسرائيل من الشتات فى البرية، وهى نفس الحاجة التى ساقها بناة الإمبراطورية البريطانية من الاستعماريين الإنجليز الذين رأوا فى إنشاء دولة إسرائيل تحقيقًا للنبوءة التى وردت فى العهد القديم، ولكن تحريًا للموضوعية ينبغى علينا أن نذكر أن بعض شخصيات هذه الرواية يذهبون غير هذا المذهب وإلى وجود هوة سحيقة تفصل بين الغرب والشرق «الشرق هنا مقصود به اليهود». بالإضافة إلى ذلك تحوى الرواية بعض الشخصيات اليهودية الذليلة التى تتزلف الإمبراطورية البريطانية وتلعق حذاءها، ومن المفارقة أن نرى مثل هذه الشخصيات تتنكر لماضيها الثورى وإيمانها بالاشتراكية. ورغم مجاهدة بوتشان فى لاحق أيامه بعطفه على الصهيونية فإن موقفه العام، يتلخص فى التأرجح بين مدح اليهود والتنبيه إلى خطرهم المتمثل فى احتضان الأفكار الليبرالية والأشتراكية والثورية، وخاصة بعد عام ١٩٠٦ عندما قامت الحكومة البريطانية الليبرالية بمنح الاستقلال لأفارقة الترانسفال، وبدا لغلاة المستعمرين الإنجليز أن اليهود بإشاعة الأفكار الليبرالية فى العالم يسعون إلى تدمير إمبراطوريتهم.

رديارد كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦) Rudyard Kipling:

فى المقدمة التى كتبها ت. س. إليوت عام ١٩٤١ بعنوان «مختارات من شعر كبلنج» نطالع وصفه لموقف كبلنج فى حرب البوير بأنها أقرب من التحذير من مغبتها أكثر من كونها امتداحًا لها، وإذا كان كبلنج قد امتدح حرب البوير فى قصيدته «الدرس» (١٩٠١) فإنه أنحى عليها بالملامة فى قصيدته «سكان الجزر» (١٩٠٢).
شارك كبلنج اعتقاد بوتشان بأن جنوب إفريقيا أصبح مؤهلاً للتطوير فى ظل الإمبراطورية عقب انتهاء حرب البوير وخاصة بعد أن شاهد معاناة سكان جنوب إفريقيا فى انتشار المرض والموت خلال هذه الحرب الأمر الذى جعله يتشكك بعض الشىء فى جدوى تشييد نظام إمبراطورى عظيم، ومعنى ذلك أن كبلنج الذى أيد الإمبراطورية البريطانية بكل ما أوتى من قوة أصبح يتحدث عنها بنغمة تشوبها

مسحة من التشاؤم. ومعنى هذا أيضًا أن موقف كبلنج من الإمبراطورية التى كان يتغنى بها وبدورها الحضارى أصبح يتأرجح بعض الشىء بين القبول والرفض، ولكن هذا على كل حال لا ينبغى أن ينسينا الأشعار الوطنية التى أجج بها حب بنى جلدته الإنجليز لبلادهم. ويكفينا أن نذكر فى هذا الشأن أن القصيدة التى نظمها عام ١٨٩٩ بعنوان «الشحاذ السرحان» انتشرت فى طول إنجلترا وعرضها انتشار النار فى الهشيم، وكانت السبب المباشر فى تطوع الإنجليز بربع مليون جنيه لصالح عائلات الجنود المشتركين فى حرب البوير، فضلا عن شيوع هذه القصيدة بطبعها على علب السجائر والمخدات والأوانى والأطباق، وحفزت وطنية كبلنج المتأججة صحفيا يدعى ت. دابليو كروسلاند Crossland إلى نظم عدد من القصائد المعارضة له والمنتقدة لفكره مثل قصيدة «البغل السرحان» (١٨٩٩) و«الأفكار الخمس» (١٩٠٢) والقصيدة التى نظمها عام ١٩٢٢ بعنوان «الجنتلمان اليهودى العجوز الرائع» للتعبير عن زرايته باليهود وتحميلهم مسئولية شن حرب البوير، وتتضمن القصيدة المشار إليها مزيجا من الهجوم على فساد اليهود واستخدام اللغة الوطنية التى تعلى من شأن بطولة وشجاعة وشرف الجنود البريطانيين.

وفى عام ١٩٠٤ ألف كبلنج مجموعة قصصية بعنوان «التجارة والاكتشافات» تصدى فيها للرأى العام البريطانى المؤيد لحرب البوير وتشمل هذه المجموعة قصة بعنوان «فهم العريف كوبر» ويجد كبلنج أن هناك علاقة بين تخاذل بعض المجندين فى حرب البوير وفشل الامبريالية البريطانية فى الوفاء بالتزاماتها، فالقصة تدور حول العريف الفريد كوبر الذى لم يبدأ فى فهم حقيقة حرب البوير إلا بعد أن تمكن من أسر مجند إنجليزى رآه يحارب فى صفوف قبائل البوير ضد بنى جلدته لأن الحكومة البريطانية حرمت أباه من حق المواطنة واعتبرته شخصًا غريبًا، ورغم أن كبلنج يفهم الدوافع التى جعلت هذا المجند البريطانى يحارب فى صفوف أعداء بريطانيا فإنه فى المقابل يحط من شأن خيانته ويعتبره منتميًا إلى عرق مختلف وأدنى من العرق الإنجليزى وخلاصة القول إن كبلنج الذى يعطى العذر لخيانة هذا الرجل بلوم الإمبراطورية البريطانية على عدم الالتزام بواجبها نحو والد هذا المجند

الخائن، فلم تعتبره واحدًا من رعاياها، وأخيرًا يبدأ العريف كوبر فى فهم السبب الحقيقى فى شن حرب البوير وهو مسعى الإمبرالية البريطانية إلى تنقية العرق الإنجليزى المستعمر من أى امتزاج بدم أى أعراق أخرى كى يحتفظ الإنجليزى فى المستعمرات بإنجليزيته كاملة غير منقوصة.

والقصة الأخرى التى نشرها كبلنج ضمن مجموعته والتى كان قد ألفها عام ١٩٠٤ بعنوان «الجيش والحلم» The army and Dream تتضمن دعاية صريحة لمثالية إنجلترا التى قبلت الخدمة العسكرية كجزء لا يتجزأ من حياتها القومية. ففى هذا النموذج الإمبريالى نرى أن المجندين يتقدمون للخدمة العسكرية بمحض إرادتهم ودون ضغط أو إجبار حتى المدارس اليهودية تتطوع عن طيب خاطر لأداء هذه الخدمة العسكرية. وقد دعا هذا بعض النقاد إلى وصف رديارد كبلنج بأنه شديد الحب لليهود وهو ما ينكره بعض النقاد الآخرين، وعلى أية حال فإن اشتراك اليهود فى الخدمة العسكرية من شأنه دعم انتماء اليهود لبريطانيا.

بدأ الشك يراود رديارد كبلنج من كفاءة بريطانيا القومية بعد نشوب حرب البوير وقرب عودته إلى بلاده فى جنوب إفريقيا فى عام ١٩٠٧ ألف كبلنج مجموعتين من قصص الأطفال إحداهما بعنوان «باك من تل بوك» Puck of Pook's Hill (١٩٠٦) والأخرى بعنوان «مكافآت وجنيات» (١٩١٠) عبّر فيهما عن تشككه فى فضائل الإمبراطورية البريطانية استهدف كبلنج من وراء مجموعته القصصية الأولى التي أراد لها أن تكون قصصا يرويها لأطفاله استجلاء الفضائل الإنجليزية الأساسية التى تشكل جوهر الخصال التى ينفرد بها الإنجليز دون غيرهم من الشعوب وفى ختام «باك من تل بوك» نطالع قصة بعنوان «الكنز والناموس» تتضمن موقفًا من اليهود شبيهًا بموقف دزرائيلى المتعاطف معهم .وهذه القصة تربط حاضر إنجلترا بماضيها، وقد صدر كبلنج قصته المشار إليها بقصيدة بعنوان «أغنية النهر الخامس» تفترض وجود صلة مقدسة تربط بين اليهود ونهر الذهب الخبىء فى باطن الأرض هذه الصلة جعلت اليهودى يتمتع عبر العصور والأزمنة بخاصية صوفية تمكنه من التنبؤ بالكوارث الطبيعية ومعرفة مكان الأصفر الرنان أينما وجد، وتدور

قصة «الكنز والناموس» حول نشأة قانون الماجنا كارتا الذى وضع الإنجليز على طريق الحرية والحقوق المدنية وفى هذه القصة نعرف أن الملك جون وقع قانون الماجنا كارتا لأنه كان بحاجة إلى اقتراض المال من اليهود الذين كانوا فى المقابل يريدون من الملك أن يمنحهم النفوذ والسلطان. تقول القصة فى هذا الشأن:

«لا يمكن شن أية حرب بدون الذهب والمال، ونحن معشر اليهود نعرف كيف تتحرك عروق الذهب فى باطن الأرض كلما تغيرت المواسم والمحاصيل والرياح التى تستدير وترتفع وتنخفض مثل النهر.. النهر المدهش الذى يجرى فى جوف الأرض وكيف يمكن للملوك الأغبياء أن يعرفوه بينما هم مشغولون بالحرب والسرقة والقتل؟ وإن سيدى وأميرى رأى أكثر من مرة أن العملة المعدنية والمتداولة بين يهودى من بيرى ويهودية من الإسكندرية هى التى تحدد مسار السلام والحرب» ومعنى هذا أن كبلنج يرى أن هناك اتحادًا طبيعيًا بين السيف أى الحرب والكنز أى المال الأمر الذى يوحى للبعض بوجود ثمة علاقة بين حرب البوير التى شنتها بريطانيا على جنوب إفريقيا ومؤامرات أثرياء اليهود الذين قاموا بتمويلها.

وعلى أية حال ليس أدل على تأرجح موقف كبلنج من اليهود فى أنه سبق له فى فترة وجوده فى الهند أنه صور اليهود على أنهم عرق أدنى قد يقوض أركان الإمبراطورية البريطانية.

والجدير بالذكر أن الرواية التى سطرها كبلنج عام ١٩٠١ بعنوان «كيم» Kim تعالج بوضوح هوية اليهودى العرقية المنقسمة فهو قد يكون من البيض أو السود.

سبق أن أشرنا إلى ثنائية موقف كبلنج من اليهود. هذه الثنائية عادت تظهر فى قصتيه «خبز فوق سطح الماء» (١٨٩٦) و«جراج البيت» ففى هاتين القصتين المختلفتين نرى كبلنج يصور اليهودى متجسدًا فى رأس المال الساعى إلى تحديث العالم فى حين أنه كان يمثل الغريزة العرقية الإمبريالية فى غابر الزمان السابق على الحداثة. وتعالج قصته «جراج البيت» المنشور عام ١٩٠٩ فى كتابه «الأفعال وردود الأفعال تناقض موقف كبلنج من اليهود بين اعتبار اليهود قوة بناء فى الكيان الإمبريالى البريطانى واعتبارهم قوة هدم له.

وإذا كان كبلنج أظهر شيئًا من الشك فى جدوى حرب البوير فإن أعداءه السياسيين أمثال هيلير بيلوك و. ج. ك تشيسترتون عبّروا عن تأييدهم المطلق لهذه الحرب. ويبدو أن كبلنج قبل عامين من مغادرته النهائية لجنوب إفريقيا فى مارس ١٩٠٦ (حين داهمه المرض دوب الإعياء فى أوصاله) كتب إلى صديق عمره هـ. أ. جوين ليعرب له عن اتفاقه معه فى الرأى القائل إن بعض المولين اليهود أشد ما يكونون خطرًا على إنجلترا ومستعمراتها، ومن ثم ينبغى كبح جماحهم. وأضاف أن هناك خطرًا أكبر يتمثل فى تدمير اليهود الصالحين أثناء القضاء على اليهود الطالحين والرأى عنده أن اليهودى المنصهر فى المجتمع الإنجليزى يعتبرقوة بناء فى حين يعتبر اليهودى المنغلق فى ساميته العرقية قوة هدم.

ويمجىء الحرب العالمية الأولى أصبح كبلنج ينظر إلى اليهود كقوة هدم تهدد بتدمير إنجليزية الإنجليز كما صار يتهمهم بالكوارث والنكبات التى حلت على الإنجليز نتيجة اندلاع الحرب العالمية الأولى وثورة جنوب إفريقيا ضدهم فاليهود فى نظره جماعة غارقة لأذنيها فى المادية القبيحة وكسب المال على مستوى العالم كله، ويتضح لنا هذا الموقف المنتقد لليهود فى سيرة حياته «شىء فى نفسى» some thing of my self المنشور فى عام ١٩٣٧، وفى هذه السيرة الذاتية يبين كبلنج التناقض القائم بين أمريكا التى تحتضن الصهيونية والعنصر السامى وإنجلترا صاحبة التقاليد العريقة، وبمقارنة كبلنج ببوتشان نجد أن بوتشان ظل يحتفظ بإيمانه بالطاقة الكامنة فى الحركة القومية اليهودية فى حين أن كبلنج بعد الحرب العالمية الأولى فقد إيمانه باليهود وبقدرتهم على مشاركة الشعب الأنجلو ساكسونى فى مسئولية نشر الحضارة بين الشعوب المختلفة وفى حين انتهى موقف بوتشان من اليهود بالاقتراب من الإيمان بالمذهب الصهيونى، أصبح كبلنج يقترب من الاعتقاد بأن اليهود شعب متآمر على مستوى العالم. وعندما وقعت الثورة البلشفية زاد ذلك من إحساسه بخطرهم وبرغبتهم فى السيطرة على مقدرات العالم كما جاء فى «بروتوكولات حكماء صهيون» ومع ذلك فإن كبلنج لم يتخل تمامًا عن الاعتقاد بالدور الذى يمكن لليهود أن يلعبوه فى دعم الإمبراطورية البريطانية.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها اقتنع كبلنج بأنه ضحية انتحال وتزوير قام اليهود بهما للنيل منه فقد نشرت جريدة التايمز اللندنية بتاريخ ٢٧ مايو ١٩١٨ كلمة مخولة منسوبة إلي الكاتب المسرحي اليهودى المعروف إسرائيل زانجويل قيل زورًا وبهتانًا أن زانجويل أرسل نسخة منها إلى كبلنج ولكن رئيس المخابرات البريطانية آنذاك أكد أن الكلمة مزورة وليست بقلم زانجويل، ورغم ذلك ظل كبلنج يراوده الشك فى أن يهوديًا هو المسئول عن هذا التزوير والذى أغضب كبلنج من هذه الكلمة المزورة أنها تتحدث عن إنشاء أمة لليهود داخل الإمبراطورية الإنجليزية الأمر الذى سبب حرجًا شديدًا للحكومة البريطانية لأن الكلمة جاءت فى توقيت حساس هو فترة الانتداب البريطانى فى فلسطين فى عقدى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وإذا كان بوتشان احتفظ حتى النهاية بإيمانه بإنشاء دولة عبرية داخل الإمبراطورية البريطانية فإن كبلنج اعتبر هذا تهديدًا لسلامتها، وذكر كبلنج فى سيرة حياته أن شعب إسرائيل عرق يجب أن يترك وشأنه فهو يعمل على إشاعة الفوضى عندما يتدخل الآخرون فى شئونه.

وعلى العكس من بوتشان وكبلنج اتخذ جورج برنارد شو و هـ. ج. ويلز موقفًا ليبراليًا وعقلانيًا من اليهود جعلهما يدعوان إلى إقامة نظام اشتراكى عالمي تسقط فيه الفروق العرقية وتتلاشى وهما يعتبران أن شتات اليهود فى أرجاء المعمورة يمهد الطريق إلى إقامة نظام دولى موحد فى المستقبل.

جورج برنارد شو George Bernard Shaw

بالرغم من أن الكاتبين الاشتراكيين جورج برنارد شو و هـ. ج. ويلز رأيا أن العرق اليهودى قمين بإقامة نظام عالمى اشتراكى جديد فإنهما ربطا بين الديانة اليهودية والنظام الرأسمالى، وينطبق هذا بشكل أوضح على كتابات برنارد شو الذى رأى فى اليهود تجسيدًا للرأسمالية الليبرالية. فضلا عن أنه اعتبر اليهود أكثر الأعراق ثورية، واليهودى فى نظره باهتماماته الدنيوية هو نقيض السوبرمان الذى تتجاوز اهتماماته الأرض وما عليها. غير أن شو يصور اليهود بطريقة عابرة فى

أدبه الروائى والمسرحى، ورغم هامشية تصويرهم فإنهم يتركون بالغ الأثر فى مجريات الأحداث باعتبارهم نقيضًا لفكرة السوبرمان.

وأيضًا ذهب ويلز إلى أن اليهود الذين ينصهرون فى المجتمع الإنسانى سوف يساهمون فى خلق نظام عالمى اشتراكى. هذا ما ذهب إليه ويلز فى كتاباته الطوبويه التى دعا فيها إلى إنشاء المدينة الفاضلة أى إنشاء نظام عالمى بلا شوائب أو عيوب ورغم ذلك فإن ويلز فى أدبه الروائى صورهم على أنهم تجسيد للطبقة الرأسمالية الموسرة، واللافت للنظر أن كلاً من شو وويلز فى الفترة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية اعتبر اليهود قوة ارتداد رجعية تقف فى سبيل التطور العقلانى للمجتمع وليس قوة اجتماعية تقدمية تدفعه إلى الأمام.

وفى المقدمة التى كتبها جورج برنارد شو عام ١٩٣٠ للرواية التى سبق أن نشرها عام ١٨٨٤م بعنوان «اشتراكى غير اجتماعى» An Unsocial Socialist جاء فيها أنه يعتزم بهذه الرواية أن تكون أول فصل فى عمل ضخم يصور انهيار المجتمع الرأسمالى، كان شو وقت كتابة روايته يتوفر على قراءة الترجمة الفرنسية لكتاب كارل ماركس المعروف «رأس المال» فى قاعة المكتبة البريطانية فى لندن. وفى نفس العام (١٨٨٤م) التحق شو بعضوية الجمعية الفابية التى تنادى بالانتقال السلمى من النظام الرأسمالى إلى النظام الاشتراكى، وفى الكلمة التى صدر بها شو هذه الرواية عام ١٩٣٠م ذهب إلى أن شخصيتها المحورية سيدنى تريفيوس يعبر عن نفس الآراء التى عبر عنها الزعيم البلشفي لينين فيما بعد، الأمر الذى جعل بعض النقاد يعتبرونها أول رواية اشتراكية مهمة فى الأدب الإنجليزى. ويجدر بالذكر أن العنوان الأصلى لهذه الرواية لم يكن « اشتراكى غير اجتماعى» بلا «رجل بلا قلب» The Heartless Man بسبب الفظاظة والقساوة التى عامل بها بطل الرواية زوجته هنريتيا.، وهى ابنة ثرى يهودى آية فى الحسن والجمال بشكل يصرفه عن الدعوة إلى الاشتراكية فيضطر إلى هجرانها بعد وقت قصير من زواجه بها - حتى يبقى وفيًا لمبادئه. ويجانبنا الصواب إذا ظننا أن هذا الاشتراكى ينحدر من أصل

فقير فوالده رأسمالى يملك المصانع فى مانشستر ويستغل عرق الطبقة العاملة، ومن ثم تمرده على النظام الرأسمالى ورغبته فى تحرير الطبقة العاملة من الاستغلال.، ولم يكن والد زوجته ثريًا فحسب بل ناجحًا كل النجاح فى تأقلمه مع المجتمع الإنجليزى المسيحى.

يقول كارل ماركس فى مبحثه المهم «حول المسألة اليهودية» (١٨٤٣م) إن اليهودية هى الوجه الآخر للرأسمالية. ومعنى هذا أن اختفاء اليهودية سوف يؤدى بالضرورة إلى القضاء على الاستغلال، ودفعت هذه المحاجة كثيرًا من الاشتراكيين إلى اعتبار الديانة اليهودية ديانة رجعية.، وهى فكرة كانت شائعة بين كثير من المفكرين والمثقفين فى أواخر القرن التاسع عشر. فمثلا ذهبت الاشتراكية الغابية بياتريس وب Webb عام ١٨٨٩م فى مبحث بعنوان «المجتمع اليهودى» إلى نفس ما ذهب إليه شو - وهو أن المهاجر اليهودى هو التجسيد الحى لفكرة ريكاردو عن «الإنسان الاقتصادى» أى الإنسان الذى يتجاهل كافة التزاماته الاجتماعية ولا يهمه أى شىء فى حياته غير عائلته. وقد ردد ج. أ. هوبسون Hobson نفس هذه الفكرة فى مبحثه «مشاكل الفقر» (١٨٩١م) وفيه يقول إن اليهودى المهاجر - بقدرته الهائلة على المنافسة - يشكل خطرًا داهمًا على أهل البلد الأصليين. ورغم أنه يراعى الأخلاق فى بيته ويتصرف كمواطن منظم لا ينتهك القانون فإنه يكاد يخلو من مبادئ الأخلاق الاجتماعية. وهذا ما تؤكده الروائية الاشتراكية اليهودية مارجريت هاركنس Margaret Harkness فى كتابها «الظلام الدامس يخيم على لندن» (١٨٨٩م) In Darkest London.

والرأى عند البعض أن انتصار اليهود على غيرهم فى عالم المال والأعمال دليل على صحة نظرية داروين المنادية بالبقاء للأصلح. وحذا كثير من الروائيين الإنجليز حذو الروائى ميريديث Meredith الذى عبر عن عدائه للنظام الرأسمالى عام ١٨٩١م فى روايته «أحد المنتصرين علينا» One of Our Conqueros بقوله إن اليهود سوف يسيطرون على مقدرات العالم بقوة رءوس أموالهم مما جعل هيندمان Hyndman يحمل اليهود الألمان مسئولية الأزمة المالية العالمية التى حدثت عام ١٨٩٠م. والتى

تشكل أحد الأركان المهمة فى رواية ميريديث. «أحد المنتصرين علينا» «كما أن هيندمان ذهب فى صحيفة «العدالة» الصادرة فى عقد التسعينيات من القرن التاسع عشر إلى أن حرب البوير والتدخل العسكرى البريطانى فى جنوب إفريقيا يرجع إلى السياسة الإمبريالية اليهودية، فى حين أن برنارد شو اهتم باستجلاء التعارض القائم بين الاشتراكية المتطورة وتحسين المجتمع الإنسانى من ناحية وبين الديانة العبرية من ناحية أخرى، وهو تعارض حاول شو علاجه ورأبه فى مسرحيته «الإنسان والسوبرمان» وذلك عن طريق تحويل الإنسان إلى سوبر مان، وهناك وشائج فكرية تربط بين شو و هـ. ج. ويلز فكلاهما آمنا بالهندسة العرقية المتمثلة فى تحسين النسل وبالارتقاء بالمجتمع الإنسانى فى مدارج الاشتراكية.

ويذهب شو إلى أن اليهود يمثلون العالم المادى الذى لا يطرأ عليه فى جوهره أى تبديل أو تغيير فهم يبقون على حالهم ويعجزون عن إجراء الالتحام اللازم بين عالمى الروح والجسد، وهو ما ذهب إليه إبسن فى مسرحية «الإمبراطور والجاليلى» (١٨٧٣) Emperor and yalilean ويردده برنارد شو فى كتابه «جوهر الإبسنية» (١٨٩١)، وفى عام ١٩٠٩ أجرى الكاتب الروسى اليهودى روبين برينين Reuben Brainin حوارًا مع برنارد شو نشره تحت عنوان «السوبرمان واليهود» وفيه أبرز شو قدرة اليهود على لعب دور مهم فى إزكاء نار الثورات، ولكنه فى نفس الوقت أكد شو عجز اليهود عن الوصول إلى تركيبة جديدة من شأنها توليد جيل جديد من السوبرمان يقول شو: إن عجزهم هذا يؤدى إلى عدم قدرتهم على تجاوز طبائعهم وخلق وتطوير عرق جديد. هذه الثنائية فى رأيه تجعل اليهود يحتضنون جميع الثورات دون أن تمكنهم من إجراء أى تغيير جذرى فى الطبيعة البشرية، ويضيف شو إن لليهود قدرة فائقة على كيل الشتائم والسباب القاذع مثلما فعل النبى أرميا فى العهد القديم وكارل ماركس فى العصر الحديث.

والجدير بالذكر أن شو اتخذ رغم اشتراكيته موقفًا محايدًا من حرب البوير الأمر الذى جعل هيندمان يطلب منه فى ١٩٠٠ التخلى عن حياده والانضمام إلى جهة

الاشتراكيين المناهضين لهذه الحرب غير أن شو لم يجب إلى طلبه وعبر عن تهكمه عليه قائلا: إنه يفضل الرأسمالية اليهودية على البوير الذين يملؤهم الغرور والصلف العرقي، ولكن شو اعترف أن موقفه يختلف عن معظم الاشتراكيين الذين يدينون هذه الحرب.

ويردد شو في كتابه The Revol utiqnist Handlook (أي المرجع الثوري) التعارض الذي يبعد اليهود عن الاشتراكية وكذلك التعارض الموجود بين اليهودي والسوبرمان ففي حين نجد .اليهودي حبيس عالمه الدنيوي نرى السوبرمان يحلق فيما هو فوق الأرضي مما يجعلُ اليهودي عاجزا عن أن يصبح جزءًا من الحياة التطورية وقوتها التي تفضي إلى ارتقاء المجتمع الإنساني.

وتدور مسرحية «الماجور باربارا» MajorBarbara (١٩٠٢) ثالث مسرحية بعد مسرحيتي «الإنسان والسوبرمان» (وجزيرة جون بول الأخرى) حول القوى التي تعترض ظهور السوبرمان ومسيرة تطوره وتشمل مسرحية «الماجور باربارا» شخصية أندر شافت شريك اليهودي ليعاذر في ملكية مصانع إنتاج السلاح يقول أندر شافت مخاطبا ستيفن الفقير:

«أنا الحاكم الفعلي للبلاد، وأنا ومعي ليعازر. هل. تعتقد أنه يمكن لستة من الهواة أمثالك أن يتحكموا في أندر شافت وليعاذر وهم جالسون يثغون في هذا المكان سوف تشنون الحرب حين يكون هذا مناسبًا لنا وسوف تعلنون السلم إذا كانت الحرب لا تناسبنا، وسوف يتضح لكم أن التجارة تقتضي اتخاذ اجراءات معينة بعد أن نكون قد قررنا اتخاذها وعندما أرغب في عمل أي شيء من شأنه زيادة أرباحي فسوف تكتشفون أن رغبتي تعبير عن الحاجة القومية.

غير أن اليهودي ليعازر - على عكس أندر شافت - يقف بمعزل عن قوة الحياة التطورية. وكما أسلفنا نجد أن ليعازر كيهودي عاجز عن أن يتغير تغيرًا جذريًا، وهو يجسد القوة الدنيوية التي تعترض سبيل إقامة نظام اشتراكي، ونقطة ضعفه أنه يصور الرأسمالية المستغلة التي تشيع الفوضى في المجتمع على نحو رومانسي

ويذهب شو فى مسرحية «جزيرة جون بول الأخرى» إلى أن الأجانب وحدهم هم الذين يحققون النجاح فى الجزر البريطانية، فالناجحون فيها أمريكان أو طليان أو يهود ويرجع السبب فى نجاحهم إلى خلوهم من أى أوهام رومانسية. يقول جيمس جويس فى روايته المعروفة «بوليسيس» (١٩٢٢) أن أيرلندا صارت بلد اليهود..

وفى مسرحية «مشكلة الطبيب» The Doctr's Dilemma (١٩١١) يقارن شو بين عقلية الإنجليزى وعقلية اليهودى فيما يتصل بالقروض فعندما يحتاج الإنجليزى إلى المال فإنه يلح فى طلبه بغض النظر عن أى اعتبار. وحتى إذا اقترض من يهودى ووقّع على عقد بذلك فإنه فى قرارة نفسه لا ينوى الالتزام بهذا الاتفاق وخاصة إذا رأى أن الشروط مجحفة به، بل إنه يزعم أنه وقع فى براثن نصاب مثلما حدث فى مسرحية شكسبير المعروفة «تاجر البندقية» فى حين أن اليهودى يحترم العقود التى يوقعها ويرى أنها ملزمة .ويذهب شو فى مقدمة المسرحية الدينية التى نشرها عام ١٩١٢ بعنوان «أندروكليس والأسد» Anorocles and the lion إلى أن يسوع المسيح نموذج للسوبر مان المتطور الذى يعارض ثراء اليهود ونزوعهم إلى المادة، كما أنه يوضح الخلاف بين دعوة المسيح العالمية التى تتمثل فى المعمودية ونزعة اليهود إلى تمييز أنفسهم عن الآخرين بالختان والمسيح فى نظر شو يمثل النزعة إلى الاشتراكية فى حين أن اليهودى يمثل النزعة إلى جمع المال، والمسيح لا يستطيع أن يكون مسيحياً إلا بعد إذابة الجانب اليهودى فيه والتخلص منه فى حين أنه لا سبيل إلى خلاص اليهودى إلا بالتخلص من الفوضى العرقية التى يعيشها والتحول إلى النظام الاشتراكى العالمى الخالى من الفوضى و«السوبرمان» وحده هو الذى يستطيع أن يتجاوز العالم المادى المضطرب. ويرى شو أن المسيح والقديس بولس وكارل ماركس نجحوا فى إشعال فتيل الثورات العالمية ولكنهم فشلوا فى تجاوز ما أسماه طبيعة اليهود الفوضوية. ومعنى هذا أن أى تقدم يحرزه اليهود لصالح البشرية لابد وأن يكون له حدود.

والجدير بالذكر أن شو سطر عام ١٩١٧ خطاباً جاء فيه أن الأيرلنديين هم فى حقيقة الأمر قبائل بنى إسرائيل الضائعة، وهى نفس الفكرة التى عالجها عام ١٩٢١

فى مسرحية «العودة إلى ماثو شالح» حيث يطالب الأيرلنديون بحقهم التاريخى فى استعادة أورشليم باعتبارهم قبائل بنى إسرائيل المفقودة.

وفى سنواته الأخيرة سرت نغمة متشائمة فى آراء شو وأفكاره خاصة فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ولهذا نراه فى كتاباته الأخيرة يهاجم كافة الخصوصيات العرقية والدينية والقومية، ونحن نراه فى صدور كتابه «على الصخور» (١٩٣٣) On the Rock ينادى بضرورة اللجوء إلى الإبادة بهدف تحسين النسل الإنسانى على أن تتم هذه الابادة للمجتمعات الإنسانية على أساس علمى وبطريقة حضارية. فقد كتب خطابا إلى بياتريس ويب فى عام ١٩٣٨ يقول فيه: «ينبغى علينا أن نعالج المشكلة اليهودية بالاعتراف بحق الدول فى إجراء التجارب الخاصة بتحسين النسل عن طريق اقتلاع أية صفات غير مرغوبة فيها على أن يتم هذا الاقتلاع بأقصى درجة من الرحمة والإنسانية دون أن يصدم مشاعر العالم المتمدن بأى مسلك سيئ مثل الطرد واستعادة أينشتين عن طريق السطو والخطف.

ويتضمن الخطاب المشار إليه مفهوم شو لليهود باعتبارهم أناسًا غير مرغوب فى وجودهم فى أية دولة، ويذكر أن شو قام بزيارة ألمانيا فى مايو ١٩٣٣ أى فى عز سطوة النظام النازى، وبعد عودته من هذه الزيارة أرسل خطابًا إلى صديقه القديم ومترجم أعماله إلى الألمانية سيجفريد تريبتش Siegfried Trébitsch عبر فيه عن رغبته فى شن هجوم عنيف على سياسة هتلر الخاطئة فى اضطهاد اليهود والتنكيل بهم ومما يدل على تقلبه وتغير مواقفه أنه ألحق بخطابه كلمة مفادها أن للألمان كل الحق فى استبعاد غير اليهود من الوظائف الحكومية تمامًا كما يحق للأمريكان أن يجعلوا رئاسة جمهوريتهم قاصرة على الأمريكان وحدهم، ويستطرد شو فى كلمته قائلا: إنه أكد للصحافة الألمانية ضرورة تعويض اليهود المستبعدين عن البلاد دون اللجوء إلى طردهم منها بعد الاستيلاء على أموالهم وتحريض الغوغاء للاعتداء عليهم، وتدل هذه الكلمة على أن شو يوافق على استبعاد اليهود من المجتمعات الإنسانية غير أن شو فى أغسطس عام ١٩٣٨ تراجع عن رأيه فقد كتب إلى صحيفة

الأوبزرفر البريطانية يشكو مراسلها فى برلين لأنه وصف صديقه ومترجمه الألمانى تريبتش بأنه يهودى. يقول شو فى شكواه مدافعًا عن مترجمه:

«إن السيد تريبتش ألمانى من أتباع مارتن لوثر لم تجر له عملية ختان فضلا عن تعميده كبقية المسيحيين. بقدر ما أعرف لم يدخل معبدًا يهوديًا طيلة حياته كما أنه متزوج من سيدة صحيحة المسيحية وليس على مسيحيتها أى غبار، قد يكون أحد أسلافه من اليهود، ولكن من منا ليس له أسلاف يهود... إن كل إنسان حى يرزق فى وقتنا الراهن لابد وأنه انحدر ليس فقط من آدم وحواء بل من اليهود الذين كانوا يعيشون فى زمن سيدنا إبراهيم وينطبق هذا على إبراهيم نفسه. إن المسيحية استوعبت وتمثلت عدة ملايين من اليهود حيث إن مؤسسها كان يهوديًا كما أنها استوعبت تمامًا سيجفريد تريبتش. إن اليهودى الذى تجرى له عملية ختان والذى يمارس طقوس دينه ويعيش منعزلا فى حى اليهود قد يشكل حتى يومنا هذا مشكلة لغير اليهود، ولكن اليهودى المنصهر فى المجتمع لا يشكل أية مشكلة على الإطلاق ولابد من اعتباره مواطنًا فى الدولة التى ولد فيها. وإنه لأمر مضلل حقًا أن تسمى السيد تريبتش يهوديًا بأى معنى منعزل.».

وبما أن الجميع ينحدرون من أصل يهودى ومن صلب سيدنا إبراهيم فليس هناك أدنى غضاضة فى رأيه من زواج اليهود من غير اليهود وزواج السود من البيض، وقد تناول شو بشكل واضح ومتكرر فى العديد من مسرحياته موضوع اندماج الشرق بالغرب والسود بالبيض كما نرى فى مسرحياته الآتية: «عبيط الجزر غير المتوقعة» (١٩٣٤) The Simpleton of the Unexpected isles و«المليونيرة (١٩٣٥) The millionsi ross و«البلايين المنشرحة: كوميديا للأخلاق» (١٩٤٧) The Buoyant Billionsi A Comedy of Nomanner.

والجدير بالذكر أن مسرحية «جينيف» (١٩٣٩) Geneva تدور أكثر من مسرحياته الأخرى حول «المشكلة اليهودية» فى فترة ما بين الحربَين العالميتين الأولى والثانية. وفيها يصور شو اليهودى على أنه نقيض السوبرمان المتمثل فى

شخصية هتلر الذى يسميه المؤلف فى هذه المسرحية «المقاتل» وحيث إن اليهودى نقيض السوبرمان فإن المسرحية تدعوهما إلى الاندماج فى تركيبة واحدة تفوقهما سموًا وارتقاءً.

ويبدو أن شو وقف حائرًا فى فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية بسبب شعوره بالتناقض الحاد بين فلسفته الداعية إلى التطور الاشتراكى وشعوره بالأخطار المحيقة بالعالم والمفضية إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، الأمر الذى يفسر كثرة التغييرات التى أجراها على مسرحية «جينيف» فقد أعاد كتابتها ست مرات غير أنه أجرى التغييرات الجوهرية فيها فى الفترة من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٦.

وفى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية اتجه شو إلى تصوير هتلر وموسولينى وستالين على وجه الخصوص كرجال عظام يملكون كأفراد المقدرة على تغيير مصير الجنس البشرى، وفى الكلمة التى صدر بها شو مسرحية «جينيف» عام ١٩٤٥ قدم لنا تعريفًا للعظماء بأنهم «فلتات شاذة فى الطبيعة لا تمثل الإنجاز الإنسانى بل تمثل إمكانات الإنسان وأمله، ومن الغريب أن نرى شو يمتدح هتلر وموسولينى وستالين.

فقد، كتب عام ١٩٣٣ إلى مترجمه الألمانى تريبتش الذى كان واحدًا من ضحايا عداوة السامية يقول:

«رغم أني قد أكون عبّرت عن عظيم احتقارى للسياسة النازية تجاه اليهود فإنى أول من صفق للخطوتين العظيمتين اللتين اتخذهما هتلر بشأن العمل الإجبارى ونقابات العمال في وقت كانت فيه الصحافة البريطانية تهاجمها بوحشية تمامًا كما أني أيدت موسوليني عندما كان الجميع يستنكرونه باعتباره أشد الطغاة والمغتصبين مدعاة للعار.

وفى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين قام شو بنشر مقالات تكريم بمناسبة وصول هتلر إلى سدة الحكم فى ألمانيا قائلا عنه فى إحدى مقالاته المنشورة عام ١٩٣٨ إنه «ليس بالمجنون الهائج عند التعامل معه، بل هو حاكم شديد الكفاءة كما

أنه عاقل للغاية فى معظم الموضوعات، غير أن المرء قد يكون كفؤًا ومهفوفًا فى نفس الوقت، وهفة هتلر تكمن فى مخاوفه المريضة من اليهود».

ويبدو أن شو كان يتخذ مواقف غير شائعة بين الناس من أجل لفت الأنظار إليه وتحفيز الناس على التفكير. يبد أنه اتخذ مواقف أقل شططًا فى مراسلاته الخاصة وبالذات فيما يتعلق بضحايا النازية على أية حال كان شو يرى أن الاشتراكية الوطنية التى نادى بها هتلر أفضل من حكم طبقة الأثرياء والموسرين فى بريطانيا.

وفى عام ١٩٤٤ قال شو فى كتابه «المرجع السياسى عن كل شىء»!

(Every body's Political what's what)

إن انجلترا لم تحارب من أجل الديمقراطية كما تزعم بل من أجل البلوتوقراطية (حكم الأثرياء) الأنجلو ـ عبرية، ويضيف شو إن هتلر كان قمينًا بتطوير مستقبل عقلانى أفضل لولا مخاوفه المرضية من اليهود.

ولكن شو فى عام ١٩٤٥ أجرى تغييرًا جوهريًا فى النسخة الأخيرة من مخطوطة مسرحيته «جينيف» حيث صور هتلر فيها على أنه مسيح ملتاث العقل ورب الشعب الألمانى المختار الساعى إلى إقامة مملكة الله على الأرض وهى مملكة ألمانية يحكمها إله ألمانى هو هتلر بطبيعة الحال. والذى أراد شو تأكيده فى النهاية هو أن كراهية هتلر المرضية لليهود هى التى منعته من أن يصبح سوبرمان. وهذه الكراهية المرضية: هى التى أعاقت قدرة الاشتراكية الوطنية التى اعتنقها هتلر على الإسهام فى تقدم الإنسانية، ويضيف شو أن الدماء اليهودية كانت تجرى فى عروق هتلر لأنه كان يعتقد مثل اليهود أن شعبه هو شعب الله المختار، وفى تصديره لمسرحية «فوق الصخور» يذهب شو إلى أن الحاكم الرومانى كان محقًا فى قتل المسيح مثلما كان محقًا فى قتل اللصين اللذين صلبا معه، وتنتهى مسرحية «جينيف» بتصوير مادية اليهود التى لا يمكنهم الشفاء منها فضلا عن أن شو يعود إلى ترديد ما سبق أن قاله فى تباهى اليهودى بأنه سيد الأجناس والأعراق جميعًا وعجزه عن الخروج من سجن ماديته إليما هو أسمى وأرقى ولكنه يعود ليكرر قوله إن الجنس البشرى

بأسره ينحدر من سيدنا إبراهيم الأمر الذى صفة الشمول والعالمية على اليهود، وفى عام ١٩٣٣ قدمت على خشبة المسرح الألمانى مسرحية شو «أصدق من أن يصدق Tootreue to be good» التى يرجع تاريخ تأليفها إلى عام ١٩٣٢ فاستقبلها النازيون بالاستهجان والتنديد واصفين شو باليهودية مما جعله يغضب ويسطر الخطاب التالى: -

«بما أن النازيين يهتفون «بسقوط شو اليهودى» فى المسارح الألمانية وبما أن احتجاج اليهودى على الاضطهاد الذى يتعرض له يصبح بدون قيمة فمن الضرورى أن أؤكد حقيقة مفادها أننى لست يهوديًا بل أممى.. أممى أيرلندى على وجه التحديد حتى أتبرأ من أية شكوك تثور بشأن تحيزى لليهود»

ويتضح من هذا أن شو كانت لديه بعض التحفظات والمحاذير عندما ذهب إلى أن الأيرلنديين يهود ينتمون إلى القبائل اليهودية الضائعة، وفى نهاية حياته اشتد هجومه على اليهود قائلاً: إن اللاعقلانية العبرية تهدد التنظيم العقلانى للعالم المرجو إقامته الأمر الذى يؤكد انفصامهم عن قوة الحياة التطورية. وهكذا وضع شو اليهود على هامش هذه القوة الدافعة إلى تحسين الجنس البشرى فضلا عن أنهم يعوقون قيام دولة عالمية منظمة، إن الصورة التى رسمها شو لليهود فى نهاية حياته هى صورة الواقفين خارج قوة الحياة التطورية التى آمن بها يبتسمون ابتسامة الشيطان مفستو فيليس وهو يرى فاوست يبرم اتفاقًا معه ليصير سوبر مان، وهو اتفاق يعلم الشيطان أن فيه هلاك فاوست.

هـ. ج . ويلز: H.g. wells.

دعا الكاتب الانجليزى الكبير هـ. ج . ويلز إلى تأسيس عالم اشتراكى يقوم على النظام ومنجزات العلم، وهذا واضح فى كتابه «عوالم جديدة بدلا من العوالم القديمة: توضيح للاشتراكية الحديثة» (١٩٠٨): New eorlds for old Aplain Account of Modern Socialiees اقترح ويلز المدخل العلمى والعقلانى لحل المشاكل الاجتماعية فى الكتاب الذى ألفه عام ١٩٠٢ بعنوان «توقعات» حيث رسم صورة

لمدينته الفاضلة منادياً بأنه ليست هناك ثمة غضاضة فى إبادة فئة من الناس إذا كان قتلهم ضرورياً لتوفير قدر أكبر من الامكانات اللازمة للتقدم البشرى. وهذه هى نفس المحاجة التى استخدمها جورج برنارد شو فى دعوته إلى تحسين النسل والارتقاء به. والجدير بالذكر أن ويلز فى ختام كتابه «توقعات» عبر عن زرايته بالأجناس البشرية المنحطة ونادى بعدم التعامل معهم كبشر وأضاف أنه بإقامة حكومة عالمية موحدة تستخدم لغة واحدة وتلتزم بقانون واحد سوف تصبح الكفاءة المعيار الوحيد لتقييم الأفراد والحكم عليهم. ولهذا حمّل الشعوب الصفراء والسمراء والسوداء مسئولية تخلفهم، يقول ويلز فى هذا الشأن:

«حسنًاو إن العالم هو العالم وليس مؤسسة للإحسان وفعل الخير والرأى عندى أنه ينبغى على هذه الشعوب أن تندثر... فطالما أنها أخفقت فى تطوير أنفسها كأشخاص متميزين عقلاء وأقوياء ليكونوا فى خدمة عالم المستقبل فإن القدر يكتب عليها الاندثار والاختفاء».

لقد رأينا شو يتأرجح فى ذم اليهود فى حين أن ويلز كان قاطعًا وحادًا كالسيف فى إدانتهم فهم فى نظره السوس الذى ينخر فى البناء الحضارى، فضلا عن أنه يصف الكثيرين منهم بالقبح إلى أقصى حد فى ملبسهم ومنظرهم وأسلوب تفكيرهم المادى كما أنهم منحطون فى طرائقهم... بل هم أكثر انحطاطا من الكثيرين من غير اليهود».

ورغم شدة سوء رأى ويلز فى اليهود فإنه لم يطالب بالقضاء عليهم بسبب انحطاطهم ولكنه يطالب بالقضاء عليهم فقط عندما يصبحون حشرات طفيلية تنخر فى جسم المجتمع: -

«إذا كان اليهودى يميل ميلاً لا شفاء منه إلى أن يصبح حشرة طفيلية تنخر فى المجتمع فعلينا أن نجعل وجود الحشرات الطفيلية شيئًا مستحيلا. عندئذ سيختفى اليهودى الطفيلى من تلقاء نفسه. أما إذا لم يكن لليهودى أى استعداد لأن يكون حشرة فلا داعى إذا إلى التخلص منه».

ومن الواضح أن ويلز استثنى اليهود من الإبادة التى ينبغى أن تكون قدر الشعوب المنحطة. فضلاً عن أنه تنبأ نبوءة لم يقيض لها أن تتحقق بشكل كامل حتى الآن مفادها أن اليهود سوف يفقدون خصوصيتهم التى تميزهم عن سائر الأجناس فى خلال قرن أو نحو قرن حيث إنهم سيتزوجون من غير اليهود وينصهرون فى المجتمعات غيراليهودية. ولكن ويلز في نفس الوقت عبّر عن أمله في عدم اندثار الكثير من التقاليد الأخلاقية اليهودية وفى استمرارها والحفاظ عليها، والذى أعطاه الأمل فى الحفاظ على هذه التقاليد الأخلاقية اعتقاده بأنه يمكن لليهود أن يتطوروا ويصبحوا جزءًا من النظام العالمى الجديد (كما أمل شو فى ذلك عندما لا يتآمرون سرًا لوقف تقدم العالم، ويحذو ويلز حذو شو فى اعتقاده بأن الشباب اليهودى فى كل أركان العالم يمكنه أن يساهم فى إنشاء دولة عالمية تشمل جميع البشر. وهو اعتقاد استقاه كل من ويلز وشو على نحو ما فى رواية صامويل بطلر «ايرهون» (١٨٧٢).

إن ويلز - كما رأينا - استثنى اليهود من الإبادة التى ينبغى أن تلحق بالأجناس المنحطة بسبب قدرتهم - رغم لاعقلانيتهم الحالية - من استيعاب عقلانية المستقبل.

ونحن نجد أفكارًا غير واضحة مماثلة فى كتابات المفكر الإنجليزى توماس هكسلى أكبر وأهم مدافع عن نظرية التطور لداروين فى القرن التاسع عشر ويتأرجح رأى هكسلى ويتضارب فى اليهود بين المدح والقدح فهم فى نظره قوم مفعمون بالحياة والنشاط والصلابة والتماسك البدنى والأخلاقى فضلا عن تمتعهم بحدة الذكاء، وهو ذكاء يجسد أرفع المثل وأعلاها ولكنه فى نفس الوقت يمكن أن ينحدر إلى أسفل درجات الوحشية والانحطاط والقسوة. ومعنى كلام هكسلي أن اليهود يمكنهم أن يشكلوا قوة تقدم ودفع إلى الأمام بقدر ما يمكنهم أن يشكلوا قوة تخلف وانحطاط. وقد عبّر ويلز عن هذه المفارقة فيما بعد فى أعماله الروائية والصحفية. ففى كتابه «عوالم جديدة بدلا من العوالم القديمة يتحدث ويلز من البلوتوقراطية الانجليزية) أى طبقة الأثرياء) (قائلا: إن الدماء اليهودية تجرى فى عروقها. وعلى

النقيض من ذلك يحدثنا ويلز عن الدور الذى يمكن لليهود التقدميين أن يلعبوه فى إقامة حكومة عالمية تقدمية، غير أنه فى رواية «تونوبانجى» (١٩٠٩) Tono Bungay يبرز لنا على لسان بطلها الطبيعة اليهودية التى تتسم بالغرابة والغزو والتى تهدد الحياة الإنجليزية بالأخطار وهى طبيعة لها جذورها فى البلوتوقراطية الإنجليزية، وأيضًا تحدثنا هذه الرواية عن المهاجرين اليهود الوافدين إلى الأراضى الإنجليزية والذين يقطنون حى لندن الفقير المعروف بالايست إنده فيدمغهم بأنهم لا يعرفون غير الرغبة فى اكتناز المال ولا يكترثون بتجديد الحياة الإنجليزية. هؤلاء اليهود الغزاة على حد تعبيره يمثلون الحداثة الزائفة فى المجتمع البريطانى الرأسمالى الذى تعيث فيه الفوضى، وتختلف رواية «تونوبانجى» عن «توقعات» فى أن الرواية الأولى عبرت عن أمل ويلز فى لحاق اليهود بركب النظام العلمى العالمى الجديد فى حين أن الثانية أكدت الجانب الطفيلى الهدام فى حياة اليهود، وهو جانب يهدد المجتمع الإنجليزى بالتآكل والانحلال؛ فاليهود هنا يقفون خارج التقاليد الإنجليزية العرقية والبناءة كما أنهم عاجزون عن فهمها والاندماج فيها ويصرون على البقاء كجماعة من المهاجرين والغرباء ويحطمون قدرة الشعب البريطانى على التطور العقلانى ويعملون قدر استطاعتهم على تهويده، وكذلك يتناول ويلز فى رواية «تونوبانجى» الفكرة التى ألحت على عقول اليهود وسيطرت عليها وهى فكرة استعمار فلسطين، ويصف ويلز هذه الفكرة بأنها أكثر المحاولات الخيالية رومانسية فى التاريخ ويقينى أن ويلز تورط هنا فى خطأ فادح وجسيم فقد تمكن الصهاينة من تحويل الحلم الرومانسى إلى واقع ملموس ،ويميط ويلز اللثام عن الدافع المادى والتجارى وراء الاستيلاء على الأراضى الفلسطينية وسعيهم إلى استغلالها عن طريق تحويل المياه إلى الصحارى الفلسطينية عن طريق قناة السويس. يقول ويلز فى هذا الصدد تعبيرًا عن الحلم الصهيونى:

«هناك مسألة فلسطين والقنال.. يالها من فكرة مدهشة: لنفترض أننا بدأنا العمل فيها نحن والآخرون وقمنا بتحويل بوابات المياه المخزونة عبر البحر الأبيض المتوسط

لتروى وديان البحر الميت ولنفكر فى الفارق العظيم الذى سيحدثه هذا التحويل لمجرى الماء، سوف نرى خضرة الصحراء الزاهية والمزدهرة كالوردة الزاهرة وسوف تينع أريحا إلى الأبد... وكذلك ستغرق جميع الأماكن المقدسة تحت الماء... بهذا يصبح تدمير الدين المسيحى أمرًا ممكنًا..

ولم يكن ويلز الكاتب الوحيد الذى ربط بين سيطرة رأس المال اليهودى ونهاية المسيحية. فقد عالج هذا الموضوع الروائى جاى ثورن Guy Thorne فى روايته «عندما يخيم الظلام» (١٩٠٣) When it wag Dark بالإضافة إلى الروائية ماري كوريللى فضلا عن أن فكرة ويلز الخاصة بوجود تعارض بين سيطرة الرأسمالية اليهودية على إنجلترا وإحراز الإنجليز للتقدم العلمى الذى نجده فى رواية «تونوبانجى» كانت له جذور فى الرواية التى نشرها عام ١٨٩٧ بعنوان «الرجل الخفى» ومن ثم فليس غريبًا أن نرى جورج أورويل يعلق على كتابات هـ. ج. ويلز بقوله: إنها تدور باستمرار حول التعارض القائم بين رجل العلم الساعى إلى إقامة دولة عالمية مخططة وبين القوى الرجعية التى تسعى إلى العودة بالعالم إلى ماض تضرب فيه الفوضى أطنابها». هذا الحكم ينطبق بالتحديد على الروايات التى سطرها ويلز بعد رواية «تونوبانجى».

وفى رواية ويلز «الزواج» نرى أن بطلها ترافورد يسعى جاهدًا إلى إنقاذ مارجورى زوجته فى المستقبل من تربيتها المدمرة لها وله، وتشارك مارجورى اليهود فى حبهم للمال - لكنها تختلف عنهم فى رغبتها العارمة فى تبذيره على متع الحياة وأطايبها والأمر الذى يضطر زوجها إلى التضحية بمستقبله كعالم متميز من أجل إرضائها والانطباع العام الذى تتركه رواية «الزواج» يتلخص فى أن التهويد يبعث الفوضى المدمرة والرأى عند ويلز أن النساء بوجه عام ينصرفن عن القيم العلمية العليا ويتمثل هذا فى شخصية مارجورى التى تعرقل النشاط العلمى بأنانيتها وتجاهلها للمصلحة العامة للجنس البشرى.

قلنا: إن رواية «توقعات» تشير إلى إن إيمان ويلز بتحسين النسل، وهذا ما تؤكده روايته «المكيا فيللى الجديد» (١٩١١) The New Machiavelli حيث نرى

بطلها ريتشارد ريمنجتون يذهب إلى نفس ما ذهب إليه شو فى مسرحيته المعروفة «الإنسان والسوبر مان» فى أن كل تحسين فى أى شىء وقتى فيما عدا تحسين «الجنس البشرى». والجدير بالذكر أن ويلز يهجو فى كل من روايتيه «الزواج» و«المكيافيللى الجديد» بعض الحركات الليبرالية المتخاذلة والتى تضم عددًا من الليبراليين اليهود غير الفاعلين الداعين إلى حل مشكلة الفقر. وتعطى رواية «الزواج» فى بعض الأحيان الانطباع أن إنجلترا تكاد أن تصبح لقمة سائغة تمامًا فى فم اليهود. وبسبب نهم زوجته مارجورى إلى المال يفقد زوجها ترافورد كل ملكاته العلمية وينصرف كأى يهودى إلى جمع المال لإرضاء زوجته المبذرة، فيندم على ذلك ويعترف بأنه أصبح شيئًا شبيها بالمومس يقول ترافورد:

«انسقت وراء الصراع السخيف من أجل كسب المال... وأشعر بنفس شعور المرأة التى حولت دعارتها إلى نجاح. إنى تحولت إلى مومس وإنى أكابد نفس مشاعر الساقط أو المريض... إن الاشتغال بالأعمال والدعارة شىء واحد. لماذا لا يعرض المرء مخه للبيع تمامًا كما يعرض جسده للبيع».

ولكن رغم ازدراء ويلز لأنانية اليهودى المعاصر وفرديته فإنه يعبر عن شدة احترامه للتقاليد الأخلاقية العبرية التى جاءت فى العهد القديم فضلا عن إعرابه عن عدم ثقته فى الأفكار الليبرالية وغير الفعالة التى يروج لها اليهود المحدثون. وهذا واضح فى النبذة التى نشرها عام ١٩١٣ بعنوان «الليبرالية والحزب الليبرالى: ماذا عسانا نحن الليبراليين أن نفعله؟» Liberalism and to Party: What are we Liberalstodo?

لم تكن كراهية ويلز لليهود ترجع بأى حال إلى أسباب عرقية بل كانت ترجع فى الأساس إلى كراهية طبقة الأثرياء اليهود أى إلى الرأسمالية الإنجليزية فى عصره، الأمر الذى يذكرنا بإدانة كارل ماركس لليهودية فى مبحثه «حول المشكلة اليهودية» فقد اعتبر ماركس اليهودية الوجه الآخر للنظام الرأسمالى. وعلى أية حال يختم ويلز روايته «الزواج» بشفاء مارجورى من نزعاتها اليهودية المدمرة المتمثلة فى الاستمتاع بالمال على عكس نهاية شخصية جورج فى رواية «تونوبانجى» الذى يستسلم استسلامًا كاملا، لهذه النزعات.

والرأى عنده أن اليهودى يجمع ثروته بطريقة طبيعية للغاية تماما مثلما تنمو لحية الرجل. يقول ويلز فى هذا الشأن فى الرواية التى ألفها عام ١٩١٨ بعنوان «جوان وبيتر» Jean and Peter تقول جوان: -

«ينبغى على جميع اليهود إطلاق لحاهم، على الأقل عندما يتجاوزون الثلاثين من أعمارهم لأنه جلدهم الأسمر لا ينفع معه حلق شعر وجوههم وجعلها ملساء وناعمة فى حين أن اليهودى العجوز الذى يطلق لحيته يمكن أن يبدو نبيلا وقوراً».

وفى عام ١٩٢٠ نشر ويلز كتابه الشديد الأهمية «مجمل التاريخ» The out Line of History وفيه يبين المؤلف الفرق بين الدول والجماعات الدينية التقدمية ومثيلاتها الرجعية كما يميز بين ما يسميه «التقاليد الواسعة التى تروقه» و«التقاليد الضيقة» التى لا تروقه، وهو يرى أن اليهود الصدوقيين يمثلون التقاليد الواسعة التى تسمح لصاحبها بالاندماج مع الآخرين ومشاركتهم الايمان بوجود الله وكذلك مشاركة بقية شعوب العالم في الأيمان الوعد الإلهى فى حين يمثل اليهود الفريسيون التقاليد الضيقة المتمسكة بالأصولية الدينية والمتأججة بالمشاعر الوطنية والجنوح إلى استثناء أنفسهم واستبعاد الآخرين، وينسب ويلز رسوخ التقليد اليهودى الخاص بالمال، والتجارة إلى الشعوب السامية التى عاشت فى فينيقيا وأسست شبكة مترامية الأطراف فى أرجاء العالم متصلة ومترابطة. والذى جعل الكثيرين يؤمنون بوجود هذه الشبكة التجارية المترابطة والممتدة.

اعتقاد الكثيرين أيام ويلز بأن الرأسمالية اليهودية تحيك مؤامرة للسيطرة على العالم، ومن الواضح أن التقاليد اليهودية الضيقة على حد تعبيره تقوم على الفردية والأثرة والأنانية. والانغلاق فى حين أن الصدوقين أصحاب التقاليد الواسعة يميلون كما قلنا إلى الاندماج مع الآخرين والحضارات المغايرة وعلى رأسها الحضارة الهيلينية التى أنارت لكل العالم طريقه. وبعد اليهودية جاءت المسيحية لتحرير اليهود من أنانيتهم وخصوصيتهم وتحتضن البشرية بأسرها. إن ويلز - شأنه فى ذلك شأن

برنارد شو - يربط بين التقاليد اليهودية «الواسعة»، وبين إقامة دولة عالمية اشتراكية فى المستقبل غير أن إيمان ويلز بإقامة هذا النظام العالمى بمساعدة التقاليد اليهودية الواسعة تعرض لشيء من الاهتزاز كما يتضح فى كتابه «البحث العظيم» The Research Magnifi cent.(١٩١٥) فبعد صدوره عاد ويلز ليصور اليهود على أنهم أناس غير عقلانيين يستمسكون بتفردهم وخصوصيتهم ويرفضون أية نظرة أكثر شمولا واستنارة من الأنانية والغرائز الحيوانية التى تحكمهم.

وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأ القنوط المتزايد يتسرب إلى قلبه الأمر الذى يذكرنا بشو فى أخريات أيامه إذ لم يعد يؤمن بحتمية التقدم الإنسانى كما أنه فقد الثقة فى الديمقراطية الليبرالية. وواكب ذلك زيادة فى قتامة الصورة التى رسمها لليهود كرمز لثمار الفكر الليبرالى الحديث وأيضًا تغير تغيرًا جذريًا موقفه من مستقبل الصهيونية التى اعتقد قبل نشوب الحرب العالمية الأولى أنها تقف فى صف التقدم، فقبل نشوب الحرب العالمية الأولى سطر ويلز فى عام ١٩٠٦ خطابا أيد فيه بتحفظ دعوة الكاتب الإنجليزى اليهودى زانجويل إلى الصهيونية وإنشاء «منظمة الأراضى اليهودية»، وعبر عن تعاطفه النظرى على أقل تقدير مع هذه المنظمة الصهيونية، مضيفًا أن المشروع الصهيونى الذى تقدم به زانجويل يبدو عاقلا ويمكن وضعه موضع التنفيذ. ولكنه اعتذر لزانجويل عن عدم تقديم المعونة إليه ونصحه بأن يعتمد الشعب اليهودى على نفسه فهو شعب قوى وقادر يتمتع بإمكانات هائلة. ولكن ويلز فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية أظهر عزوفًا واضحًا عن مشاريع زانجويل الصهيونية، بل إنه أنحى باللائمة على اليهود عقب صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ فقد هاجمهم بقوله: «إن زانجويل ومن يمثلون اليهود أوضحوا بأقصى درجة من الجلاء والحيوية والنشاط أنهم لا يكترثون بمتاعب غيرهم من الشعوب، كما أن الصهاينة لا يلقون بالا للأخطار الجماعية المشتركة التى تهدد الشعوب الأخرى، أضف إلى ذلك أنهم لا يكترثون برفاهية

البشر العامة. بل ليذهب بقية العالم إلى الجحيم: ففى هذه الأمور لا يظهر الصهاينة أنهم شركاء فى مواطنة هذا العالم. ولكنهم يتصرفون مثل الدائنين الغاضبين الذين يريدون أن يستوفوا دينهم حتى الفلس الأخير، وإذا كان ويلز أثناء الحرب العالمية الأولى استحث الصهيونى زانجويل على استعادة اليهود لفلسطين فإنه عبّر عن أفكاره المناهضة لليهود فى رواية ألفها عام ١٩٤١ قبيل وفاته.

وحتى ندرك شدة قتامة الصورة التى رسمها ويلز لليهود يتعين علينا مقارنة كتابه «شكل الأشياء فى المستقبل: الثورة النهائية» (١٩٣٣) بكتاب «توقعات» السابق عليه، ففى كتاب توقعات يبشر ويلز بحدوث ثورة عقلانية من شأنها إقامة دولة عالمية فى حين أن كتاب «شكل الأشياء فى المستقبل» تنبأ بنشوب حرب عالمية عام ١٩٤٠ تستمر لمدة خمسة وعشرين عامًا تعود بالعالم إلى عهود الوحشية والبربرية، وهذه نغمة واضحة التشاؤم ويزيد من تشاؤمها أن ويلز ذهب فيها إلى أن إنشاء الدولة العالمية سوف يحدث بعد قرن كامل من الاضطراب والفوضى وسيطرة قوى الشر والظلام، فضلا عن أن ويلز من كتاب «شكل الأشياء فى المستقبل» لم يستبشر خيرًا من شتات اليهود فى أرجاء العالم ولم ير فيه عاملاً يساعد على تأسيس الدولة العالمية، يقول ويلز فى هذا الشأن:

قد يكون من المفروض أن شتات الشعب اليهودى بهذه الصورة الواسعة يساعدهم على تطوير عقلية منفتحة على العالم وإقامة منظمة مناسبة تربطهم بكثير من الأهداف العالمية، ولكن ثقافة اليهود الانعزالية بلغت حدًا جعلهم لا يحاولون الانفتاح على العالم أو حتى الظهور بمظهر من يحاول. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لعب اليهود الأصوليون دورًا واهيًا ضعيفًا فى المحاولات الأولية التى بذلت من أجل إنشاء الدولة الحديثة لأنهم كانوا أكثر انشغالا بأحلامهم الصهيونية. إن المحلل النفسى وحده هو القادر على تفسير رغبتهم الملحة فى إقامة الدولة الصهيونية فهذه الرغبة تؤكد انعزالهم الإرادى التقليدى عن بقية الجنس البشرى،

الأمر الذى أغضب العالم منهم ـ على نحو ناعم ـ غضباً ليس منه شفاء».

هذه الفكرة الشديدة السوء عن اليهود تكررت فيما بعد فى كافة كتابات ويلز الصحفية. ويصف ويلز اليهود فى كتابه «شكل الأشياء فى المستقبل» بأنهم «نكد دائم للسياسى وخرق للتضامن الجماعى فى كل مكان، ولا يستطيع المرء أبداً أن يعرف إذا كان اليهودى مجرد يهودى أو مواطناً، إن اليهود يتزوجون ويتاجرون ويتفردون بمعاييرهم السلوكية الخاصة بهم، وحيثما كانوا نجد أن خصوصيتهم تثير ضدهم الغضب المرير».

وفى بداية الأمر كان الأمل يحدو بويلز إلى التفاؤل بقدرة اليهود على التغير ولهذا تنبأ بأن ثقافة اليهود البالية والجامدة سوف تختفى فى قرن يبدأ فى عام ١٩٤٠ وينتهى فى عام ٢٠٥٩. وسوف تختفى معها «الدولة الصهيونية» والأطعمة اليهودية الخاصة والناموس وكل الأشياء المتعلقة بها وسوف تندمج جميعها اندماجاً كاملا فى المجتمع الإنسانى عندئذ سوف يتلقى اليهود تعليماً مغايراً وتندثر أنانيتهم العرقية فى أقل من ثلاثة أجيال باندثار العقلية القبلية التى يعتبرها اليهود نواة الحياة الاقتصادية أو الثقافية، ويؤكد ويلز أن الدولة العالمية لن تقوم لها قائمة طالما احتفظ اليهود بخصوصيتهم. وظل ويلز للنهاية حتى بعد صدور «شكل الأشياء فى المستقبل» يردد فى مقالاته الصحفية أن اليهود أينما ذهبوا يثيرون ضدهم الغضب والحنق المرير.

يقول ويلز عام ١٩٣٦ فى كتابه «تشريح الإحباط» The Anatomy of frustration إن اليهود الذين يرفضون التخلى عن خصوصيتهم والاندماج فى غيرهم من المجتمعات هم السبب الحقيقى وراء نمو ظاهرة عداوة السامية فى أوروبا بما فى ذلك العداوة النازية الضارية لليهود، ويردد ويلز اعتقاده بأن اليهود يصيبون غير اليهود بالإحباط بسبب نهمهم إلى الاكتناز وجمع المال وبسبب طبيعتهم الطفيلية التى تنخر كالسوس فى بنيان الكيانات الاجتماعية والثقافية التى يعيشون فيها

ويخلص ويلز إلى القول بأن الصهيونية وخصوصية اليهود الثقافية هما خطأ ونكبة ليس على اليهود فقط بل على الجنس البشرى بأسره، ويذهب إلى رأى مفاده أن النازية أو الحركة القومية الاشتراكية الألمانية ليست سوى إحياء معكوس أو مقلوب للفكر القومي اليهودى الوارد فى العهد القديم الذى ينادى بأن اليهود هم شعب الله المختار فالنازية أيضًا تؤمن بأن الجنس الآرى هو الشعب المختار.

ويتضمن الكتاب الذى ألفه ويلز عام ١٩٣٩ بعنوان «البحث عن الماء الساخن: رحلات راديكالى جمهورى In Seiarch of Hot water travels of Arepublican Radical هجومًا قويًا على الصهيونية ومما يدعو إلى الدهشة أن هذا الكتاب تنبأ بدقة بالغة الإبادة الوحشية التى سوف يلقاها اليهود على أيدى النازيين، ولكنه يذهب إلى أن هذه المعاملة الوحشية هى النتيجة الطبيعية لرفض اليهود الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها إلى جانب أنانيتهم وامتناعهم عن وضع طاقاتهم فى خدمة البشرية.

والجدير بالذكر أن ويلز ردد نفس هذه المحاجة فى الكتاب الذى ألفه عام ١٩٣٩ بعنوان «مصير الإنسان العاقل» The Fale of homo Sapience والذى أُعيد نشره عام ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية بعنوان «نظرة الإنسان العاقل» The Out look OF homo sopience ويغزو جورج برنارد شو المشاعر المعادية لليهود فى Nنجلترا إلى نفس السبب وقد استغل عدد من الكُتَّاب هذه المحاجة للنيل من اليهود واعتبارهم مسئولين بسبب خصوصيتهم وانغلاقهم وأنانيتهم عما يحدث لهم من قمع واضطهاد، والجدير بالذكر أن ويلز يعتبر النازية والصهيونية حركتين لا عقلانيتين لن يستقم العالم إلا باندثارهما فضلا عن أنه يعتبر «البيان الشيوعى» الذى وضعه كارل ماركس صنوًا أو مرادفًا للفكر النازى فكلاهما مشبعان بروح الكراهية كل ما فعله هتلر هو أنه استبدل كراهية البرجوازية بكراهية اليهود.

وخلاصة القول إن جورج برنارد شو أظهر قدرًا من العداوة لليهود أقل من عداوة ويلز لهم. ففى حين رأى شو فى شتات اليهود أملا فى إقامة دولة عالمية رفض ويلز هذه المحاجة قائلاً إن اليهود لن يتخلوا أبدًا عن أنانيتهم وخصوصيتهم.

لقد سبق للأديب والمفكر الإنجليزى **ماثيو أرنولد** أن شخصًا فى كتابه المهم، «الثقافة والفوضى»، داء إنجلترا عازيًا إياه إلى شدة تأثرها بالروح العبرية أو اليهودية مما يجعلها تحتاج بشدة إلى ترياق يكمن فى زيادة تأثرها بالروح الإغريقية أو الهيلينية حتى تتخلص من أثر الفكر العبرى المدمر فيها. ثم جاء جورج برنارد شو وهـ . ج. ويلز ليحذوا حذو سلفهما ماثيو أرنولد ويطالبان اليهود بالتخلص من أثرتهم وفرديتهم اللتين ينهض النظام الرأسمالى عليهما. ولكن كلا من شو وويلز تجاوزا أرنولد بقدرتهما على استشراف مستقبل أفضل للجنس البشرى.. فضلا عن أن ماثيو أرنولد لم يستبعد اندماج اليهود فى أى مجتمع إنسانى جديد فى حين أن شو وويلز ورأيا بشكل قاطع أن احتفاظ اليهود بخصوصيتهم يعرقل مسيرة الإنسان نحو إنشاء نظام عالمى واحد قائم على الاشتراكية العلمية.

وسوف ننتقل إلى تناول أدب كاتبين آخرين هما ج. ك. تشسترتون وهيلير بيلوك اللذين يمثلان النظرة التقليدية المحافظة لليهود على عكس النظرة التقدمية التى يمثلها كل من شو وويلز.

هيلير بيلوك Hilaire Belloc :

كان الأديب هيلير بيلوك - شأنه فى ذلك شأن الأديب تشسترتون يؤمن بنوع الجديد من الكتلكة الثورية ويرفض الرأسمالية الإنجليزية (أو الإنجليكانية على حد تعبيره) والاشتراكية العلمانية. ينحدر بيلوك من عائلة - إنجليزية فرنسية أصبح أحد أفرادها عضوًا فى البرلمان الإنجليزى عن حزب الأحرار - دفعت ثورية بيلوك إلى إيمانه إيمانًا راسخًا بضرورة إعادة توزيع الثروة إلى جانب العودة إلى مسيحية القرون الوسطى التى أدى اتساقها إلى توحيد كل الأقطار الأوروبية. جمع بيلوك بين مجموعة من الأفكار المتفاخرة والمتناقضة فهو يبدو رجعيًا من حيث إيمانه بضرورة العودة إلى نظام شبيه بمسيحية القرون الوسطى، ولكن شدة محافظته لم تمنعه من مؤازرة الثورة الفرنسية. والغريب أنه كان أحد المثقفين الأوروبيين القلائل الذين آمنوا بأن دريفوس الضابط اليهودى فى الجيش الفرنسى كان خائنًا.

نشر بيلوك أولى رواياته فى أعقاب حرب البوير ورسم صورة بارزة لليهودى الرأسمالى الغريب عن إنجلترا والرافض للاندماج فيها والقادم من الخارج لتدميرها. وكان يعتقد فى وجود تحالف بين الأثرياء الإنجليز والأثرياء اليهود وأن هذا التحالف يطعن النظام الديمقراطى والبرلمانى البريطانى فى الصميم.

وفى باكورة حياته كتب هيلير بيلوك عام ١٨٩٧ كتاباً بعنوان «مقالات فى الليبرالية بقلم ستة رجال فى أكسفورد». يقول بيلوك فى هذا الكتاب إن «التجارة الحرة جاءت» وأنها زادت زيادة هائلة فى ثراء إنجلترا ولكن «هذه الزيادة الهائلة فى الثراء صاحبها هجرة غير صحية تماماً لفيض من السكان من الخارج» وهو يقصد بذلك المهاجرين الأغراب عن البلاد وعلى رأسهم اليهود. ولا شك أن امتداحه للتجارة الحرة وخشيته من المهاجرين الأغراب يدل على أن ليبراليته كانت منقوصة. ولابد من ألاعتراف بأن ازدواجية نظرته السياسية ظلت تلازمه طيلة حياته. وقد اعتبر الدارسون انحداره من أصل إنجليزى - فرنسى سبباً فى امتزاج الراديكالية البريطانية عنده بالتقليد القومى المتطرف القائم على عداوة السامية.

والجدير بالتأكيد أن هناك جانبين متعارضين فى شخصية بيلوك أحدهما رجعى والآخر راديكالى أو ثورى الأمر الذى أحاط موقفه كروائى وصحفى وعضو فى البرلمان البريطانى من ١٩٠٦ إلى عام ١٩١٠ باللبس والغموض. وهذا واضح فى كتابه المبكر «مقالات فى الليبرالية» كما أسلفنا. ويحدثنا بيلوك فى المقال الأول من هذا الكتاب عن فشل الليبرالية الإنجليزية الفكتورية فى تمكين طبقة الفلاحين من امتلاك الأرض والقضاء على الملكيات المطلقة لها، والرأى عند بيلوك أن تاريخ إنجلترا منذ القرون الوسطى إن هو إلا اغتصاب بطىء وناجح لحقوق الشعب من جانب طبقة أصحاب الأراضى. هذه الطبقة التى تمتعت بالمتعة والسيادة حتى مجىء الثورة الصناعية الإنجليزية التى زادت من ثراء بريطانيا ثراءً غير مسبوق.

دعا بيلوك إلى إعادة توزيع الأرض حتى لا يتحول الشعب الإنجليزى إلى طبقة من أشباه العبيد ومن العمال الكادحين فى ظل النظام الرأسمالى وكان أخشى ما نخشاه أن تحل طبقة بلوتو قراطية جديدة محل الطبقة الأرستقراطية مالكة الأرض. وعَبر بيلوك بإسهام عن نفس هذه الفكرة فى مجموعة كتب تعالج تاريخ إنجلترا

يشرح فيها أهمية الدور الذى يلعبه الفلاحون وينبه إلى الخطر الذى تنطوى عليه سيطرة البلوتوقراطية الجشعة (أو طبقة الأثرياء الجدد) على الحكم. دعا بيلوك إلى إعادة توزيع الأرض على الفلاحين من منطلق كاثوليكى معاد للاشتراكية والرأسمالية على حد سواء، وكان هدفه من وراء ذلك إقامة أمة مسيحية مثالية يتحول فيها الفلاحون إلى أصحاب أرض وينتظمون فى نقابات (على نهج نقابات القرون الوسطى guilds) تستطيع أن تتصدى للأوليجاركية الاقتصادية ومنعها من استغلال المجتمع، وقد وجدت أفكاره معارضة فى اليمين المتطرف الساعى إلى إحياء الماضى كما وجدت فى نفس الوقت معارضة من الليبرالية اليسارية التى تبناها شو وويلز والمؤمنة بإقامة نظام عالمى جديد وتوفير مستقبل عادل لكل الاعراق داخل الأمة أو الكومنولث البريطانى.

فهم بيلوك تاريخ إنجلترا على نحو خاص ووصف حركة الإصلاح الدينى Ref-ormation بأنها فقدان لنعمة الله لأنها أدت إلى نمو طبقة أثرياء جديدة تتكون من التجار وأصحاب الأرض كما أدت إلى إنشاء دولة رأسمالية هددت بتحويل الجماهير إلى طبقة من العبيد على المستوى الاقتصادى، الأمر الذى جعله يعلى من شأن نظام توزيع الثروة فى القرون الوسطى الذى لم يلعب فيه اكتناز المال الدور الهدام الذى يلعبه فى النظام الرأسمالى، ولم يجد بيلوك أدنى غضاضة فى فكرة دمج إنجلترا وألمانيا البروتستانتين فى كيان الكنيسة الكاثوليكية لأن هذا الدمج من شأنه أن يؤدى إلى إقامة أمة مسيحية يسودها الوئام والانسجام ويضخ الدماء المتدفقة فى عروق الكيان الأوروبى. فضلا عن أن إنشاء وحدة عضوية تجمع بين الجانب الروحى والجانب المادى داخل الأمة المسيحية من شأنه وضع حد للمادية العبرية الخالصة التى صارت تسيطر على أرجاء أوروبا الحديثة، رأى بيلوك فى الثقافة الأوروبية والاستقرار معادلا للكاثوليكية. ولكن نظرته المحافظة لم تصل إلى حد الرجعية حيث إنه آمن بمنجزات عصر التنوير؛ كما أنه امتدح الثورة الفرنسية لأنها حطمت النظام الاقتصادى الفاسد ومهدت الطريق فى رأيه أمام الكنيسة كى تتمكن من احتلال المركز فى دائرة الحياة الاجتماعية والسياسية. وهكذا نرى أن كثلكة بيلوك من نوع غريب يجمع بين المتناقضات.

ذهب بيلوك إلى أن المذهب البروتستانتى المادى والخانق للروحانيات سمح لليهود الأغراب بالاندماج فيه وإقامة مجتمع رأسمالى معاصر بشع. والجدير بالذكر أن كراهية بيلوك لليهود بلغت حدًا جعله فى بادئ الأمر يرفض مقابلة الأديب ج. ك. تشسترتون فى لندن لأن البعض أفهموه أن خط تشسترتون فى الكتابة شبيه بخطوط اليهود ولاشك أن موقفه المندد دريفوس اليهودى زاد من عزلته عن دائرة المثقفين فى أكسفورد. وساعد على انعزاله إيمانه بنوع غير مألوف آنذاك من الليبرالية الثورية الداعية إلى إعادة توزيع الثروة.

وقف بيلوك فى صف الليبرالية اليسارية حين ناصب النظام الرأسمالى العداء وفى صف الليبرالية اليمينية حين اعتنق بعض الآراء العرقية المتطرفة والجدير بالذكر أن فضحه لقوة المال فى إفساد الحكم الذى تلعبه البلوتوقراطية لم يظهر بوضوح إلا من خلال حرب البوير. وفى عام ١٩٢٢ نشر بيلوك كتابا بعنوان «اليهود» ذهب فيه إلى أن اهتمام المواطن الإنجليزى بمشكلة اليهود يرجع إلى قضية دريفوس والدور الذى لعبه أثرياء اليهود فى إشعال فتيل حرب البوير لخدمة مصالحهم الاستعمارية فى جنوب إفريقيا، ولم يكن بيلوك وحده الذى ربط بين البلوتوقراطية اليهودية وحرب البوير، فقد درج ج. م. هوبسون على ترديد هذه المحاجة فى الكتاب الذى نشره عام ١٩٠٠ بعنوان «الحرب فى جنوب إفريقيا» The War in South Africa والذى يتضمن فصلا بعنوان «لمصلحة من نقاتل؟» جاء فيه إن موارد جنوب إفريقيا خضعت إلى حد كبير لاستغلال وتوجيه مجموعة صغيرة من أصحاب الأموال فى العالم أغلبهم من أصل ألمانى وتجرى فيهم الدماء اليهودية. وكذلك وصف هوبسون الحرب بأنها مخطط استعمارى يهودى. والجدير بالذكر أن مثل هذه الأفكار المناهضة لليهود شجعت بيلوك على الاعتقاد بأن بنى إسرائيل عبارة عن جماعة من ذوى الاتجاهات الدولية التى ترفض الاندماج فى أى مجتمع بعينه- وتملك الثروة القادرة على نسف الحدود والتقاليد القومية. حذا بيلوك حذو هوبسون حين قال: إن باستطاعة اليهود تهديد قدرات بريطانيا الإنتاجية حيث إنهم تحولوا إلى حشرات طفيلية تعيش على «ثمار الصناعة الحقيقية». ولهذا كان من

الطبيعى أن يرى وجود تعارض بين المواطنة الإنجليزية وبين انحطاط اليهود الأغراب عن البلاد، كما كان من الطبيعى أن يتحدى الآراء التى تنادى بها الليبرالية والمطالبة بحق الجميع فى التمتع بمزايا المواطنة داخل مجتمعاتهم. وعلى النقيض من هذه النظرة الليبرالية الشاملة التى لا تفرق بين اليهود وغير اليهود فى أى مجتمع نظم بيلوك عام ١٩١٠ قصيدة بعنوان «إلى خريجى كلية باليول باكسفورد الذين لا يزالون يعيشون فى إفريقيا» تحسر فيها على فضل أصدقائه فى الكلية الذين راحوا ضحية حرب البوير، وهى حرب لم يستفد منها غير الحثالة المستفيدة من نشوبها. ولعلنا نذكر أن استنكار كثير من الإنجليز لجشع اليهود واستغلالهم أفضى فى مطلع القرن العشرين إلى مطالبة البرلمان البريطانى بإقصاء اليهود الأجانب عن عضويته.

عالج بيلوك المشكلة اليهودية فى كتاباته الصحفية إلى جانب أعماله الروائية ففى إبريل عام ١٩٠٠ نشر ملخصًا لأول عمل روائى له خرج إلى النور فيما بعد عام ١٩٠٤ بعنوان «إيما نويل بيردن» Emmanuel Burden وتحتوى هذه الرواية على شخصية رأسمالى يهودى ذى اتجاه دولى اسمه أ. زد. بارنيت تربطه صداقة وطيدة بثرى أخر هو الإنجليزى بيردن. ويبدو أن بيلوك وجد مشقة فى إتمام هذه الرواية حيث إن تأليفها استغرق منه سنوات عديدة. ويبدو أيضًا أن السبب فى تأخر نشر هذه الرواية يرجع إلى أن الناشر أحجم عن نشرها خوفًا من اتهامه بمعاداة السامية، الأمر الذى اضطر المؤلف إلى تلطيف هجومه على اليهود واستبدال لغة القدح بلغة الهجوم العاقل والمعتدل.

وتشكل الرواية الآنفة الذكر جزءًا من رباعية تحمل أجزاؤها الثلاثة الباقية العناوين التالية «انتخاب مستر كلاترباك» (١٩٠٨) Mr. Clutterb busks, Election «تغيير وزارى» (١٩٠٩) A change in the Cabinet و«بونجو والنور» (١٩١٠)Pongo and the Bull . ويتتبع الجزء الأول من هذه الرباعية حياة البروتستانتى الإنجليزى الثرى بيردن الذى استفاد من نمو اقتصاد إنجلترا فى جمع ثروة يفقدها هو وابنه بسبب تبديدهما لها. والجدير بالذكر أن كلمة بيردن الإنجليزية تعنى العبء الثقيل

مما يوحى بأن شخصية بيردن السلبية الضعيفة تمثل عبئا على تطور إنجلترا. وكذلك يوحى تخاذله الروحى بأنه يعطى الفرصة لليهود - أمثال بارنيت الذى يتدفق ديناميكية وحيوية - أن يتحكموا فيه وفى ابنه المتلاف. وفى مقابل تخاذل بيردن الإنجليزى نرى اليهودى بارنيت يبذل جهده ويقيم مشاريع لاكتشاف مناجم الذهب فى غرب إفريقيا تحت مستنقعات مكوريو دلتا، الأمر الذى يذكرنا بالدور الاستعمارى الذى لعبه أثرياء اليهود فى حرب البوير وإنشاء إنجلترا جديدة تحل محل إنجلترا العتيقة التى يمثلها بيردن. فضلا عن أن قوة مركزه المالى تعطيه القوة السياسية. وأخيرًا تنتهى رواية إيمانويل بيردن نهاية تنذر بالشر حيث إن الرأسمالية اليهودية الأجنبية تنجح فى التحكم فى أهل البلد الأصليين.

كتب بيلوك فى فترة عضويته فى البرلمان البريطانى الثلاث روايات الأخرى من رباعيته على غرار «إيمانويل بيردن» الرواية الأولى فيها. ولعل أهم هذه الروايات الثلاث هى رواية «انتخاب كلا ترباك» وهو تاجر أصاب ثروة كبيرة بعد أن اشترى أسهم شركة بيض تملك مليون بيضة كانت تزمع إرسالها إلى الجنود البريطانيين الموجودين فى جنوب أفريقيا، وفجأة وجد هذا الرجل نفسه ثريًا نتيجة اشتعال حرب البوير. وزاده ثراء أنه استثمر ماله فى البنك الذى تملكه أسرة بارنيت اليهودى وهو لا يدرى أنه أصبح ألعوبة فى يد هذا الرأسمالى المتآمر، وبسبب الثروة التى هبطت عليه فجأة صار الإنجليزى كلاتر باك رجل دولة ذا مكانة عالية تربطه الصداقة برئيس الوزارة البريطانى وبعض أقرباء زعيم المعارضة، ويريد بيلوك بهذا أن يبين لنا قدرة المال على الافساد السياسى. فضلا عن أن هذا الجو الفاسد مكن الثرى المتآمر بارنيت اليهودى على اعتلاء قمة الهرم السياسى. وتتضح لنا قدرة رأس المال على الإفساد السياسى فى الكتاب الذى ألفه بيلوك عام ١٩١١ بالاشتراك مع سيسيل تشسترتون بعنوان «النظام الحزبى» the party system وفى المحسوبية والفساد استطاع اليهودى بارنيت الحصول على لقب دوق. والجدير بالذكر أن بيلوك الذى كان فى بادئ الأمر يتحفظ نوعًا ما عند معالجة موضوع اليهود وقدرتهم على الإفساد أصبح بعد مرور أربعة أعوام على نشر أولى روايات

الرباعية «إيمانويل بيردن» أكثر جرأة وجسارة فى تقدهم والنيل منهم. يقول بيلوك فى معرض حديثه عن شخصية بايلى: «رأى بايلى اليهود حوله فى كل مكان». وهو لم يرهم فقط فى كل مكان بل رآهم جميعًا فى حالة تآمر. وربما لا يقول إن تآمرهم كان تآمرًا واعيًا ولكنه مع ذلك كان فى مقدوره اكتشاف آثار هذا التآمر. ومع تقدمه فى العمر أخذ هذا الداء (اليهودى) ينتشر بسرعة حتى صارت كل عائلات أرنولد يهودية فضلا عن أن الدماء اليهودية كانت تجرى فى عروق نصف الأرستقراطية الإنجليزية لدرجة أنه لوهلة كاد أن يتهم بابا روما والعائلة المقدسة البريطانية باليهودية. ولست فى حاجة إلى القول إنه اعتبر كل نفوذ واسع ابتداء من الماسونية حتى تمويل أوروبا الدولى نفوذًا يهوديًا.

غير أن المؤلف بيلوك يختلف عن بايلى شخصيته الروائية ففى حين كان بايلى يشتط فى هجومه على اليهود كان المؤلف يتحرى القصد والاعتدال فهو يقول فى روايته «تغيير فى الوزارة» إنه لم يكن بمقدور الرأسمالى اليهودى بارنيت أن يفسد حياة الإنجليز لولا تخاذل وضعف ولا عقلانية الإنجليز أنفسهم».

وفى الجزء الأخير من رباعيته الروائية المنشور عام ١٩١٠ بعنوان «بونجو والثور» يصور لنا بيلوك ذروة الفساد الذى ينفثه الرأسمالى بارنيت فى الحياة الإنجليزية وذلك عندما يصبح هذا اليهودى لصيقًا برئيس الوزراء وأكثر الرأسماليين فى بريطانيا مدعاة للاحترام، ويشعر بيلوك بخيبة أمله الشديدة فى جدوى الديمقراطية والحياة البرلمانية الإنجليزية فيتصور أن إنجلترا عام ١٩٢٥ سوف تفلس وتعجز عن الإنفاق على وجودها الاستعمارى فى الهند التى تمور بالاضطرابات الأمر الذى يضطر رئيس وزراء إنجلترا إلى الاقتراض من اليهودى بارنيت الذى يبدأ فى إملاء الشروط عليه ويلمح له بالهزال المالى الشديد الذى تعانى منه حكومته كما يعبر عن شكه فى قدرتها على سداد القرض الذى تريده. وخلاصة القول إن المؤلف يريد أن يؤكد حقيقة مفادها أن اليهودى يظل يهوديًا مهما طالت مدة إقامته فى بريطانيا، فاليهودى يسعى ماوسعه السعى إلى استنزافها وامتصاص دمائها. واستمر بيلوك فى مناصبة اليهود العداء حتى بعد أن نشر

«بونجو والثور» وهى الجزء الأخير فى رباعيته وانتقلت هذه العداوة إلى ماسطره من مقالات؛ فهو فى إحدى مقالاته يكتب معلقًا على أعمال الشغب التى حدثت فى جنوب ويلز ضد اليهود: «إن الهجوم على اليهود كيهود أمر غير عادل بالمرة، ومع ذلك فإننا لسوء الحظ ودون أدنى شك نجد فى كل مكان نوعًا من اليهود يعتبره عامة الناس ليس ملحقًا للظلم والضيم بالفقراء فحسب بل الأدهى من ذلك والذى لا سبيل إلى احتماله أنه عامة الناس تراه ظالما غريبًا عنهم أتى إليهم من الخارج.. وهم ينظرون إليه كظالم يعجز عن فهم مشاعر الذين يتعرضون لظلمه. واستحالة فهم هذا الظالم لمشاعر ضحاياه هى السبب الحقيقى وراء عدائه للسامية وما هو أسوأ منها، نعود إلى حكاية رئيس الوزراء البريطانى الذى يضطره العجز فى الميزانية إلى الاقتراض من بارنيت اليهودى فنضيف أن النخوة والوطنية تتحركان أخيرًا فى صدر ثرى إنجليزى فيتطوع بإعطائه القرض الذى يريد دون أى شروط حتى يدرك الثرى اليهودى أن القيم الإنجليزية أسمى وأرقى من قيم بنى إسرائيل.

وعلى أية حال لا يكف بيلوك عن توجيه تهمة الإفساد إلى طبقة اليهود الأثرياء. فهو يقول:

«يبدو لى أن وجود البلوتوقراطية الإنجليزية ـ اليهودية حقيقة واضحة للعيان مثل حقيقة وجود الجيش الفرنسى ومجلس العموم وكاتدرائية القديس بولس. وأهم معالم سياستنا تتخذ للحفاظ على مصالح جماعات محدودة العدد من الأثرياء وبناء على مشورتهم . وبعض النفوذ السائد الذى تمارسه هذه الجماعات يهودى، فى حين أن البعض الآخر إنجليزى أو بالأحرى بريطانى وهذا ـ لسوء السمعة ـ هو الحال فى مصر كما أنه أيضًا لسوء السمعة الحال قبل اندلاع الحرب المخجلة فى جنوب إفريقيا وكذلك الحال فيما يتعلق بالتجارة الهندية ونشأة الحركات الجديدة فى تركيا».

أكد بيلوك وجود تواطؤ بين أثرياء الإنجليز وأثرياء اليهود بخصوص المناقصة التى أعلنت عنها إنجلترا عام ١٩١٢ لإنشاء شبكة محطات إذاعية تغطى كل أرجاء

الإمبراطورية البريطانية كما أكد وجود شبهة فساد تحوم حول هذه المناقصة وهو ما يعرف فى تاريخ إنجلترا الحديث بفضيحة ماركونى. وأيضًا أكد بيلوك أن البرلمان الإنجليزى أصبح ألعوبة فى أيدى أثرياء اليهود فى بريطانيا وعندما اقترح البعض استيراد العمالة الصينية إلى إنجلترا لرخصها اعترض بيلوك على ذلك فى خطبته الافتتاحية التى ألقاها فى البرلمان بمناسبة انتخابه عضوًا فيه. قال إن هذه السياسة وصمة عار فهى سياسة يهودية لا تتفق مع نهج الإنجليز فى التفكير معربًا عن يقينه إن اليهود فئة غريبة يلفظها المجتمع الأوروبى لأنها ترفض الاندماج فيه ورغم أن بيلوكا أثر عدم مجاراة ف. هيو أودنيل F. Hugh O'Donnell فى موقفه المتعصب والمتشنج ضد اليهود فإننا نراه يقول:

«إن الغضب فى سطوة اليهود فى أوروبا الغربية يرجع جزئيًا إلى الصدام العرقى ولكنه يرجع بصورة أكبر إلى ضيق فى الشعور بأن قوة المال الغربية وغير القومية تستطيع أن تفرض حدودًا على معلوماتنا وتؤثر فى حياتنا فى شتى المجالات. وإنه أمر مشروع أن نتبين أن سلطة المال اليهودية منعت الناس من معرفة الحقيقة الخاصة بأكثر المحاكات الأجنبية شهرة المتعلقة باليهود. ولكن نظرا لأن مثل هذه الأمور تكاد أن تقترب من حافة العواطف الجامحة والعنيفة فمن الضرورى أن نتجنب أى شىء تفوح منه رائحة التعصب الذى يدمر دفاعنا عن قضيتنا ويضعف كل ما نبذله من جهود».

وفى مقالاته وكتابه عن اليهود رفض بيلوك اعتناق الأفكار الليبرالية المنادية باندماج اليهود فى المجتمع بحجة أنها غير عملية وغير مجدية، كما رفض فى نفس الوقت اتباع سياسة استبعاد اليهود من المجتمع لأنها تناقض روح الديانة المسيحية وتبث الكراهية السلبية فى النفوس دون أن تحل مشكلة اليهود.

وفى سعيه إلى حل مشكلة اليهود فى أوروبا نادى بيلوك بالعودة إلى القانون الخاص بوضع اليهود فى إطار الأمة المسيحية الذى اتبعته أوروبا فى العصر الوسيط. وهو قانون يسمح بالاعتراف القانونى بالعرق اليهودى فى كل انحاء

أوروبا. ويتطلب هذا القانون من اليهودى أن يتخلى عن المواطنة العرقية فى سبيل الاندماج فى مؤسسات يهودية منفصلة وقائمة بذاتها. ومن جانبه أنحى بيلوك باللائمة على كل من إيمانويل وسيسيل تشسترتون بسبب موقفهما المتشنج والمتعصب ضد اليهود. وعدم تحريهما العقلانية عند الهجوم عليهم. وذهب بيلوك إلى أن اندراج يهود أوربا فى هيئات أو مؤسسات لها تقاليد مستقلة سوف يضع نهاية للصراع المحتدم بين العرق اليهودى وأوروبا. واسترسل بيلوك فى إبراز المخاطر والأضرار الناجمة عن انصهار اليهود فى المجتمعات غير اليهودية. وبطبيعة الحال لم يستجب اليهود لدعوته فقد هاجمته صحفية «الجويش كرونيكل» واتهمته بمعاداة السامية نتيجة جهله بالسلوك اليهودى.

نلاحظ أن بيلوك الذى تخلى فى بداية حياته الأدبية عن حدة الهجوم المباشر على اليهود عاد لمعاداتهم على نحو مباشر. وعندما قامت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ أشار إلى وجود نصف تحالف فى جميع أرجاء العالم بين أصحاب الأموال اليهود وبين سيطرة اليهود على الثورة البلشفية. وشجع بيلوك على التأكيد على طبيعة اليهود التآمرية أن الرأى العام البريطانى كان قد بدأ يناقش على نطاق واسع مشكلة تعاظم النفوذ اليهودى فى إنجلترا. وعلى أية حال شكا بيلوك من أنه لا يزال يرى كثيرًا من مظاهر التعاطف فى بريطانيا على اليهود. يقول بيلوك:-

«إن الحياة الإنجليزية بأسرها تتداخل تمامًا مع اليهود. فعائلاتنا الكبيرة تربطها بهم علاقات زواج فضلا عن أنهم مرتبطون بنظامنا التشريعى ونظامنا المالى بطبيعة الحال، إلى جانب ارتباطهم - وهو الأهم. بتقاليد مجتمعنا الأخلاقية التى لا يمكن فصلها عن قوة المال اليهودية فى جميع دول العالم.

اقتنع بيلوك اقتناعًا راسخًا بأن الوشائج التى لا تنفصم عراها تربط إنجلترا باليهود، الأمر الذى حدا به عام ١٩٣٢ إلى تأليف رواية عن فضيحة ماركونى» بعنوان «رئيس مصلحة البريد» The Postmaster Genera. ومع اقتراب نذر الحرب العالمية الثانية زاد اقتناعه بأن «أصحاب البنوك الدولية فى اليهود يسعون إلى إشعال فتيل الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا حتى يتسنى لهم استغلالها لصالحهم عن طريق تقديم القروض بالربا الفاحش لإنتاج السلاح.

وفى أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين شدد بيلوك النكير على اليهود. ففى المقدمة التى أضافها عام ١٩٣٧ إلى كتابه «اليهود» نراه يركز على الحرب الإسبانية والنازية ودولة إسرائيل الوليدة ويراها جميعًا ثلاثة وجوه لشىء واحد ينم عن اشتداد سطوة رأس المال اليهودى وتأثيره فى مجريات الأحداث العالمية. يقول بيلوك إن الحرب الأهلية الإسبانية هى «نوع من الحركة الثورية العامة التى تسمى الشيوعية اليهودية» وأيضًا هاجم بيلوك الفكر الصهيونى بضراوة. ورأى - كما رأى شو وويلز - أن مغالاة النازية فى تضميم القومية الآرية وتمجيدها ليست سوى صورة معكوسة لإيمان اليهود بأنهم شعب الله المختار، وعندما أعلن بيلوك أن الإجراءات التى اتخذها هتلر فى بادئ الأمر للتخلص من مشكلة اليهود ليست كافية كان ذلك استشرافًا للهولوكست النازى الذى لجأ إليه هتلر فيما بعد ليحل مشكلة اليهود حلا نهائيًا.

ج. ك. تشسترتون Y.K. Chesteston :

بعد وفاته عام ١٩٣٦ رأت سيرة حياته الذاتية ج. ك. تشسترتون طريقها إلى النشر حيث وصف فضيحة ماركونى، كنقطة تحول فى كل تاريخ إنجلترا والعالم. وأضاف تشسترتون أن هذه الفضيحة جعلت الإنجليزى العادى يبدأ فى فقدان الثقة بحكومته كما جعلته يبدأ فى إدراك ما يحيط به من فساد، وكان لتشسترتون أخ يدعى سيسيل قدم فى عام ١٩١٣ إلى المحاكمة بتهمة توجيه السباب القاذع إلى اليهود.. وأثناء محاكمته مدت الكنيسة الكاثوليكية يدها إليه ورحبت به عضوًا فيها. ويقال إن محاكمته سيسيل كانت السبب المباشر فى إصابة مؤلفنا بانهيار عصبى عام ١٩١٤. ويقال أيضًا إن عداوته للسامية لم تظهر إلا بعد تفجير فضيحة ماركونى التى كان استغلال رأس المال اليهودى سببًا فيها، فضلا عن أن وقوعه تحت تأثير بيلوك أجج كراهيته لليهود فضلا عن ترك عدوى كراهية السامية انتقلت من أخيه سيسيل إليه بوضوح حين تولى تحرير صحيفة «الشاهد الجديد» the New Witness التى نشر فيها خطابًا مفتوحًا إلى اللورد ردنج بعد أن اغتالت يد الردى أخاه سيسيل بعد الحرب العالمية الأولى وهو فى ميعة الصبا والشباب. وفى

هذا الخطاب يردد تشسترتون نفس ما سبق بيلوك أن قاله من وجود تعارض بين مصالح الإنجليز القومية ومصالح اليهود الأغراب عنهم والجدير بالذكر أن ح. ك. تشسترتون كتب رواية بعنوان «الكرة والصليب» the Ball and the Cross عّبر فيها عن زرايته باليهود.

ويتهم تشسترتون ديكنز بازدواجية المعايير لأنه رسم صورة منفرة لليهود فى شخص فاجن زعيم العصابة فى روايته المعروفة «أوليفر توسيت» ثم عاد وامتدحهم فى رواية «صديقنا المشترك» وبعد مرور خمسة أعوام على صدور كتابه عن ديكنز فى عام ١٩٠٦ نشر كتاباً آخر بعنوان «تقييم ونقد أعمال ديكنز(١٩١١) -Appercia tions and criticisms of the works of Charles Dickens مّيز فيه بين نوعين من اليهود نوع مقيت ونوع آخر مقبول أو مستساغ، وهى صورة متوازنة لبنى إسرائيل لا تتضمن تحيزًا ضدهم أو تحاملا عليهم. ثم تناول مؤلفنا نفس الموضوع فى الحديث الذى ألقاه عام ١٩١١ فى الجمعية الأدبية اليهودية حيث قسّم اليهود إلى قسمين: أثرياء اليهود الذين يبعثون النفوس فى النفس، وفقراؤهم المحبون إليها، كما أنه ميز كذلك بين ما أسماه «اليهودى الواسع الأفق» و«اليهودى الضيق الأفق»، وهو يفضل اليهودى الثانى على الأولى لأن اليهودى الواسع الافق يسىء إلى نفسه وإلى مجتمعه حين يحاول الاندماج فيه فى حين أن اليهودى الضيق الأفق، يرفض الذوبان فى المجتمع ويحتفظ بكيانه وكيان بنى جلدته منفصلا عن هذا المجتمع. فلا غرو إذا رأيناه يمتدح الصهيونية لأن اليهود المؤمنين بها لا يريدون عن قوميتهم بديلا ويناصبون العداء أيه محاولة يبذلها اليهودى للذوبان فى المجتمعات غير اليهودية، ويهاجم تشسترتون فكرة انصهار اليهود فى المجتمعات غير اليهودية لأنه يوقن بأن عرق اليهودى دساس وأنه مهما فعل فسوف يبقى حتى النهاية يهودياً حتى النخاع.

اعتبر تشسترتون اليهود مصاصى دماء فهم يتضافرون مع الحكام الإنجليز فى الهيمنة على صحافة إنجلترا وفنونها وثقافتها وعلمها بل وفى الهيمنة على أمبراطوريتها. فلا غرو إذا رأيناه يعارض الاستعمار البريطانى الذى يحاول أن

يخلع سمة الرومانسية على حرب البوير، يقول تشسترتون فى سيرة حياته أن يؤيد بشدة حق دولة البوير الصغيرة فى أن تدافع عن نفسها من منطلق وطنى. ودعاه موقفه الناقد لحرب البوير والمؤازر لشعب البوير إلى تأليف أولى رواياته بعنوان «نابليون فى حى ناتنج هيل» (١٩٠٤) Napoleon of Notting Hill. ورغم تأثره بيلوك فإن تشسترتون يخالفه فى موقفه الرافض للصهيونية، وكما سبق أن ذكرنا رحب تشسترتون بذوبان اليهود فى المجتمعات غير اليهودية. ففى حين صرح بيلوك لصحيفة «الجويش كرونيكل» عام ١٩١٠ بأنه لا يؤيد إنشاء دولة عبرية فى فلسطين لأن اليهودى ينتمى إلى أوروبا ويجد نفسه ونجاحه فيها أكثر مما يجدهما فى أية بقعة فى العالم نرى تشسترتون يقول فى حوار أجرته معه نفس الصحيفة عام ١٩١١:

«إن الصهيونية سوف تحقق لليهودى المشاعر الوطنية المرتبطة بالأرض وهى مشاعر يفتقر إليها الآن. فضلا عن أنها بكل تأكيد ستمكنه من تطوير ثقافته الخاصة فى مجالات الفنون والأدب والعلم وتضع حدا للخلط والتشابك وسوء الفهم بينه وبين الشعوب التى يعيش معهما.

قلنا إن تشسترتون وقع تحت تأثير بيلوك الأمر الذى زاده كراهية لليهود، ويذكر الدارسون فى هذا الشأن أن تشسترتون قبل أن يقابل بيلوك عقد صداقات مع أثرياء الإنجليز - اليهود وأنه كان لا يتحدث عن اليهود بمعزل عن بقية الشعب الإنجليزى فضلا عن أنه كان يقوم بزيارات إلى أحياء اليهود فى إنجلترا. وفى بادئ الأمر بدت كراهية بيلوك لليهود أشد من كراهية تشسترتون ففى حين وصم بيلوك اليهود بالرأسماليين الأغراب عن البلاد رأى تشسترتون أنه يمكن لليهودى أن يتغير إلى الأفضل، ولكنه أراد له أن يتغير خارج حدود إنجلترا ومعنى هذا أن الصهيونية التى آمن بها تشسترتون ارتبطت باعتقاده بأن اليهودى لن يتمكن من تطوير قوميته التى يفتقر إليها الآن إلا إذا اكتشف أنه ينتمى إلى عرق منفصل له تاريخه الخاص ومستقبله الخاص الذى يضعه بيديه.

«شيئًا فشيئًا بدأ تشسترتون يعبر عن مجموعة من الآراء الكارهة لليهود والقريبة من وجهة نظر بيلوك. ففي عام ١٩٠٨ كتب مقالا في مجلة أولباتني ريفيو Albany Reviw عن «عبودية إنجلترا الفاضحة لليهودي الدولي القوي» وبعد مضي ثلاثة أعوام كتب في مجلة «الأمة» Naliar يهاجم رأس المال الدولي اليهودي معتبرًا إياه احتقارًا للقوميات. والجدير بالذكر أن مجلة «الأمة» ذات التوجه الليبرالي وجهت انتقادًا إلى اللورد اليهودي سواتيلنج لأنه اشترط في وصيته على أولاده عدم إخفاء دينهم اليهودي عن الناس والامتناع عن الزواج من غير اليهود. ولكن تشسترتون راق له هذا الشرط ولم يجد فيه أدنى غضاضة. يقول تشسترتون في دفاعه عن موقف اللورد سواتيلنج:- «إن كثيرًا من الإنجليز ـ وأنا واحد منهم ـ يفكرون تفكيرا جادًا أن السطوة العظيمة التي تمتع بها العائلات اليهودية المرموقة والتي تعمل إلى حد كبير في الخفاء تخلق مشكلة وتمثل خطرًا. ولكنكم غافلون عن هذا على كل حال. إنكم تسمحون لليهود باحتكار تجارتكم وأسواقكم وتحريككم كالدمى وبإشعال الحروب وإثارة النزاعات وأن يبيعوا ويشتروا في كرامتكم القومية ويبدو أن الشيء الوحيد الذي لا تسمحون به هو ترك اليهود في حالهم يعيشون كيهود. وليس يهمكم إذا قام اليهود بإدارة شئونكم ولكنكم تتدخلون في حياتهم إذا عزلتم إدارة شئونهم بأنفسهم. إن اليهودي الثري يتربع قمة الدولة ويسيطر عليها عن طريق تحكمه في شئون السياسة والمال. وإذا خطر لكم إلقاء الطوب على اليهودي العجوز المسكين فإنكم تفعلون هذا وهو في أشرف لحظات حياته.. أي حين ينطق بالشهادة للإله الذي عبده آباؤه. ولست أرى في ذلك أي احترام أو توقير للدين (اليهودي» أو حتى أي تسامح إزائه.

قلنا إن تشسترتون في باكورة أعماله أبرز الجانب اللطيف في شخصية اليهودي مثل شخصية جولد في الرواية التي ألفها عام ١٩١٢ بعنوان «مانااليف» Manalive ويرجع السبب في امتداح المؤلف له إلى رفضه الاندماج في المجتمع الإنجليزي فضلا عن بره بعائلته. غير أنه ينبهنا في نفس الوقت إلى أنه شخصية زئبقية غير محددة المعالم أو الصفات. وهو موضوع يتكرر في عدد من رواياته اللاحقة، ويتناول تشسترتون في هذه الروايات اللاحقة إلى الإرستقراطيات الأوروبية التي تقترض المال من أثرياء اليهود مما يجعلها دمى في أيديهم.

آمن تشسترتون بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية دون أن يشاركها الإيمان بأنها سيدة الكنائس على الأرض أو أسمى المؤسسات الدينية جميعًا. وكان مترفقًا باليهود في أول الأمر فقد أعرب عن صدمته وألمه الصارخ لما لقيه اليهود من خسف واضطهاد في أوروبا الشرقية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. فضلاً عن أنه في باكورة حياته الأدبية نظم قصيدة بعنوان «اضطهاد اليهود في روسيا» وصف فيها اليهود بأنه شعب شجاع ومعذب يصرخ شاكيًا إلى الله من عار الإنسان. غير أن عطفه عليهم لم يكن خالصًا منذ البداية لأنه لم يخل أبدًا من النقد والهجوم. وكما سبق أن أسلفنا تخلى تشسترتون تمامًا في أخريات حياته من أي عطف كان قد أبداه من قبل.

وفي عام ١٩١٤ أصدر تشسترتون رواية بعنوان «الحانة الطائرة» The Flying Inn عشية الانهيار العصبي والبدني الذي أصابه. وتتضمن هذه الرواية مواقفه المتضاربة من اليهود. أما الرواية ،التي كتبها بعنوان «أورشليم الجديدة» (١٩٢٠) The New Gerusalem فتدعو إنجلترا إلى سن قانون ينص على اعتبار اليهودي شرقيا.

وتنم المرحلة الأخيرة في كتابات تشسترتون وإنتاجه القصصي مثل «الرجل الذي يعرف أكثر مما ينبغي» (١٩٢٢) The Man whoKnew too Much على بالغ تأثره برباعية بيلوك الروائية التي تسلط الضوء على سطوة رأس المال اليهودي وهيمنته ليس على مقدرات بريطانيا وحدها بل على مقدرات العالم كله. وبعد عام ١٩٢٥ حتى وفاته في عام ١٩٣٦ اضطلع تشسترتون بتحرير مجلة أسبوعية،عالج فيها «فضيحة ماركوني» التي استأثرت باهتمام المجتمع الإنجليزي أنذاك والتي أثارت الشكوك حول الدور الفاسد الذي لعبته الرأسمالية اليهودية بالتواطؤ مع الطبقة الحاكمة في إفساد الحياة البريطانية. والجدير بالذكر أن تشسترتون في عام ١٩٢٩ انتقى قصته بعنوان «السيوف الخمسة» من مجموعته القصصية «الرجل الذي يعرف أكثر مما ينبغي» ونشرها بعنوان «قصتي المفضلة»my Best story وتدور هذه القصة حول النوايا الإجرامية لمجموعة من أثرياء اليهود الذين يتآمرون

على حياة عدو لهم. وهكذا يردد تشسترتون نفس الموضوع الذى سبقه إليه بيلوك وهو موضوع المؤامرات التى يجمعها أصحاب الأموال اليهود فى العالم وتهديدهم للحدود القومية الثابتة للبلاد الأوروبية.

وتحدثنا روايته «المجرمون الأربعة الذين لاغبار عليهم» four Faultlss felons المنشورة عام ١٩٣٠ عن استخدام اليهود لغة بيديتش جديدة فى كل مكان فى العالم يسكنه اليهود وكأنها شفرة يهودية تخص اليهود وحدهم. وقد بلغت صورة اليهودى المتآمر فى أدب تشسترتون ثمة البشاعة فى قصة «بحث القس براون» the Re-surrectxion of Father Brown حيث يصبح هذا القس ضحية مؤامرة يحكيها ثوار يهود فى أمريكا الجنوبية يسعون لدحض المعجزات وتكذيبها حتى يتسنى لهم هدم الدين المسيحى الذى يعتمد الإيمان به على الإيمان بالمعجزات ويحّمل تشسترتون – فى كتابه «موجز تاريخ انجلترا» الذى ألفه عام ١٩١٧–اليهود جزءًا من مسئولية الاضطهاد الواقع عليهم فهو يقول: «كان اليهود فى العصور الوسطى أقوياء بقدر ما كانوا مكروهين حيث إنهم كانوا الرأسماليين فى ذلك الزمان.. الذين يكتنزون الثروة الجاهزة للاستخدام.. لقد يكون (اليهودى) على حق حين يجادلون بأن الملوك والنبلاء المسيحيين بل حتى البابوات والأساقفة المسيحيون استخدموا تلال الأموال التى جمعها اليهود (عن طريق الربا الذى استنكره المسيحيون دائمًا باعتباره انتهاكًا لمبادئ المسيحية» من أجل أهداف مسيحية (مثل شن الحروب الصليبية وإقامة الكاتدرائيات) ثم ما أن ساءت أمور هؤلاء المسيحيين حتى سلموا اليهود إلى غضب جموح الشعب الفقيرة التى دمرها ذلك الربا المقيد. هذه هى القصة الحقيقية لليهود.. ولسوء الحظ أيضًا أنها كانت قصة المسيحيين الذين شعروا (ولهم على الأقل عذر مساو) أن اليهودى هو الظالم لهم».

وهكذا يصبح اليهودى الضحية المظلوم ظالمًا كما يصبح المسيحى الظالم ضحية جشع اليهودى وممارستهم للربا.

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى تخلى تشسترتون عن أى تعاطف على اليهود

يمكن أنه أبداه على نحو أو آخر فى الماضى. نفى قصته «شبح الصليب الذهبى» التى نشرها عام ١٦٢٦ نرى الأب براون ينكر تعرض اليهود في القرون الوسطى لأى اضطهاد ولم يعد تشسترتون يفرق كما كان يفعل من قبل بين اليهودى الثرى المقيت اليهودى الفقير الحبيب إلى النفس أو بين اليهودى الكوزنو بوليتانى الواسع الأفق» الذى يسعى إلى الاندماج فى المجتمع واليهودى الذى يتشبث بتقاليده الدينية ويرفض مثل هذا الاندماج وهو الأمر الذى يحبذه تشسترتون على نحو ما شاهدنا. وبرزت فى أدب تشسترتون صورة اليهودى المتآمر طاغية على كل ماعداها من صور. وتدور قصة «شبح جدعون الحكيم» حول مؤامرة يحكيها ثلاثة يهود من أصحاب الملايين بالاشترك مع ثلاثة بلاشفة يهود. ومعنى هذا أن الرأسمالية اليهودية تتضافر مع الشيوعيين اليهود لفعل الشىء وقد سبق لتشسترتون أن تناول هذه الفكرة عام ١٩٢٢ فى قصته «الذى رأيته فى أمريكا» حيث نجد أن الشيوعيين اليهود فى الشرق على أتم استعداد للتعاون مع الرأسماليين اليهود فى أمريكا حيث نرى هؤلاء الرأسماليين لا يجدون أدنى غضاضة فى إقامة نظام اشتراكى بالاسم فقط.

وبعد وفاته بعام رأت روايته «مفارقات مستربوند» the Paradoxes of Mrai-pord طريقها إلى النشر عام ١٩٣٧ حيث يلوم اليهود على نشأة النازية تماماً كما سبق أن أنحى عليهم باللائمة لما وقع عليه فى ظلم فى القرون الوسطى، والأمر الذى يدعو للدهشة حقًا أن ترى تشسترتون فى عام ١٩٣٠ يدافع عن فاشية موسولينى فى كتابه بحث روما the Resurrection of Rome فى حين أنه سبق له أن هاجم الألمان فى كتابه «بربرية برلين» (١٩١٤) و«جرائم انجلترا» (١٩١٥). والجدير بالذكر أنه استبشع النازية بقدر ما استبشع البلوتوقراطية اليهودية. وهذا ما نجده فى مجموعته القصصية «مفارقات المستربوند» وتلقى قصته «حكاية طويلة» الضوء على المفارقة في موقفه من صغار اليهود الذين تعرضوا لخسف النازية وبطشها. فهو يعبر عن اشمئزاز من الاستبداد الذى تلحقه النازية بهم ولكنه فى نفس الوقت يلقى باللوم على هؤلاء اليهود المساكين والضحايا لشدة ولائهم لألمانيا النازية أى لشدة

ولائهم للبلد. التى تسومهم مر العذاب. وأيضًا ينتقد تشسترتون اليهود الذين يحرصون على نبذ أسمائهم اليهودية - اتخاذ أسماء ألمانية بدلاً منها قائلا إن هذا من شأنه أن يثير غضب الألمان عليهم أكثر وأكثر، ويستطرد فى قصته «حكاية طويلة قائلا: إن لهفة اليهود على الاندماج فى المجتمع الإنجليزى هى السبب وراء مشاعر الكراهية التى يحملها الإنجليز لهم. وكذلك يستخدم تشسترتون نفس الحاجة فى كتابة «أورشليم الجديدة» حيث يقول إن أعمال الشغب التى تفجرت ضد اليهود فى الحرب العالمية الأولى ترجع جزئيًا إلى الأخطاء التى يرتكبها اليهود أنفسهم حين يتهافتون على الاندماج فى المجتمعات غير اليهودية. ورغم أن تشسترتون يهاجم النازية فإنه يلوم فى نفس الوقت ضحاياها من اليهود ويعتبرهم مسئولين ولو جزئيًا عما يلحق بهم من قمع واضطهاد.

يقول تشسترتون الذى يرفض فكرة اندماج اليهودى فى المجتمعات الغربية فى كتابة «أورشليم الجديدة» إن اليهود جاءوا فى الشرق ومن ثم يجب اعتبارهم شرقيين وأن يلبسوا الملابس الشرقية، ويصبح تشسترتون مع مرور العمر على يقين أن عرق اليهود ودساس فهو مهما اندمج فى المجتمع الإنجليزى فسوف يظهر يومًا على حقيقته ويعمل لصالح بنى جلدته ضد الإنجليز يقول تشسترتون فى معرض حديثه عن اليهودى الإنجليزى درزائيلى الذى اعتلى أسمى المناصب السياسية وأصبح رئيسًا لوزراء بريطانيا فى القرن التاسع عشر: «حتى إذا استطعنا إقناع أنفسنا بأن درزائيلى عاش من أجل إنجلترا فإننا لن نستطيع أن نقتنع بأنه سوف يموت من أجلها. فلو افترضنا أن إنجلترا ستغرق فى المحيط الأطلسى فإنه لن يغرق معها. بل سيطفو بسهولة حتى يصل إلى شواطئ أمريكا حيث يرشح نفسه لانتخابات الرئاسة هناك».

ومعنى هذا أن تشسترتون يرى أن اليهودى سوف يبقى يهوديًا إلى الأبد.

القسم الرابع

روائيون إنجليز ثلاثة فى القرن العشرين

(ويندهام لويس - تشارلز وليامز - جراهام جرين)

(١) ويندهام لويس Wyndham Lewis

لم يكن ويندهام لويس إنسانا طبيعيًا فقد كان واضح النرجسية ومصابا بعقدة الاضطهاد الأمر الذى جعل علاقته بالآخرين شديدة التوتر، كان يتوهم أن الآخرين يقفون له بالمرصاد ويحيكون المؤامرات ضده. ودفعته الأوهام إلى بناء تحصينات وأبواب سرية داخل منزله، كما كان كثير التنقل من منزل إلى آخر للتمويه على أعدائه الوهميين، وكثيرًا ما دارت أعماله الروائية حول المؤامرات التى تخيل أن النساء يحكنها ضده بالاشتراك مع رجال مخنثين وشواذ جنسيًا أو مع اليهود أو مع غير البيض أو الشيوعيين أو أفراد ينتمون إلى الطبقة العاملة. ومؤامراته تحاك عادة ضد الفنانين والعباقرة البيض. وما لم يأخذ هؤلاء الفنانون أو العباقرة حذرهم فسوف يجدون أنفسهم تحت رحمة نساء طاغيات يبتلعنهم فى أجوافهن ويمحين شخصياتهم ويحلنهم إلى تابعين وأذلاء على شاكلتهن. وسيناريوهات هذه المؤامرات قد تختلف من رواية إلى أخرى ولكن جوهرها لا يتغير أو يتبدل. وهذا يبدو واضحًا وجليًا فى إنتاجه الروائى خلال الفترة من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٦. وكى ندرك مقدار إحساسه العميق بتآمر الآخرين ضده أنه أطلق على نفسه لقب «العدو»، وهكذا ربط ويندهام لويس بين ممارسة الفن وخوض غمار الحرب. فهو كفنان يشعر بالأعداء يتربصون به الدوائر الأمر الذى يدعوه إلى المبادرة للدفاع عن نفسه قبل أن تمتد

إليه بالأذى يد التآمر. ولهذا نراه يستخدم عبارة الحمم البركانية المتصاعدة للتعبير عن الغليان الذى يعتمل بنفسه. وهو لا يراجع أو ينقح ما يكتب مثلما يفعل غيره من الكُتّاب، وقد كان من عادته أن يعلق عل كتبه بإصدار كتابات جديدة يرد فيها على منتقديه وأحيانا يرد فيها على نفسه. وفى هذه الكتابات التى يراجع فيها نفسه: «هل اليهود أدبيون» (١٩٣٩) The Jews: Are theey Human) ومبدأ عبادة هتلر» (١٩٣٩)The Hitler Cult و «تخصيص وقح» سيرة حياة عقلية» (١٩٥٠): An Rude Assignment: Tnellectua Biegraghy Rude Assignment . وفى هذه التعليقات والردود التى يكتبها بنفسه عن نفسه نجده يفسر ثم يعيد تفسير كتبه وأعماله من جديد وفى غمرة مراجعاته لذاته ألف ويندهام لويس كتابا بعنوان «رجل لا يحبه أحد غير كاتب سيرة حياته: ويندهام لويس وجيفرى مايرز»

A man Only His Biogragher Could Love بقى أن نعرف أن جيفرى ما يرز هو كاتب سيرة حياته.

ودفعته هذه النرجسية غير العادية إلى تأليف نبذات وكتيبات حول معتقداته السياسية كان يعرف أن نشرها سوف يلحق الأضرار الشخصية به. واللافت للنظر إنه تجنب الصراحة والوضوح فى كتاباته المتصلة بعلاقته بالمرأة وبطفولته ويفاعته. غير إنه توخى الصراحة فى عدد من كتاباته التى تتضمن سيرة حياته الذاتية مثل «الانفجار والتفجير» (١٩٣٧) Blasting and Bonbardiccying حيث عالج تجاربه فى الحرب العالمية الأولى و«تخصيص وقح» فضلا عن أنه توخى الصراحة فى خطاباته الخاصة. ولكن يمكن القول إنه بوجه عام تجنب الخوض فيما أسماه «الكهوف المظلمة للغاية» فى حياته الباكرة ». ولكن كاتب سيرة حياته جيفرى مايزر Jeffrery Meyers استطاع بمثابرته فى البحث والاستقصاء أن يلقى الضوء والكاشف على هذه المنطقة المظلمة فى الكتاب الذى ألفه عن سيرة حياته بعنوان «العدو» The Enemy . ولاشك أن شخصية ويندهام لويس راقت كثيرًا فى عين جيفرى مايرز فهو لم يعبر عن شدة إعجابه به فقط بل بين انه شارك ويندهام لويس طباعه التى تميل إلى الشحناء والشجار وقدرته غير العادية على العمل. واكد

جيفرى مايرز أنه يسعى من وراء سيرة حياته إلى إنقاذ سمعة لويس مما لحق بها من تشنيع وتلطيخ. وأيضًا امتدح جيفرى مايرز استعداده الفطرى للرسم. فهو فى نظره رسام قبل أن يكون روائيًا أو كاتبًا. وبلغ عطف مايرز على ويندهام لويس حدًا جعله يبرز مواقفه المنفرة وغير المستحبة مثل تأييده لهتلر» وقوله إن الجماعة الأدبية المعروفة باسم البلوفربرى Bloomsbury ليست سوى مجموعة من الجبناء الصبيانيين الساعين إلى تلطيخ سمعته وتدمير مستقبله. وفيما بعد حاول ويندهام تبرير تأييده لهتلر بأنها محاولة من جانبه لتجنب العالم ويلات الحرب العالمية الثانية.

وُلد برسى ويندهام لويس على ظهر يخت فى كندا عام ١٨٨٢ (أى فى نفس العام الذى وُلد فيه جيمس جويس وفرجينيا وولف) من أب أمريكى يدعى تشارلز. وكان تشارلز أمريكيًا فى الثالثة والثلاثين من عمره عندما تزوج من أمه الإنجليزية البالغة ستة عشر ربيعًا، كان والده هاويا للملاحة، وكان زواجه عاصفًا بسبب تهافته على الملذات واستغراقه فى الفسق والمجون اللذين ورثهما الابن عن أبيه وتفوق عليه فيهما.

وفى عام ١٨٩٣ هرب والده من عش الزوجية فى جزيرة وايت عندما كان ابنه فى الحادية عشرة من عمره الأمر الذى جعل زوجته تهجره بصفه قاطعة ونهائية. وعبثا حاول الزوج مصالحتها بعد هجرانه عشيقته ولكنها أبت بكل إباء وشمم أن تعود إليه. غير أنها تلقت منه راتبا شهريًا عاشت عليه مع ابنها المعبود وترمقه إحدى قريباتها. وتدل خطابات ويندهام لويس على شدة ارتباط أمه به وشدة ارتباطه بها. وفى مقابل حياتها عزفت عن معرفة أى رجل لأنها رأت فى ابنها بديلا عن كل الرجال كما أنه رأى فيها بديلا عن كل النساء باستثناء بعض المعاشرات الجنسية العابرة والخالية من عاطفة الحب. وطلب الوالد من ابنه البالغ اثنى عشر عامًا أن يشفع لدى أمه أن تصفح عن نزواته. غير أن الأم رفضت رفضًا قاطعًا العودة إليه، وشعر الابن بنوع من الذنب واعتبر نفسه مذنبًا ومسئولا عن القطيعة بين والديه وأن ولعه بأمه الشديد هو السبب الحقيقى فى عدم رجوعها إلى والده النادم على فسقه، ولعل فناءه فى أمه وفناء أمه فيه هو الذى جعله يهتم فى أدبه بموضوع العلاقات الجنسية المحرمة بين ذوى القربى.

يتناول ويندهام لويس في النبذة التي كتبها عام ١٩٢٦ بعنوان «فن الخضوع للحكم» The Art Of Being Ruled العلاقة الزوجية كعلاقة بين عدوين والعلاقة بين الأم وابنها كعلاقة أصدقاء وتحالف طبيعي. ونحن نراه في عام ١٩٢٩ يلوم عالم النفس المعروف سيجموند فرويد على الترويج لعقدة أوديب القائمة على ارتباط الابن عاطفيًا بالأم وكراهيته الغريزية للأب كمنافس له مؤكدا أنه لا يعاني من هذه العقدة.

ولاشك أن عبادة ويندهام لويس لأمه دفعته إلى السعي للفكاك من أسرها. ويقول بعض الدارسين إن كاتبنا كان يتوق إلى الارتداد إلى العالم الانثوي الذي شب وترعرع فيه وترك فيه أعمق الأثر، الأمر الذي جعل الناقد تشوردرو يقول إنه في قرارة لا شعوره يود لو كان أنثى. ويذهب ويندهام لويس في كتابيه «مصير الشباب» Doom Of Youth (١٩٣٢) و«قردة الله» The Apes of God (١٩٣٠) إلى أن معظم الرجال يتمنون لو أنهم رجعوا إلى أرحام أمهاتهم «أن يرجعوا إلى حالة جنينية أنثوية بدائية. وقد عبر كاتبنا في «تخصيص وقح» عن هذه الرغبة اللاشعورية الكامنة بقوله: «إن النفوذ العظيم الذي تمارسه مبادئ التحليل النفسي عن اللاشعور (أي الرغبة في العودة إلى الرحم) قاد جيلا بأكمله في واقع الأمر إلى حدود الوجود البدائي. وكان كاتبنا يحمل البغضاء لوالده وكاد أن يتوقف عن رؤيته بعد عام ١٩٠٠ كما كان يفكر في أنجح الوسائل في انتزاع المال منه. ولكنه أظهر نوعا من العطف عليه بعد أن وافته المنية.

التحق ويندهام لويس بمدرسة رجبي الإنجليزية المعروفة بنشاطها الرياضي وهو في الثالثة عشرة من عمره. وفي فترة دراسته بالمرحلة الإعدادية يبدو أن أمه كانت تخرجه من المدرسة كلما رأته تعيسًا فيها، ورغم أنه في كتاباته يتجاهل فترة تلمذته فإن هناك بعض المؤشرات التي تلقي شيئًا من الضوء على هذه الفترة الباكرة من حياته ورغم ذكائه كان ترتيبه الأخير في فصل يتكون من ستة وعشرين تلميذًا. ويقول جيفري مايرز مؤلف سيرة حياته إن التقارير المدرسية تدل على شدة كسله وهو ما يتناقض تماما مع نشاطه الشيطاني الهائل الذي تميز به في فترة نضجه. وعندما بلغ كسله المدى اضطرت مدرسة رجبي إلى طرده وهو أمر نادر الحدوث. وهو يذكر أن مدرسيه كانوا يضربونه بالعصا بشكل متكرر لدرجة أنهم ضربوه ست مرات في يوم واحد.

وفى عام ١٩٤٩ تقدم بطلب للعمل فى إحدى الجامعات الأمريكية ولكنه يقول عن نفسه إنه يكاد لا يعرف الهجاء الصحيح للكلمات، وأن مدرسيه على التوالى لم يكفوا عن ضربه، مدرس تلو الآخر. وهو يقول فى هذا الشأن إنه تحمل الضرب المتكرر لأنه كان يتمتع بصحة جيدة، وكان يعتبر النساء جنسًا قائمًا بذاته. ورغم أنه استبشع الشذوذ الجنسى فإنه عالج بعض أشكاله فى أدبه الروائى والجدير بالذكر أنه اعتبر جورج أورويل الذى تلقى تعليمه فى المدارس الداخلية الخاصة العدو رقم١، رغم اشتراكه مع أورويل فى تصوير العلاقة بين الظالم والمظلوم فى أدبه. وبعد طرده من مدرسة رجبى - كما أسلفنا - لاحظت أمه استعداده الفطرى للرسم فألحقته بمدرسة سلاد للفنون حيث قابل رجلا يدعى أوغسطوس جون أثلج صدره أن يعتبره بمثابة والد له، ولكنه كعادته سرعان ما ضاق ذرعًا به ولفظه دون رحمة. وفيما بعد اصطفى عددًا آخر من الرجال ليكونوا فى مقام والده ولكنه ابتعد عنهم فى النهاية. وبسبب طبيعته الميالة إلى المشاكسة والشجار اصطدم بإدارة مدرسة الفنون وتركها بعد مضى عامين دون أن يكمل تعليمه ثم شد رحاله إلى أوروبا وساعده هذا على نسيان التأثير المدمر الذى تركته المدرسة فيه.

ومن أوروبا كتب ويندهام لويس مجموعة من الخطابات إلى أمه اتسمت بالصراحة غير العادية. وتلقى هذه الخطابات الضوء على علاقته بأمه وكذلك علاقته بالنساء بوجه عام، ومن هولندا أرسل إلى أمه رسائل مفصلة عن حالته الصحية وأخبرها عن قيامه بالتربيت على نهدى ابنة صاحب البيت الذى يسكن فيه، فضلا عن أنه أرسل إليها غسيله الوسخ كى تنظفه. وكتب إلى أمه إنه كان يصاب بالانزعاج الشديد كلما ترامى إلى سمعه شجار والدى الفتاة حول فكرة تزويج ابنتهما إليه فقد وجد فكرة الزواج من أية فتاة مرعبة فهو يقول بشأنها. «إننى أشعر بالرعب الذى لا معنى له من فكرة الزواج. فهو يشعرنى بالرغبة فى حزم متاعى والذهاب على جناح السرعة إلى القنصلية البريطانية كى تحمينى» وفيما بعد أقام ويندهام لويس علاقة جنسية بامرأة ألمانية تدعى إيدا استمرت لفترة أطول ولكن علاقته بها سارت على نفس النهج. وفى عام ١٩٠٥ كتب إلى أمه خطابًا وصف فيه علاقته الجنسية بهذه السيدة الألمانية قائلاً:

«جاءت لتراني في أحد الأيام. ولدهشتي البالغة التي لا ينطفأ لها ظمأ طلبت مني أن أقبلها. وارتمت بين ذراعي وظلت تُقَبلني بقوة لا تهدأ لمدة ثلاث ساعات. حقًا إن السرور يغمرني.. فهذا يوفر عليَّ المشقة والنفقات... أن تكون مثل هذه المرأة الجميلة للغاية واللطيفة المعشر عشيقتي»، ومن الواضح أن حضور هذه المرأة كان طاغيًا فهي التي تأخذ في علاقتها الجنسية بزمام المبادرة الأمر الذي جعله يحس بالضالة أمامها. ويمضي مؤلفنا في شرح عواطفه التي تتأرجح بين الجذب والنفور نحو هذه المرأة فهو يخشى أن يهلك ويموت نتيجة الإفراط في هذه العلاقة. ثم يعترف لأمه قائلاً: «إنني أتعذب كثيرًا جدًا من كل هذا وأقضي ساعات في يأس عظيم، ولست أرى بادرة أمل في اختفاء هذا الشعور»، ثم بعد مضي بضعة شهور نراه يقول: «لست أهواها بالمرة وأتجنبها قدر ما أستطيع وبطبيعة الحال إن علاقتي بها هي السبب في ضيقي الشديد من وجودها. ولكني حتى إذا قطعت علاقتي بها فسوف تكون لي علاقة بامرأة أخرى».

لقد سبق أن قلنا إن أباه عاش حياة مليئة بالفسق والمجون وها هو ابنه يقلده ويتفوق عليه. ونحن نراه في خطاب لاحق يعتبر نفسه ضحية النساء مثل أبيه المظلوم الذي تلاحقه النساء ولا يتركنه في حاله أبدًا الأمر الذي جعله يشكو من امتلاء العالم بأعداد غفيرة من العاهرات. ويصل اليأس من فكاكه من إسار عشيقته حدًا جعله يطلب من أمه أن تزور إيدا عشيقته كي تطلب منها الابتعاد عنه. وبالفعل استجابت له الأم. وفيما يلي ما كتبه جيفري مايرز في هذا الصدد: «في نوفمبر عام ١٩٠٨ أرسلت أم لويس خمسة جنيهات إنجليزية إلى إيدا التي كانت حاملا منه وتتوقع أن تلد في الشهر التالي. وبعد أن أنجبت طفلها أنكر لويس بنوته وترك إيدا ليسافر عائدًا إلى إنجلترا. وهو نفس النهج الذي سلكه فيما بعد عند ولادة أبنائه الخمسة غير الشرعيين».

كان الجنس محور حياة برنارد لويس يتعاطاه بإفراط المدمن له وينعكس هذا على إنتاجه الأدبي. كان دائم الحاجة إلى امرأة «تحلبه» - على حد قوله - مثلما تحلب البقرة الحلوب ولا يستريح أو يهدأ له بال إلا بعد أن يفرغ شهوته، وانتهت عربدته بإصابته بمرض الزهري الذي أضر بصحته ثم كان في النهاية السبب غير

المباشر فى القضاء على حياته، كان يضاجع زوجات بعض أصدقائه إلى جانب مضاجعة عشيقاته اللاتى لا يكف عن وصفهن فى خطاباته بالفروج و«إناث الكلاب المقززة» ويروى أحد أصدقائه واسمه هيو بورتيوس أنه كان يخطف منه عشيقاته اليهوديات ثم يُعَبّر عن كراهيته لهن.

كانت كراهية النساء سمته البارزة والجلية لكل من عرفه أو اقترب منه غير أنه استثنى زوجته من هذه الكراهية. وهى كراهية امتدت إلى إنتاجه الأدبى. واذا كانت ممارسة الجنس تشده إليها بقدر ما تقززه منها فإنه لم يحمل لعملية إنجاب الأطفال غير التقزز يقول ويندهام لويس: «إن المعاشرة الجنسية وإنجاب الأطفال يؤكدان التناقض البشع بين العقل والجسد». والأرجح أن رغبته العارمة فى العودة إلى رحم أمه هى نتيجة تقززه من الجنس والإنجاب به معًا. وإذا كان والده هجره وهجر أمه من أجل عشيقاته فإن مسلك ويندهام لويس أضل سبيلاً لأن هجراة لأبنائه الخمسة غير الشرعيين كان كاملا. وبمجرد أن حملت منه أية من عشيقاته وولدت له طفلا بادر بهجرانها ولاذ بالفرار منها ولا يراها أو يحاول الاتصال بها.

وبعد عودته إلى إنجلترا عام ١٩٠٨ أظهر نشاطًا أدبيًا وفنيًا ملحوظًا وأصبح نجمًا من نجوم ما يعرف بالفن الطليعي. كما أنه أسس جمعية أدبية أطلق عليها بالاشتراك مع معلمه وصديقه إزرا باوند اسم «الدوامة الفكرية»، Vortex أصدرت عددين من مجلة «انفجار» Blast في عامى ١٩١٤ و ١٩١٥ كما ألّف أولى رواياته بعنوان «التــار» Tarr عام ١٩١٨. وفى تلك الفترة من حياته تأثر بدعوة ف. ت. مارتينى عام ١٩١٠. إلى الحركة المستقبلية التى راقت له بسبب تجنيدها للعنف واحتقار النساء غير أنه قطع صلته بمارتينى عام ١٩١٤ مثلما قطع علاقته بعدد من معلميه أمثال أوغسطوس جون Augustus John ووالتر سيكرت Walter Sickert وروجرفراى Ragar Fry وستورجيس مور Sturgis Moore وإزرا باوند و ت. س. إليوت وغيرهم كثيرين؛

وبسبب نرجسيته تجمدت مشاعره نحو الآخرين. يقول الناقد جوليان سيمونز Julian Symons فى هذا الشأن: «كان يرى الناس رجالاً ونساء كآلات تسير على الأرض وقد ركّبت لهم آذان وأنوف وأيد على نحو غريب كما يرى نشاطهم فى الكلام والأكل إلى التبرز والمعاشرة الجنسية غريباً مضحكًا».

كان يحس أن جميع المحيطين به يخونونه وأن أباه خانه وسرق منه بنوته ثم مات ليتركه فى فقر مدقع. وفى عام ١٩٢٠ ماتت أمه فكانت فجيعته فيها كبيرة وخرج عن تحجره العاطفى المألوف وعبّر عن حزنه الصادق. وقبل وفاة أمه بشهور قلائل قابل فتاة عاملة فى الثامنة عشرة من عمرها فاتخذها عشيقته وموديل للرسم ثم تزوجها حتى يسهل لها إجراءات استخدام جواز سفرها إلى ألمانيا. وعلى أية حال لم يمنعه هذا الزواج من مضاجعة عدد كبير من السيدات المتعلمات. وقبلت «أنا» زوجته هذا الوضع كما قبلت أن تتوارى عن الأنظار بناء على رغبته لدرجة أن ضيوفه وزواره لمدة ثلاثين عامًا لم يكتشفوا وجودها معه فى نفس البيت، وفى عام ١٩٣٩ صحبته هذه الزوجة إلى منفاه الذى فرضه على نفسه فى كندا حيث عاشا لمدة ستة أعوام. وبعد عودته من منفاه إلى إنجلترا أصيب بالعمى الأمر الذى اضطره إلى الاستعانة بها فى تمريضه وفى روحاته وغدواته أمام الناس. وظلت هذه الزوجة وفية له وانفطر قلبها على وفاته ولم تشكُ منه مطلقًا فى حياته أو بعد وفاته. وتختلف علاقته بزوجته عن علاقته بعشيقاته. ففى حين كانت الكثيرات من عشيقاته يسيطرن عليه ويبتلعنه فى جوفهن سمحت له هذه الزوجة الصغيرة فى السن بالسيطرة الكاملة عليها مما جعل البعض يصفها بالماسوكية.

كان لويس يلفظ العظماء من أصدقائه والمتعاطفين معه بنفس الطريقة التى يلفظ بها عشيقاته. وكان جفاؤه يظهر بصورة أوضح مع الناس الذين يقدمون العون المالى له. ويسعى جيفرى مايرز إلى التماس العذر له فيرد معاملته الشاذة للناس إلى حياة الشظف والإملاق التى كابدها. كما أنه فسّر تنقله الدائم من مسكن إلى آخر وإخفاء عناوين مساكنه وأرقام تليفوناته برغبته فى تحاشى ملاحقة الدائنين له. وكان نشر كتاباته يسبب الخسارة المالية لناشريه. وقد كان بإمكانه أن يكسب قوته من رسم البورتريهات ولكنه كان ينفر زبائنه بسوء معاملتهم فضلا عن أنه كان يتفق معهم على أجر ثم ما يلبث أن يطالبهم بأكثر منه.

باختصار كان مسلكه ينفر الناس منه ويستعديهم عليه على نحو ما فعل مع جماعة البلوفربرى فقد ظل لا يكف من مهاجمتها طيلة حياته بسبب حالهم الميسور وممارستهم للشذوذ الجنسى. وميلهم إلى التخنث وبسبب آرائهم اليسارية ودعوتهم

إلى السلام. ونحن نطالع هجومه القاذع على جماعة البلوفربرى فى رواية «الانفجار والتفجير».

وفى عام ١٩١٦ التحق مؤلفنا بالجيش غير أنه كثيرًا ما تلقى العلاج فى المستشفيات بسبب إصابته بالأمراض التناسلية. وفى مايو عام ١٩١٧ أرُسِل إلى جهة القتال حيث بقى فيها حتى أكتوبر ١٩١٧ وهو عام تعينُّيه فى الجيش كرسام حربى، ويبدو أن تجربة الحرب لم تهز فيه خلجة، فهو يقول فى رواية: «انفجار» «إن موقفى من الحرب لا يبعث على الرضا.. فأنا لم أعان من أى وخز للضمير أو أى امتحان للروح أو بالألم المحض مثلما نجد كتابات كثير من المؤلفين الذين ظهرت كتبهم فى الأسواق فى نفس الوقت منذ ما يقرب من عشرة أعوام مضت.

والجدير بالذكر أن كراهيته للنساء اللاتى يضاجعهن أكثر اتساقًا وقوة من كراهيته للسامية، ومما يدل على أنها لم تكن كراهية طاغية إنه اتخذ من بعض اليهود أصدقاء ومن بعض اليهوديات عشيقات. فضلا عن أن كثيرا من مشجعيه وأولياء نعمته كانوا من اليهود صحيح أنه قلب لهم ظهر المجن فيما بعد ولكن نبذه لهم لم يكن راجعًا إلى يهوديتهم حيث إنه فعل نفس الشىء مع أصدقائه وأولياء نعمته من الإنجليز بنى جلدته أو من الجنسيات الأخرى. وصحيح أنه هاجم اليهود فى خطاباته. ولكن هذا الهجوم لم يصل إلى حد زراية فيرجينيا وولف لبعض اليهود من أقربائها. كما أن هجومه على اليهود لم يكن ذلك الهجوم المسموم الذى شنه عليهم إيفلين فوه. وظل يحتفظ بصداقته مع اليهود حتى فى الفترة من ١٩٢٦ إلى ١٩٣٨ وهى الفترة التى شاهدت أقسى هجوم من جانبه على بنى إسرائيل. ومع ذلك يمكن القول إن كتاباته فى عقد الثلاثينيات تصل إلى حد الدعاية الفاشية ضد اليهود مما يذكرنا بموقف الشاعر إزرا باوند المعروف بعداوته للسامية.

ولعله من المفيد أن أذكر فى هذا الصدد شيئًا فى عداوة إزرا باوند لليهود التى ظهرت فى كتاباته منذ البداية فهو لم يحاول إخفاءها أو حتى مجرد تجميلها ولا غرو فقد كان جامحًا فى عواطفه متأججًا فى انفعالاته. ويقال إن باوند اعترض على غلبة الأقلام اليهودية التى تحرر مجلة Dial وبعد عودة إزرا باوند من أمريكا عام ١٩٣٩ ذكرت بعض الصحف والمجلات أنه عند زيارته لجامعة هارفارد لإلقاء بعض

قصائده لاحظ وجود عدد كبير من اليهود بين الحاضرين فغير برنامجه الشعرى الذى أعده من قبل وألقى بدلاً منه عدداً أكبر من القصائد المعادية لليهود، وعندما زار مدينة نيويورك الجديدة رفض دخول مكتبة لبيع الكتب تملكها معجبة يهودية به اسمها فرانسيس ستيلوف. فضلا عن امتناعه عن مساعدة اليهود الواقعين تحت نير الاضطهاد. ولم تقتصر عداوة باوند للسامية على أشعاره بل امتدت إلى أحاديثه الإذاعية التى بثها من إيطاليا الفاشية التى عضدها وانضم إلى صفوفها ضد إنجلترا وطنه. استخدم باوند لغة العنف فى الهجوم على اليهود فضلا عن أن أشعاره تقطر بكراهيتهم على نحو يفوق أحاديثه الإذاعية. غير أن عداوته للسامية افتقرت إلى الاتساق والنظام. ويجدر بالذكر أنه حاول كثيراً التنصل منها فقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية وصف التحيز العرقى بأنه شئ معيب ومحاولة للفت النظر حتى يبتعد المرء عن الحقيقة كما أنه وصف هذا التحيز العرقى بأنه الأداة التى يلجأ إليها الإنسان المهزوم فكريا كما يلجأ إليها السياسى الرخيص . وأكد باوند أن اتهامه بالفاشية ومعاداة السامية اتهام ليس له أساس من الصحة. وفى معرض الدفاع عن نفسه ضد تهمة معاداة السامية يقول إنه لم يفعل أكثر من إطلاق النكات على اليهود يذكر باوند فى هذا الشأن: «كنت أطلق النكات على اليهود. ومنذ خمسين عاماً كنا نطلق النكات على الإسكتلنديين والإيرلنديين واليهود وكنا نسمع أحلى الطرف والملح عن اليهود، من أفواه اليهود أنفسهم. ويتحدى باوند أى إنسان أن يثبت أنه أساء معاملته بسبب العرق أو الدين أو اللون. يقول باوند فى معرض دحض الاتهام الموجه ضده بأنه معاد لليهود: ـ «أنا متهم بمعاداة السامية. ولو كان هذا صحيحاً فلماذا أحترم الفيلسوف سبينوزا وأبجل موتانى ككاتب لماذا أحاول تأكيد شهرة ألكسندر ديل جار الذى اعتقد أنه كان يهودياً ولكن باوند فى حياته اللاحقة اعترف بأنه أظهر نوعا من العداوة لليهود فقد قال للكاتب الأمريكى ألن جسبرج: «إن أسوأ خطأ ارتكبته هو أننى اتخذت موقفاً سخيفاً معادياً للسامية يتسم بالتحيز الخليق بسكان الأرياف. وفى السنوات القليلة التى سبقت رحيله عن الدنيا اعترف بأنه «ارتكب خطأ كبيراً وفاحشاً» وأن شكه فى أحكامه وشعوره بالجهل المطبق جاء متأخراً وبعد فوات الأوان. ولهذا فإن النقاد قد يختلفون حول

عداوته لليهود في سنوات عمره الأخيرة ولكن لا ريب أن كتاباته وأشعاره الباكرة المعروفة بـ «الكانتوس» cantos تنضح بكراهية اليهود.

نعود إلى ويندهام لويس – الذى كان تلميذًا لإزرا باوند ـ فنقول إنه في عام ١٩١٦ تطوع في سلاح المدفعية الملكى كي «يدافع عن الحضارة ضد البربرية الألمانية. ولكنه عندما خاض غمار الحرب بالفعل وصل إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد فرق بينه وبين المجند الألمانى فكلاهما أداة في أيدى الآخرين. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ يعتبر نفسه واحدًا من الألمان كما امتدح العدو الألمانى لأنه يفيض بالذكورة ويكابد نفس الإحساس بالغربة الذى يكابده، والغريب أنه كان يفكر في تأليف ثمانية أو عشرة كتب في وقت واحد الأمر الذى جعل ت.س. إليوت ينصحه دون جدوى بالتركيز على تأليف كتاب واحد وليس عدة كتب كما كان يفعل.

ويكشف كتابه «فن الخضوع للحكم» عن اهتمامه البالغ بأدولف هتلر. وفي عام ١٩٣٠ كلفته مجلة نسائية أسبوعية تسمى «الوقت والمد والجزر» Time and Tide – دون أن تدرى عواقب ذلك ـ بكتابة سلسلة مقالات عن هتلر ودفعت نفقات أولى سفرياته الكثيرة إلى ألمانيا خلال السبع سنوات التالية، وفي برلين راق له هتلر ووجد نفسه مشدودًا إليه وإلى حركته النازية. ودفعه هذا الإعجاب الشديد بهتلر إلى جمع مقالاته عنه في كتاب بعنوان «هتلر» دون أن يعنى بقراءة كتابه المعروف «كفاحى» رغم توافر ترجمته الإنجليزية في الأسواق. نشر لويس «هتلر» في انجلترا عام ١٩٣٠ وتمت ترجمته إلى الألمانية ونشر هذه الترجمة في عام ١٩٣٢. في هذا الكتاب باتهامه لنا لفاشية وعداوة الفاشية وعلى أية حال فإن هجومه على اليهود لم يأت من فراغ فقد سبق كما رأينا أن هاجم عدد من الكتاب اليهود عام ١٩٢٦ في كتابه «فن الخضوع للحكم» أمثال جرترود شتاين ومارسيل بروست وكارل ماركس. وأيضًا نراه في الكتاب الذى نشره عام ١٩٢٩ بعنوان «باليقاس» يدافع عن الجنس الأبيض ويحط من شأن اليهود الذين وصفهم بأنهم شعب زبالة أو شعب بالوعات على حد تعبيره. وفي عام ١٩٣١ أرسل خطابا إلى مجلة «الوقت والمد والجزر» قارن فيه بين برلين وحى في لندن يسكنه اليهود يعرف باسم جولدرز جرين ساخرًا من مراسل المجلة الذى كتب عن الاضطهاد النازى لليهود والذى آثر الاستماع إلى أنات

المضروبين بالهراوات وهى دائماً أنات تصدر فى رأيه عن الشيوعيين. ولم يكن إعجابه قاصراً على هتلر بل امتد إلى موسولينى أيضاً. ففى عام ١٩٢٢ دعته عشيقته نانسى كونراد إلى زيارة إيطاليا حيث عبّر عن إعجابه بموسولينى. وذهب لويس إلى أن هتلر وموسولينى سوف ينقذان الفن والفنانين من براثن الدهماء. وصاحب تمجيده للفاشية والنازية تعبيره عن مقته الشديد للشذوذ الجنسى.

وإذا كانت كتاباته الباكرة لا تكشف بوضوح عن مقته للسامية فإن كتاباته السياسية فى الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٨ تدل على ذلك. وهذه الكتابات هى:«مصير الشباب المحتوم» (١٩٣٢) «أجنحة يسارية ترفرف على أوروبا» (١٩٣٦) و«أحصوا عدد موتاكم فهم لا يزالون أحياء» (١٩٣٧) إلى جانب روايته «قردة الله» (١٩٣٠). وقد شهدت هذه الفترة علاقته الوثيقة بأزوالد موسلى زعيم الحركة الفاشية فى بريطانيا ورئيس الاتحاد البريطانى للفاشست. وقد ظل هذا التنظيم الفاشستى قائماً فى بريطانيا حتى عام ١٩٣٨. كان لويس عام ١٩٣٧ فى بعض الصحف النازية الألمانية يكيل المديح لموسلى واصفاً إياه بامتلاك بصيرة سياسية ثاقبة وخصال وشيم الزعماء. فضلاً عن أن كتابه «احصوا عدد موتاكم» مفعم بالإشارات الكثيرة إلى ممارسات القمع التى اتبعتها بريطانيا مع موسلى. وفى نفس عام ١٩٣٧ نشر لويس مقالاً بعنوان «الأجنحة اليسارية» جهر فيه بالدفاع عن الفاشية مردداً اتهام إزرا باوند وآخرين لليهود بأنهم يسيطرون على دوائر المال فى جميع أنحاء العالم.

غير أن إعجابه بكل من هتلر وموسولينى لم يدم فقد نبذه كعهده دائماً، تماماً مثلما تنكر لعشيقاته وأصحاب الفضل عليه، ويتضمن كتابه «اليهود هل هم آدميون؟» «الصادر فى مارس ١٩٣٩ هذا التغير الجذرى فى موقفه منهما. يقول جيفرى مايرز فى هذا الشأن إنه سرعان ما غيّر رأيه واقتنع بفساد الفاشية وعض بنان الندم على سابق تأييده لها. ولكن البعض عزا التغير الجذرى فى مواقفه السياسية إلى انتهازيته ورغبته فى تجنب سخط الناس عليه.

وبعد صدور كتابه المادح لهتلر والمقرظ له أزور عامة القراء الإنجليز عنه وكفوا عن مطالعة كتبه. ولتأكيد نبذه لهتلر نشر لويس عام ١٩٣٩ صياغة جديدة لكتابه السابق عن هتلر بعنوان «مبدأ عبادة هتلر» The Hitler Cult.

نعود فنكرر أن لويس أنكر عداوته للسامية وساءه أن يعتبره الآخرون عدواً للسامية، فهو يقول فى كتابه «اليهود: هل هم آدميون؟» إنه صديق لهم وإذا كان لويس تسامح مع اليهود أحياناً فإنه لم يتنازل قيد أنملة عن عداوته لشواذ الجنس والاشتراكيين والشيوعيين ودعاة تحرير المرأة. ولهذا فإن كراهيته لليهود مخففة وملطفة للغاية بالمقارنة بكراهيته المشبوبة للنساء وشواذ الجنس. والذى يدل على أن عداوته لليهود لم تكن غائرة أو متأصلة فيه أن الكتب التى ألّفها بعد عودته من الولايات المتحدة وكندا عام ١٩٤٥ اتخلو من أية إشارات مشينة لهم.

وفى أخُريات أيامه أُصيب بورم فى الدماغ كان السبب فى فقده البصر فقداناً كاملاً عام ١٩٥٦. وفى عام ١٩٥٧ فاضت روحه نتيجة إصابته بفشل كلوى نجم عن المضاعفات المترتبة على إصابته بمرض الزهرى وظلت «أن» زوجته إلى جواره وفيئه له حتى آخر العمر.

كان صدر ويندهام لويس يختلج بالعواطف الجياشة التى تخرج من يراعه كالحمم البركانية. وفى كتاباته لم تكن هناك خطوط فاصلة تفصل بين الأجناس الأدبية المختلفة التى أنتجها لدرجة أن بعضها مثل «فن الخضوع للحكم» و«باليفاس» بدءا أشبه بالقصص والروايات. ثم تحولا إلى مجموعة من المقالات وهذا واضح فى إنتاجه الأدبى فى الفترة من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٧ وهو إنتاج ردد فيه مقولة أرسطو أن بعض الناس خلقوا كى يكونوا حكامًا في حين أن معظم الناس خلقوا كي يكونوا محكومين. ويمتدح لويس فى هذا الكتاب فاشية موسولينى ويبرز سخافات النظام الديمقراطى. يقول جوليان سيمونز أن كتابى لويس «فن الخضوع للحكم» و «باليفاس» يعالجان السوس الذى ينخر فى عظام الحضارة الغربية والمتمثل فى انتشار الأفكار الخاصة بتحرير المرأة وممارسة الشذوذ الجنسى، الأمر الذى يهدد بتسف الحياة العائلية. وفى كتاب «باليفاس» يهاجم لويس فلسفة د. هـ لورانس فى الجنس فضلا عن أنه يفسر لنا السر فى انجذابه نحو المبادئ النازية. فالرجل الأبيض فى رأيه يجب أن يحتفظ بنقاوة دمه ولا يحاول الاختلاط بالأجناس غير البيضاء لأن هذه الأجناس تحرص على ابتلاعه فى جوفها. ولعل الروائية ربيكاويست من بين القلائل الذين لفتوا النظر إلى دعوة لويس الصريحة إلى العنصرية والعرقية.

والآن ننتقل إلى مناقشة المؤلفات التى تناول فيها لويس اليهود فنبدأ بكتابه «هتلر» المنشور عام ١٩٣١ فنقول إنه يتضمن دعاية تماثل الدعاية النازية ضد السامية. والغريب أن الملحق الأدبى لصحيفة التايمز امتدح الكتاب وأثنى على موقف المؤلف العدائى من اليهود. وقد جاء فى هذا الملحق:

«إن المستر لويس يقف على أرض أكثر صلابة.. حيث يشرح طبيعة العداوة للسامية التى اتبعها هتلر، وهو بذلك يذكر جمهور البريطانيين أن ما درج الكتاب على تسميته «اليهودى القمىء» الذى يرسم الكاريكاتور الإنجليزى صورته ليس سوى حقيقة تكاد أن تكون مؤكدة فى وسط أوروبا. إن اليهود يسيطرون على الحياة الألمانية ومن ثم فمن المنطقى أن يرغب هتلر فى إبعادهم».

ولعل هذا يدل على أن الشعب الإنجليزى عام ١٩٣٠ لم يجد أية غضاضة فى أن يتعرض اليهود للانتقاد وأن الذى ينفر بعض الإنجليز من مؤلفنا ليس هجومه على اليهود بل افتقاره الواضح للروح الوطنية.

وينطوى كتابه الانفجار (١٩١٤) وكذلك قصته «رفيق الربيع» (١٩١٧) على قدر معتدل من احتقار السامية لا يصل بحال من الأحوال إلى حد الهوس الذى نجده عند بعض الكُتَّاب الآخرين ومما يدعو للغرابة أن هجوم لويس على بنى إسرائيل اقتصر على ذكورهم ولم يمتد قط إلى الإناث، ويقدم مؤلفنا فى الجزء الأول من كتابه عن هتلر وصفًا لبرلين مدينة اليهود على حد تعبيره التى تعج «بالعاهرات والزنوج والشواذ واليهود». ويعبر لويس عن سروره العظيم وهو يحصى منشآت وتنظيمات شواذ الجنس المنتشرين فى طول برلين وعرضها والبالغ عددها مائة وستين تنظيمًا حسب تقديره، ويبدو أنه كان يجد نفسه مشدودًا إلى الممارسات الشاذة الداعرة حيثما وجدت. غير أن هذه الممارسات أثارت فى نفس الوقت اشمئزازه ومن ثم سخطه الشديد على الشذوذ الجنسى وانضمامه إلى صفوف الشباب النازى الذى مثل فى نظره الذكورة الصحية. أصيب لويس بالتقزز من الشذوذ الجنسى الذى ساد ربوع برلين فى حين أن هذه المدينة العاهرة آنذاك استهوت عددًا من الأدباء الإنجليز اليساريين الشواذ جنسيًا مثل أودين وإيشروود وأودين، ويبرر لويس عداوة هتلر للسامية بأنها نوع من الدفاع عن النفس ضد مظاهر التخنث التى

يمثلها اليهود وإلى جانب ذلك عبر مؤلفنا عن مقته لموسيقى الجاز ونحن نراه يمتدح النازى المعروف جويلز ويوافقه فى الرأى القائل إن اليهود يسيطرون على موسيقى الجاز التى يبرع الزنوج فيها، ويستطرد لويس قائلا: «إن اليهودى الألمانى مخنث أيضًا ويثير النفور الشديد منه من عدة نواح واليهودى فى نظره لا يمثل التخنث فحسب بل يمثل الأجنبى الغريب عن البلاد فضلا عن اتهامه لهم باحتكار رأس المال وبالترويج للشيوعية أيضًا والربط بين هتلر والفحولة ليس بالأمر الجديد. ففى عام ١٩٣٨ وصفت فيرجينيا وولف هتلر بأنه يجسد جوهر الفحولة وبأنه نموذج كامل للرجولة.

وفى الكتاب الذى أصدره لويس عام ١٩٣٢ «مصير الشباب المحتوم» نراه يواصل تأكيده على ضرورة خطر امتزاج دماء الأوروبيين البيض بدماء غير البيض مثل اليهود والهنود لاعتقاده الراسخ بأن غير البيض سوف يبتلعون الأوروبيين فى أجوافهم. وحتى يثبت صحة نظريته الخاصة أنوثة اليهودى يدلل على ذلك بأن عالم الرياضيات اليهودى المعروف ألبرت أينشتين كان يعتمد على زوجته تمامًا كما يعتمد الطفل على أمه. ويردد لويس هجومه المعتاد على اليهود فى كتابيه «أجنحة اليسار ترفرف على أوروبا» (١٩٣٦) و «أحصوا عدد موتاكم فإنهم لا يزالون أحياء» (١٩٣٧) وينحى عليهم باللائمة لأنهم يتحكمون فى اقتصاد العالم. ويركز كتابه «أجنحة اليسار ترفرف على أوروبا» على المؤامرات التى يحيكها الماركسيون واليهود وبوجه خاص على الدور البارز الذى يلعبه اليهود فى تدمير أوروبا. فكلمة اليهودى فى نظره هى المرادف للربا والتآمر الدولى والجماعات السرية. ومن ثم كان من الطبيعى أن يناصب لويس العداء للصهيونية.

وبظهور كتاب «أجنحة اليسار ترفرف على أوروبا» عام ١٩٣٧ بدأ التغيير واضحًا فى موقف الملحق الأوروبى لجريدة التايمز المادح له حيث إنها بدأت تعيب عليه إيمانه بمبادئ النازية وتمجيده لهتلر. ومع ذلك فإن محرر هذا الملحق عاد إلى تبرئته من تهمة معاداة السامية. وكتب ل. م. هورتون Horton فى مجلة «لندن ميركيورى» London Mercury يقول إنه على الرغم من اقتناعه بمحاجات ويندهام لويس بوجه عام فإنه يخطئ حين يتجاهل اضطهاد ألمانيا النازية لليهود وقمعها

للحريات، وكان ا. هـ. كار Carr المحرر فى صحيفة الأسيكاتور أول من اتهم لويس بعداوة السامية إلى جانب اتهامه بالعنصرية. حتى جيفرى مايرز صديقه والراوى لسيرة حياته اتهم كتابه "أجنحة اليسار ترفرف على أوروبا» بمعاداة الديمقراطية والشيوعية والسامية. ويرى جيفرى مايزر أن كتاب «أحصوا عدد موتاكم» يتضمن عداوة للسامية تفوق العداوة التى أن عبّر عنها فى كتابه «أجنحة اليسار ترفرف على أوروبا» والناجم عن اضطرابه النفسى وإحساسه بعقدة الاضطهاد. والجدير بالذكر أن لويس أنكر معاداته للسامية قائلا: «شعرت فى أغلب الأحيان بالعطف على اليهود». ونحن نراه فى هذا الكتاب الأخير يسخر من بنى جلدته الإنجليز لأنهم يريدون الإجهاز على هتلر بسبب تكميمه للصحافة ولأنه حكم على البلاشفة بالموت ومنع اليهود من إكتناز المال. وهى بشاعات فى نظر الإنجليز. ولعلنا نكرر أن كتابه «أحصوا عدد موتاكم» يتضمن قدرًا أعظم من كراهية اليهود بالمقارنة بكتبه السابقة».

والجدير بالذكر أن كتابيه المنشورين عام ١٩٣٩ بعنوان «اليهود هل هم آدميون» و«مبدأ عبادة هتلر» أثارا سخط اليسار الإنجليزى عليه مطالبًا بمقاطعة كتبه والامتناع عن قراءتها. ولكن الكُتّاب اليمينيين أمثال إزرا باوند وت. س. إليوت امتدحا هذين الكتابين ونفيا عنه تهمة الفاشية. ووصف اليوت صاحبهما بأنه أحد العباقرة القلائل فى جيله. وفيما بعد اضطلعت دار نشر بلاك سبارو بإعادة نشر أربعة من كتبه عام ١٩٩٠ من بينها«تار» Tarr و«فن الخضوع للحكم» ومن ناحيته أراد لويس الدفاع عن نفسه فنشر «اليهود هل هم آدميون؟» و «مبدأ عبادة هتلر» بعد أن راجع أفكاره وأعاد صياغتها. ورغم أنه أراد من وراء إعادة نشر الكتابين نفى تهمة معاداة السامية عن نفسه فإنهما يتضمنان وصفه لهم بالتخنث والطفيلية وأيضًا الماسوكية التى تدفعهم إلى المبالغة والتضخيم لما يلحق بهم من أذى. كما أنه يحدثنا عن الرائحة النتنة التى تنبعث من أجساد اليهود الفقراء وعن سوء سلوكهم. ولكن لويس يبرز فى نفس الوقت مزايا شعب بنى إسرائيل فيقول إنهم أذكياء ويبالغون فى التودد للناس لكسب صداقتهم. فضلاً عن أنهم بطريقة ما ودائمًا يحتلون مكان الصدارة. ومعنى أن كتابه «هل اليهود آدميون» رغم امتداحه لليهود لا

يخلو من ذم لهم ولعل هذا هو السبب فى قول بعض النقاد إن كتابه المذكور المراد به الدفاع عن السامية يتضمن عداء لها.

ويعتبر كتابه «تخصيص وقح» المنشور عام ١٩٥٠ محاولة أخيرة من جانبه لتبرئة نفسه من تهمة العنصرية وموالاة الفاشية ومعاداة السامية. ومن المفيد أن نؤكد أن دائرة اهتمام ويندهام لويس تغيرت عام ١٩٥٠ فقبل ذلك كان اليهود يثيرون اهتمامه ولكنه تجاهلهم بعد ١٩٥٠ للتركيز على كراهيته للنساء وشواذ الجنس.

كان ويندهام يزمع نشر قصته «رفيق الربيع» عام ١٩١٧ فى مجلة «ليتل ريفيو» ولكن الرقابة الإنجليزية حظرت صدور هذه المجلة بسبب ما فى هذه القصة من بذاءة وتدور القصة حول النهم الجنسى الذى يجتاح الحيوانات فى فصل الربيع وبطش الحيوانات الأقوى للحيوانات الأضعف ويتناول لويس الموضوع الأثير إلى قلبه أبدًا وهو أنه لا مناص من إطفاء لهيب شهوة الجنس بالممارسة الجنسية. ولكنه يرى أن هذا لابد أن يتم فى حذر حتى لا يصبح المرء لقمة سائغة فى فم الطرف الاخر الشريك فى الممارسة الجنسية.

وأيضًا يشير المؤلف بأصابع الاتهام إلى اليهود معتبرًا إياهم المسئولين عن إشعال نيران الحروب. ويذهب لويس إلى أن الأنثى عدو الذكر فهى تنتهز فرصة احتياج الذكر لمعاشرتها كى تحكم السيطرة عليه وتبتلعه فى جوفها. ويعلى لويس من شأن الرجل الذى يستطيع الاحتفاظ بذكورته أى الرجل الذى يضاجع المرأة ويطفئ ظمأه وظمأها دون أن يفقد استقلاله حيث إن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عبارة عن حرب ضروس بين الأنثى والذكر والويل كل الويل للرجل الذى يسمح للمرأة بابتلاعه.

وتتناول رواية «تار» علاقة المؤلف بعشيقته الألمانية إيدا التى سبق أن ذكرناها. صادفت رواية «تار» حظًا أوفر من الكثير من أعماله. فقد أوصى إزرا باوند دار نشر هاربيت ويفر بنشرها وعند ظهورها استقبلها الشاعر ت. س. إليوت بحماس بالغ وأثنى عليها ثناء عاطرًا على صفحات مجلة «النشن» Nation فقد وصف مؤلفها بأنه أروع شخصية فى زمانه وبأنها تمثل الأفكار الحديثة وحيوية الرجل

البدائى الذى يعيش فى الكهوف. كما أن إزرا باوند امتدحها على صفحات «اللتيل ريفيو» واصفًا إياها بأنها أقوى رواية إنجليزية فى زماننا تقذف بالحمم البركانية فى جوفها. وشبه باوند ويندهام لويس بالروائى المعروف فيودور دوستيوفسكى وأيضًا شبه الروائية ريبكاويست بهذا الكاتب الروسى. ورغم كل هذا المديح فإن مبيعات الرواية لم تزد عن ستمائة نسخة بسبب عسر قراءتها .

وتدور رواية «تار» حول اثنين من الفنانين أحدهما ألمانى والآخر إنجليزى اسمه تار، وتار يشبه بطل قصة «رفيق الربيع» فى قدرته على إطفاء ظمأه الجنسى والاحتفاظ بسيطرته على شريكته. وهو أيضا يشبه المؤلف فى كراهيته للنساء.

وفى عام ١٩٣٠ قام لويس بنشر عمله الضخم «قردة الله» على نفقته الخاصة. ويتضمن هذا الكتاب سخرية لاذعة من عدد من أصحاب الفضل عليه والمناصرين له إلى جانب هجومه على الجامعة الأدبية المعروفة بالبلوفربرى. وصف لويس هذا العمل الضخم بأنه يشبه رواية «يوليسيس» لجيمس جويس. غير أن مجلة النيوستيتمان رفضت نشر التقريظ الذى سطره صديقه ومريده هيو بورتيوس Por-teus الأمر الذى جعله يستشيط غضبًا ويعزو هذا الرفض إلى مؤامرات البلوفربرى ضده. ودفعه الغيظ إلى نشر كتاب صغير عام ١٩٣٠ بعنوان "الهجاء والقصة" Sat-ire and Fiction ضمن هذا التقريظ المرفوض إلى جانب آرائه فى الفن. ويتضمن هذا الكتيب آراء عدد من الكُتّاب فيه. ولكن انتقاءه للمقالات التى يتضمنها الكتيب يدل على حرصه على الظهور أمام الآخرين فى صورة معينة «أى الظهور كرجل تتجسد فيه القسوة والجمود العاطفى والذكاء الذكرى القوى». ومما يثير الاهتمام أن تعلم أن يهودياً يدعى ناعومى ميتشيسون Naomi Mitchinson كتب مقالا عن الرواية يتأرجح بين الإعجاب بالمؤلف والاستهزاء به. ورغم أن هذا اليهودى لم يكن مرتاحًا إلى هجوم لويس على اليهود إلا أن هجوم لويس على شواذ الجنس راقه كثيرًا. فلويس فى كتابه يقول مستنكرًا: «أما بالنسبة لشواذ الجنس فقد كثر عددهم أكثر مما ينبغى كما أنهم يتسمون بالرضا عن النفس، الأمر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى وكما عودنا ويندهام لويس عبر عن كراهيته لليهود والنساء معًا». غير أن

مؤلفنا فى هذا الكتاب يركز معظم اهتمامه على معالجة شواذ الجنس والمخنثين من الرجال إلى جانب تركيزه على كراهية شخوص الرواية اليهودية، وإذا كان الزنجى البدائى آثار سخطه قيراطًا فإن اليهودى المخنث اثار سخطه أربعة وعشرين قيراطًا، فالزنجى على أقل تقدير يتمتع بفحولة الذكور فى حين أن اليهودى المخنث تربطه أبشع الصلات بالشيوعية وبيوت المال والتآمر سرًا للسيطرة على العالم. فضلاً عن أنه يجيد التزلف ويتمسكن حتى يتمكن. وبلغ شك لويس باليهود مبلغًا جعله يسىء الظن بالتحليل النفسى الذى وضع أُسسه عالم النفس الشهير سيجموند فرويد فيقول إن التحليل النفسى ليس سوى حيلة ماكرة ابتدعها اليهود لمعرفة دخائل الناس وأسرارهم.

٢ ـ تشارلز وليامز Charles Williams

كان تشارلز وليامز الشاعر والروائى والمؤلف المسرحى والكاتب اللاهوتى غزير الإنتاج، فقد ألّف ثمانية وثلاثين كتابًا فى شتى الأجناس الأدبية والنقدية منها ست روايات إلى جانب كتاباته الدينية، وهو يشبه ويندهام لويس فى نرجسيته وإحساسه بأهميته وبأنه مركز الكون. وكانت عواطفه الجياشة تتحكم فيه شأنه فى ذلك شأن ويندهام لويس، ويبدو أنه استطاع بعد ذلك أن يحتفظ بتوازنه العقلى فقد كان يحس بالصراعات العنيفة تعتمل فى نفسه وأنه يقترب من حافة الجنون ورغم إيمانه الراسخ بالمذهب الأنجلو ـ كاثوليكى فإنه أولى أساطير الأقدمين بالغ اهتمامه مثل حكاية الملك آرثر والكأس المقدس King Arthur and the Holy grail التى شاعت فى الأدب الإنجليزى فى القرون الوسطى كما أنه أولى ثنائية الفكر نفس القدر من الاهتمام مثل ازدواجية الخير والشر فى الإنسان وضرورة انتصار الخير ومحق الشر ويرى البعض أن وشائج القربى ووجوه الشبه تربط بين تشارلز وليامز وويندهام لويس فيذهبون إلى أن كلا الرجلين يحتاجان بشدة إلى المرأة ولكنهما يعتبرانها مصدر خطر ومتطفلة ومقتحمة، إلى جانب شهوانيتها الكاسحة. ويُقَسِّم وليامز المرأة إلى نوعين: المرأة الشريرة الساعية إلى السيطرة والمحبة للامتلاك والتى ينبغى على الرجل تحطيمها والمرأة الطيبة التى ينبغى عبادتها. ويرى بعض النُقاد أن تشارلز وليامز يجعل من سادية الرجل نحو المرأة طقسًا له قدسيته.

ويحتل اليهود مكانة فى إنتاج تشارلز وليامز الأدبى ولكن اليهود يأتون فى المرتبة الثانية من اهتمامه حيث إن جوهر اهتمامه ينصب على المرأة، وهو مثل ويندهام لويس يهتم بالذكور من اليهود الذين يعتبرهم قتلة السيد المسيح الذين لا تعرف نفوسهم غير الغضب والجشع والرغبة فى الحصول على السلطة، لقد سبق

أن رأينا ويندهام لويس يستند إلى كراهية النساء والإيمان بالعنصرية والفاشية ولكننا نشاهد فى أدب تشارلز ليامز ثنائية وازدواجية فى الإطار الاجتماعى المقبول للمسيحية الإنجليكانية، وتتمثل هذه الثنائية المسيحية فى التعارض بين الخير والشر وبين الطهر والشهوة وبين المسيحية واليهودية وبين الجنة والنار والله وإبليس والجسد والروح، استطاع تشارلز بسبب جاذبيته الطاغية أن يتزعم حركة دينية ويحيط نفسه بالأتباع والمريدين ولكنهم ما لبثوا أن انفضوا من حوله حين تبينوا أنه يخفى وراء قناع المبادئ المسيحية رغبة عارمة فى السيطرة على الآخرين، والجدير بالذكر أن هبلير بيلوك و.. ج. ك. تشسترتون وإزرا باوند و ت. س. إليوت كانوا من أبرز المعجبين به، وتحمس له ت. س. إليوت وناصره مثلما ناصر ويندهام لويس من قبل. حتى الشاعر دابليو.. هـ. أودين شعر بالانجذاب نحو ما أسماه «قدسيته الشخصية». وما زال البعض حتى وقتنا الراهن يجد السلوى والعزاء فى كتاباته الدينية. ولا يقتصر الإعجاب على المعاصرين له المؤمنين بالمسيحية بل يمتد إلى عدد من اليهود الذين لا يمنعهم ذمه لهم من التعلق بإنتاجه الأدبى.

ولكن الصواب يجانبنا إذا ظننا أن جميع اليهود يحملون الحب لأدبه، فهناك من اليهود من يكن له العداء الواضح ويتهمه بالمعاداة الشديدة للسامية مثلما نجد فى الكتاب الذى ألفه إيزاك روزنفيلد Isaac Rosenfield عام ١٩٦٢ بعنوان «عصر القطاعات و Age of Enormity. وأيضًا يشن إدجار زوزنبرج هجومًا عاتيًا على تشارلز ليامز ويصفه بأنه واحد من أسوأ المعادين للسامية فى العصر الحديث، ويتفق الناقد ليسلى فيلدر Leslie Fielder مع هذا الرأى ويصف مؤلفنا ومريديه «بأنهم صبيانيون فى شرهم.»

ولكن الناقد توماس هوارد Howard ينفى عن تشارلز ليامز تهمة كراهية اليهود ويدافع عنه قائلاً: -

«أحيانًا يدعونا ليامز إلى شيء أنه عدو للسامية.. ولكن عداوة السامية أبعد ما تكون عن نواياه... وإذا كان هناك شجار بين ليامز واليهود فإنه ليس شجارًا عرقيًا بل مجرد شجار لاهوتى، إن القراء هنا يُعَبِّرون عن خلقهم بشأن معاداة السامية. ولكن هذا القلق ينبع من الخطأ في فهم نوايا ليامز».

وعلى الرغم من أن الكاتبة نانسى لو باترسون Nancy Low Patterson تؤكد نبل مقصد وليامز فإنها تعبر عن شدة أسفها لكراهيته لليهود.

على حد قول ت. س. إليوت. يعتبر تشارلز وليامز واحدًا من الكُتَّاب القلائل الذين لا يمكن التمييز بين كتاباتهم وحياتهم.

ولد تشارلز وليامز عام ١٨٨٦ فى شمال لندن من أبوين ينتميان إلى الطبقة البرجوازية الصغيرة ويتمسكان بأهداب العقيدة المسيحية تمسكًا شديدًا. ويحرصان على الذهاب كل يوم أحد إلى الكنيسة. ورغم اتسامه فى طفولته بلطف المعشر فإن سورات الغضب العارم كانت تنتابه من وقت لآخر، وطبقًا لشهادة أخواته الثلاثة تفاقم طبعه النارى حين بلغ سن المراهقة، الأمر الذى جعلهن يصفنه بالعصبية. ومنذ طفولته أثار تدينه وطيبة قلبه إعجاب الناس به وبخصاله الحميدة وبدا لهم قديسًا حين شب عن الطوق. ومع ذلك فقد كان يتصرف من وقت إلى آخر بطريقة عدوانية وراغبة فى إخضاع الآخرين لسيطرته. وبوجه خاص ظهرت عدوانيته مع النساء واليهود.

وعندما كان تشارلز فى الثامنة من عمره قامت الشركة التى يعمل بها والده ككاتب بتصفية أعمالها. وساءت صحة والده ونضبت موارده فاضطرت زوجته إلى فتح دكان فى لندن تبيع فيه مستلزمات الرسم، واعتمد الزوج على مورد زوجته فساءت معنوياته أكثر وأكثر وأحس بالاكتئاب ولم يجد غير ابنه تشارلز يسر إليه متاعبه ومكنونات نفسه.. وزاد حال الأب سوءًا أنه فقد إلى حد كبير قدرته على الإبصار. ويعزو البعض عصبية تشارلز إلى تفاقم أحواله العائلية.. ومن دلائل عصبيته أن يده ظلت ترتعش حتى آخر أيامه، كما ظهرت التجاعيد على وجهه.

التحق تشارلز وليامز بجامعة لندن ولكن ضآلة موارده اضطرته إلى قطع دراسته قبل انتهائها، ورغم ذلك فقد حرص على تعليم نفسه بنفسه وعلى مداومة القراءة وحضور المحاضرات فى الكلية العمالية، وتحسنت أحواله قليلاً بعد أن انخرط فى نظم الشعر وفى الكتابة مما لفت نظر بعض الناس إليه فقد أتاح له هذا فرصة إلقاء بعض المحاضرات فى لندن وأكسفورد عن ميلتون وشكسبير ودانتى.

وتم تعيينه كمصحح بروفات فى مطبعة جامعة أكسفورد منذ أن كانت مكاتبها فى لندن. وظل يشغل هذه الوظيفة طيلة حياته.

كان تشارلز نموذجًا يحتذى للموظف المنضبط فى عمله فهو لم يتأخر عن عمله أبدًا أو يأخذ أجازة ولو ليوم واحد. وفى وظيفته كمصحح بروفات تعلم الصبر والأناة والدقة المتناهية. وألف ديوانًا من الشعر لقى نجاحًا محدودًا قامت دار أكسفورد للنشر بنشره. فضلاً عن أنه ألف مسرحيته «أقنعة» أشرف على تقديمها وقام بتمثيلها هو وزملاؤه العاملون فى دار أكسفورد للنشر.

وفى الثالثة والعشرين من عمره قابل فلورانس كونواى فى حفلة أقامتها مدارس الأحد وأهدى إليها الديوان الذى نظمه عام ١٩١٢ بعنوان «سلالم الفضة» The Silver Stair. والغريب فى الأمر أن هذا الديوان لم يتناول الحب بل تحدث عن نبذ الحب والسعى إلى حب جميل ليس له وجود فى هذا العالم. وتقدم وليامز إلى خطبتها التى استمرت تسعة أعوام بكاملها، وكان فى فترة خطوبته يذكر لخطيبته أن أحد الناس قرأ طالعه وتنبأ بأنه سوف يعيش ويموت أعزب. وألحت عليه هذه النبوءة ولم تبارح مخيلته. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى رفض الجيش تجنيده بسبب ضعف بصره الشديد. وفى هذه الحرب استشهد عدد من أصدقائه فشعر بالأسى العميق يغمره وأحس بعقدة الذنب لأنه لم يتمكن من أن يفتديهم بحياته، وتسببت أزمته النفسية فى تأخير زواجه من فلورانس. ومما يدل على أن حالته العصبية لم تكن على ما يرام شدة هوسه بغسل يديه، فضلاً عن ترديده بينه وبين نفسه أرقامًا وعبارات معينة، وفى فترة خطوبته توفر على دراسة كتاب عالِم دينى مسيحى يدعى أ. إ . وايت A. E. Waite اشتهر بدراسة الجوانب الغامضة والصوفية فى الحياة. وفى عام ١٩١٧ وبعد إتمام زواجه بشهور قلائل التحق بالجماعة التى أسسها أ. إ. وايت التى غيّر مؤسسها اسمها من «تنظيم الرهبانية للفجر الذهبى» إلى «جماعة الصليب الوردى».. وهى جماعة سرية تقوم بدراسة الماسونية والتصوف اليهودى والمسيحى والسحر الأسود، الأمر الذى جعل شانئيه يتشككون فى تمسكه بالعقيدة المسيحية. غير أن أنصاره يرون أنه ظل وفيًا حتى النهاية للكنيسة الإنجليكانية وأن انضمامه لهذه الجماعة لا تعنى مروقه الدينى.

وترك انضمامه إلى هذه الجماعة أثرًا عميقًا فيه. يقول كافاليرو Cavaliero فـي هذا الصدد إنه «استغرق لأكثر من عشرة أعوام في دراسة جوانب الحياة الصوفية الغامضة... واستمر في السحر والكيمياء (التى تبحث فى تحول المعادن غير النفيسة إلى ذهب) أسلوبه في تفسير القوانين الروحية التى تحكم هذا العالم. ويبدو أن البحث في أسرار الكون وغوامضه ألهب خياله وعقله الجامح وجعله يعيش في جو قوطي استعذبه وراق له، ويبدو أيضًا أن التصوف اليهودى الذى تأثرت به جمعية وايت السرية تضمن طقوسًا خاصة بنطق بعض الألفاظ والأرقام التى لها مدلولات سحرية. والجدير بالذكر أن الممارسات السرية الغامضة التى انخرط فيها تشارلز والتى أوردها في رواياته مرتبطة بإحساسه بالذنب حول المعاشرات الجنسية.

وفى عام ١٩٣٢ ألّف وليامز رواية بعنوان «ظلال النشوة» Shadows of Ecstasy عبّر فيها عن شديد إعجابه بالجانب الصوفى الخاص بغموض الحياة والكون. غير أنه في أواخر أيامه تغير موقفه إلى إدانة للسحر الأسود الذى كان قد تبحّر فيه كما أنه اتهم اليهود بممارسته، وكثيرًا ما تدور حبكات رواياته حول الساحر اليهودى الذى يتحالف مع المرأة الشريرة ضد المرأة الصالحة لمعاقبتها بطريقة سادية قاسية.

وبعد خطوبة دامت تسع سنوات من القلق والتردد أقبل وليامز وهو في الواحد والثلاثين من عمره على الزواج من فلورانس عام ١٩١٧ ونظّم قصيدة بمناسبة زواجه. ورغم أنها مناسبة سعيدة فإن القصيدة مليئة بالصور والأخيلة الخاصة بالمصير المحتوم والشك والإحساس بالإقلاع والاغتراب..

يقول الدارسون أن شهوة الجنس كانت تنفره من أجساد النساء الفانية كما تثير فيه التخوف منهن والشك فيهن، وظل وليامز بكرًا حتى زواجه. ورغم أنه أنجب ولدًا فإنه كان يجزع من المعاشرة الجنسية وظل نفوره من الجنس يلازمه حتى آخر العمر. ولهذا لم يرحب بميلاد ولده، بل اعتبره ضيفًا غير مرغوب فيه ولعل موقفه الكاره لعملية ولادة المرأة يذكرنا بعض الشيء بموقف ويندهام الذى كان يحرص على الابتعاد عن عشيقاته بمجرد معرفته بأنهن حملن منه، ونحن نرى تشارلز

وليامز يهزأ من فكرة براءة الأطفال فى كتابه «السحر» (١٩٤١). وبعد مضى وقت قصير على زواجه من فلورانس توقف عن معاشرتها وفى عام ١٩٢٤ انتقلت دار نشر جامعة أكسفورد إلى مبنى أفضل فى لندن حيث نشرت له فيضًا فى القصائد الدينية، وضم المبنى الجديد مكتبة تديرها أمينة مكتبة تدعى فيليس جونس أحبها مؤلفنا حبًا أفلاطونيًا خاليًا من كل غاية مما ساعده على الابتعاد عن معاشرة زوجته وليس أدل على أن حبه الأفلاطونى كان من جانب واحد وأن فيليس جونس كانت تربطها بزميل لها متزوج علاقة جنسية غير مشروعة، الأمر الذى يؤكد أن تشارلز وليامز استخدم حبه الأفلاطونى كى يعينه على الانفصال الجسدى عن زوجته. ولكن هذا الحب أثار غيرة زوجته التى وصفت مؤلفنا بعد وفاته بأنه سيدها وحبيبها وقد عَبّر وليامز عن هذا الحب الأفلاطونى فى الكتاب الذى ألفه عام ١٩٤٣ بعنوان شخص بياتريس The Figure Beatrice. ولا نبالغ إذا قلنا إن الكثير من كتابات وليامز يدور حول نفوره من الممارسات الجنسية ومن المرأة الشريرة التى تفسد على الرجل الصالح حياته، وقد حاول مؤلفنا فى الكتاب الذى ألفه عام ١٩٢٤ بعنوان «مجمل اللاهوت الرومانسى» Outlines of Romartic Thealogy أن يستعيض عن الحب الشهوانى للجسد بحب المسيح .

يقول ت. س. إليوت فى مقدمة كتابه تشارلز وليامز: «الجميع يقدسون حواء» عن مؤلفنا: «كانت خوارق الطبيعة أشياء طبيعية تمامًا فى نظره كما بدت له الأشياء الطبيعية كخوارق للطبيعة.».

ويصف لنا وليامز فى كتابه عن السحر كيف تحول شهوة الجسد وجه المرأة الجميل إلى مجرد حيوان شهوانى، وهى نظرة قريبة من نظرة ويندهام لويس المحتقرة للمرأة.

وسوف نسعى فيما يلى إلى استجلاء موقف تشارلز وليامز العدائى من اليهود. نشر وليامز عام ١٩٤٣ فى مجلة «المد والجزر» مقالاً بعنوان «اليهود» استعرض فيه كتاب جاك مارتيان «خلاص الزمن» Redeeming The Time. وفيه امتدح رأى مارتيان القائل إنه يحق للمسيحى أن يكره اليهودى ويلعنه لأن اليهودى دائم الشجار مع العالم الذى يبدو فيه غريبًا على نحو غير طبيعى. ويستطرد وليامز

قائلاً: إن المسيحيين واليهود لا يمكنهم علاج المشكلة اليهودية إلا على المستوى اللاهوتي. ومع ذلك فهو يوصي المسيحيين بمعاملة اليهود بكل أدب رغم صعوبة ذلك. يقول وليامز في هذا الشأن: «سواء شئنا أو لم نشأ نرى أنه من الواجب أن تكون العلاقة بين شعب إسرائيل والكنيسة أكثر توترًا. فهنا يطفو على السطح شيء غائر وعميق يجري كالدم في عروقنا، هذا الشيء هو الكراهية، وحين يحل يوما السبت والأحد نتذكر أن اليهودي يسمع المسيحي يعلن أن العلي القدير المقدس تجسد في حين أن المسيحي يتذكر أن اليهودي قام بصلب الله المتجسد، فكيف يمكن لهذين النقيضين أن يتعايشا في سلام؟».

إن تشارلز وليامز يعتبر اليهود الذكور قتلة السيد المسيح. والجدير بالذكر أنه ألّف كتاباته المناهضة لليهود في الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣٨. غير أنه حاول في ١٩٣٩ إنكار عداوته للسامية. ثم التزم الصمت بعد ذلك ولم يعد يذكر اليهود في كتاباته. ومع ذلك فقد نشر عام ١٩٤٤ روايته «الجميع يقدسون حواء» التي تنصح بكراهية اليهود. واللافت للنظر أن هذه الرواية رأت طريقها إلى النشر في نفس الوقت الذي تعرض فيه اليهود للإبادة في الهولوكوست النازي.

وفي عام ١٩٣٩ نقلت دار نشر جامعة أكسفورد نشاطها من لندن إلى أكسفورد. فانزعج مؤلفنا لذلك وأصابه حزن عميق لأنه اضطر إلى ترك أصدقائه ومحبيه في لندن ليحضر إلى مدينة غريبة عليه. وبمرور الوقت أخذ وليامز يتعرف على نفر من أدباء أكسفورد من بينهم س. لويس C. S. Lewis. وفي أكسفورد تم ترشيحه لإلقاء بعض المحاضرات في جامعتها التي منحته عام ١٩٤٣ إحدى درجاتها الفخرية. كما أن كتبه بدأت تدر عليه دخلاً لا بأس به.. ولكنه شعر بالإحباط لأن المحيطين به في أكسفورد كانوا لا يعتبرونه زعيمًا روحيًا كما هو الحال في لندن. وأخذت عصبيته تزداد عن ذي قبل الأمر الذي جعله يكتب إلى زوجته قائلاً: «أريد أن أكون لطيفًا وطيبًا، ولكني لا أشعر بذلك مطلقًا... حيث أجد في قرارة نفسي آبارًا من الكراهية المرعبة آبارًا من الشك بل من الشر.».

ورغم ذلك فقد استطاع في أكسفورد أن يجذب نحوه عددًا كبيرًا من المعجبات والمريدات اللائي وضعن أنفسهن رهن إشارته. ويعلق الشاعر س. لويس على ذلك

قائلاً إنه لو كان شريرًا لفعل بهن ما يشاء» الأمر الذى جعل الرجال يداعبونه بوصفهم له بالفاسق رغم تأكدهم من طهارته.

وتلقى الخطابات التى سطرها بين عامى ١٩٤٣، ١٩٤٤ والتى نشرها بعنوان «خطابات إلى لالاج Letters to Lalage وكتابه الذى أكمله فى تلك الفترة ثم نشره بعنوان «منطقة نجوم الصيف» The Region of The Summer Stars الضوء على العلاقة الوثيقة بين حياة وليامز وإنتاجه الأدبى كما تلقى الضوء على علاقته بمريديه، والجدير بالذكر أن مريدته لانج سيمز Lang Sims هى التى تولت نشر هذه الخطابات عام ١٩٨٩ ومن يتتبع علاقة هذه المريدة به يدرك على الفور عميق تأثيره فى النساء، فقد كانت هذه الفتاة تعتبر نفسها طفلة أو تلميذة صغيرة فى حضرة مدرس تجله وتحبه. وكانت لا تجد أية غضاضة أن يضربها بالمسطرة تأنيباً لها على شىء أو آخر.. بالعكس نرى أنها استعذبت ضربه لها بالمسطرة. وعندما توطدت العلاقة بينهما دعاها وليامز إلى الانضمام إلى جمعيته الروحية. وبقدر ما شعر وليامز بخضوعها له بقدر ما شعر بتأثيرها الغريب عليه. ولعلنا نلاحظ أن قوة طاغية حركت كلاً من ويندهام لويس وتشارلز وليامز لإخضاع المرأة لسيطرتهما مع فارق واحد هو أن الأول استخدم قوة الباه للوصول إلى هدفه فى حين أن الثانى الذى يمقت الممارسات الجنسية اختار أن تكون سيطرته عليها على المستوى الروحى.

وفى ١٥ مايو ١٩٤٥ وافت - تشارلز وليامز - المنية وهو فى الثامنة والخمسين من عمره إثر عملية بسيطة أجريت له فى بطنه.

كتب مؤلفنا سبع روايات فى الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٤٤ وهى تمثل جزءًا ضئيلاً من مجمل إنتاجه الأدبى، وسوف نقتصر على مناقشة ثلاث روايات منها. وهى الروايات التى تعالج شخصيات يهودية. وهذه الكتب الثلاثة هى «ظلال النشوة» (١٩٣٣) و «الحرب فى السماء» (١٩٣٠) War in Heaven و «الجميع يقدسون حواء» (١٩٤٥) وفى المقدمة التى كتبها ت. س. إليوت لهذه الرواية الأخيرة نراه يدافع عن تشارلز وليامز داحضًا الاتهام له بأنه مريض نفسيًا. يقول ت. س.

إليوت أنه لم يشاهد فى حياته شخصًا أكثر سلامة وصحة فى الناحية النفسية من تشارلز وليامز.

وتتسم روايات وليامز بالاتساق والانسجام فهى تبدو فى الظاهر أنها تدور حول حبكة واحدة تكاد لا تتغير داخل إطار مسيحى فى حين أنها فى حقيقة الأمر تتناول العوالم الخفية الغامضة أو الخيالات الصوفية، وتتميز شخصياته الروائية بالبساطة فهى ذات بعد واحد كما أنها شخصيات خشبية جامدة لا يطرأ عليها أى تطور. وأيضًا تتميز هذه الشخصيات بأنها ذات هدف تعليمى حيث إن كل شخصية منها تمثل إحدى الخصال المسيحية. وتتسم لغة مؤلفنا الروائية بنفس الجمود والتخشب الذى نراه فى شخصياته. وكما قلنا تكاد حبكات جميع رواياته تدور حول موضوع واحد لا يتغير ولا يتبدل فنحن نرى دومًا رجلاً يستخدم الأساليب الصوفية الغامضة من أجل السيطرة الشريرة على غيره من الناس. ولكن بطلاً مسيحيًا سرعان ما يأتى فى الوقت المناسب لتخليص الناس من شره فينجح الخير فى محق الشر واجتثاثه.

والجدير بالذكر أن مؤلفنا كتب رواية «ظلال النشوة» فى أوائل العشرينيات ولكن نشرها تأخر حتى عام ١٩٣٣. والرواية كالعادة تدور حول رجل يسعى إلى السيطرة على العالم.، وحين ألف وليامز هذه الرواية أسماها «ابن الزنا الأسود» ولكن الناشر اختار لها عنوانًا أكثر توفيقًا هو «ظلال النشوة» وهى تعكس اهتمامه الشديد بالسحر والذى يتعارض مع مبادئ الدين المسيحى. وتعرض هذه الرواية أفكار ونظريات شخصية روائية تناصب المسيح العداء هو نيجيل كونسيدين بطريقة تروق فى عيون الناس، يستطيع نيجيل كونسيدين باستخدام القوى الخفية السيطرة على قارة إفريقيا بأكملها وتحريرها من هيمنة الرجل الأبيض، توطئة للاستيلاء على العالم كله. غير أن ملكًا إفريقيًا كان فيما مضى يؤمن بالمسيحية ثم تخلى عنها يظهر فى منطقة هامستين بإنجلترا حيث يتعهد قسيس بإعادته إلى الدين المسيحى، وتستمر الحرب الضروس بين أنصار المسيح وأعدائه. وأيضًا تحدثنا الرواية عن موت يهودى شديد البأس عريض الثراء اسمه روزنبرج تاركًا ثروته الكبيرة لأولاد

أخيه المؤمنين بالدين اليهودى فيقوم كونسيدين بالاستيلاء عليها. ثم تقع أحداث عنف وشغب ضد اليهود فى لندن فيلقى واحد من أبناء أخ اليهودى الثرى مصرعه، فيقوم كونسَيدين بنقل ابن أخ اليهودى الباقى على قيد الحياة واسمه روجر إلى منزل قريب من البحر، وتنتهى الرواية بأن يعتقد روجر أن قوة السحر يمكنها أن تحقق له الخلود. وتبرز هذه النهاية قوة السحر وتفوقه على الدين المسيحى الأمر الذى أثار حنق أتباع وليامز ومريديه المسيحيين. وتبين الرواية أن عشق الجسد فان ولا يعدو أن تكون ظلاً من ظلال النشوة فى حين أن تجاوزه بمنح الإنسان الخلود، وهى فكرة تؤكد ما سبق أن أوردناه من نفور المؤلف من المضاجعة وشهوة الجسد.. ويلاحظ الدارسون أن المؤلف يعامل اليهود والزنوج فى هذه الرواية برقة أكثر من بقية رواياته فهو يصورهم كمظلومين لا كظالمين وضحايا وليس كبغاة. فضلاً عن أن هذه الرواية تخلو من السادية التى نراها فى رواياته الأخرى.

وتدور روايته «حرب السماء» (١٩٣٠) حول الصراع المحتدم بين الخير والشر كما أنها كالعادة تتناول الجوانب الصوفية والغامضة من الحياة. وتسعى بعض شخصيات الرواية إلى الحصول على كأس الملك آرثر المقدس لاستخدامه فى دعم الشر وترسيخه فى حين أن كبير الشماسة المسيحيين يبغى الاستفادة من هذا الكأس فى نشر الخير وذيوعه. وينضم اليهودى ماناسيه إلى المعسكر الساعى إلى استخدام الكأس المقدس فى الشر الذى يكاد أن ينتصر على الخير. ولكن الخير يقاوم حتى يتمكن من أن يصرع الشر ويمحقه على يد الملاك برستر جوى، وتختلف هذه الرواية اختلافًا جذريًا عن روايات وليامز الأخرى فقد بدأ المؤلف فيها يتخلى عن اهتمامه الشديد وإعلائه من شأن الظواهر الغامضة والصوفية، فهو يعتبرها على غير عهده رجسًا من عمل الشيطان يستحق العقاب.. وهكذا تندحر قوى الشر أمام قوى الخير. ويمثل اليهودى فى رواية «حرب السماء» قوى الشر التى توقع البشر فى شباكها. ولكن قوى الخير التى تمثلها المسيحية تنجح فى دحرها.

وأيضًا تدور رواية تشارلز وليامز التالية «الجميع يقدسون حواء» حول الصراع الناشب بين قوى الشر الوافد من الخارج وقوى الخير المتمثلة فى المسيحية. وهو

صراع عودنا المؤلف عليه مع فرق واحد يتلخص فى أن قوى الشر فى رواياته الأخرى ليست قاصرة على شخصية روائية واحدة فى حين أنها فى هذه الرواية تتركز فى شخصية واحدة هى شخصية اليهودى كلارك سيمون الذى يفوق هتلر فى رغبته الجامحة فى تدمير العالم كله. ويختلف اليهودى فى هذه الرواية عن نظرائه فى الروايات الأخرى فى أنه أصبح باغيًا وليس ضحية وظالمًا وليس مظلومًا ويستحق القسوة التى عامله هتلر بها، فهتلر معذور حين دافع عن ألمانيا بلاده ضد سعى اليهود الحثيث إلى السيطرة عليها، ثم إن اليهود يستحقون العقاب لأنهم قتلة السيد المسيح الذى صلبوه على الخشبة كما أن مسئولية إشعال الحرب تقع على عاتقهم، وهو نفس الاتهام الذى سبق لبيلوك و. ج. ك تشسترتون أن وجهاه إلى بنى إسرائيل.

٣ ـ جراهام جرين Graham Greene

كـــان لجراهام جرين ميول انتحارية فقد حاول الانتحار أكثر من مرة.. أصاب الروائى جرين شهرة أدبية فاقت الآفاق تفوق شهرة معظم من تناولناهم بالتحليل فى مبحثنا الراهن. وإذا كان كل من ويندهام لويس وتشارلز وليامز لم يكتبا عن سيرة حياتهما سوى النذر اليسير فإن جراهام جرين على العكس من ذلك تناول حياته فى الكثير من كتاباته مثل «نوع من الحياة» (١٩٧١) A Sort of Life. «طرق الهرب» (١٩٨٠) Ways of Escape إلى جانب كتابه «الرجل الآخر» (١٩٨٣) The Other Man الذى يتضمن مجموعة كبيرة من الأحاديث التى أدلى بها إلى مارى ـ فرانسواز ألين Allain فضلاً عن بعض كتب الرحلات التى دبجها براعة مثل «رحلة بدون خرائط» (١٩٣٦) Journey Without Maps و «الطرق الخارجة على القانون» (١٩٣٩) Lawless Roads. والجدير بالذكر أن الكاتب نورمان شيرى Norman Sherry ألف سيرة موثقة عن حياته بعنوان «حياة جراهام جرين» (١٩٨٩). ويلاحظ أن مؤلفنا التزم كثيرًا من التحفظ فى سرد علاقته بزوجته وبالآخرين بوجه عام.

ولدُ جراهام جرين فى مدينة بيركهامستد بإنجلترا عام ١٩٠٤ وتوفى يوم ٢ إبريل ١٩٩١ وهو فى السادسة والثمانين من عمره، واتسمت طفولته وحداثته بالتعاسة. يقول فى مقال له بعنوان «عبء الطفولة الثقيل» تناول فيه كلاً من ديكنز وكبلنج إن بعض الكُتَّاب لا يستطيعون الفكاك من عبء الطفولة الثقيل أى فترة طفولتهم التعيسة، قال ذلك فى معرض حديثه عن الروائى ديكنز والشاعر كبلنج. وواقع الأمر أنه كان يتحدث عن نفسه بقدر ما تحدث عن هذين الكاتبين.

ينحدر جراهام جرين من عائلة إنجليزية تنتمى إلى الطبقة الوسطى فقد عمل والده مدرسًا فى مدرسة بيركهامستد الخاصة ثم أصبح ناظرًا لها وآلت ملكيتها

إليه. كما أن أمه تولت الإشراف على احتياجات المدرسة من المواد الغذائية والتموينية، ويذكر جرين أنه شعر بالتعاسة فى نحو الثالثة عشرة من عمره حين كان طالبًا داخليًا في مدرسة والده، ولكن تعاسته تبددت فى الجو المنزلى والعائلى الذى عاش فيه بين أخويه وأخواته الثلاث وعماته وأعمامه يقوم على خدمتهم كثير من الخدم والحشم. ويقول الدارسون إنه تأثر فى صباه بمنظر رجل رآه يخرج مهرولاً من منزله ممسكًا سكينًا يحاول أن يطعن نفسه بها كى يضع حدًا لحياته. ولا شك أن معاملة أمه الباردة له سببت له الألم. فضلاً عن معاملة والده له لم تكن أحسن حالاً فقد ابتعد عنه وجسد السلطتين الأبوية والمدرسية معًا. ورغم ذلك نراه يقول إنه أحب والدته حتى النهاية.

كان والده ناظر مدرسة من الطراز الفيكتورى المحافظ فهو يصر على أن يسلك تلاميذه سبيل الطهر والفضيلة وأن ينبذوا دنس الجنس وقذارته حتى يأذن لهم الله بالزواج، ولهذا بذل قصارى جهده فى محاربة اللواط والعادة السرية.. ولهذا تأكد بنفسه من عدم ترك الطلبة بمفردهم بل قام بتقسيمهم إلى مجموعات تخضع للمراقبة والتجسس وكتابة التقارير فضلاً عن أنه أرغم تلاميذه على النوم منفردين فيما يشبه قلابات الرهبان، كما أنه أمر بإزالة أبواب المراحيض.. ويبدو أن السياسة الصارمة والحازمة التى اتبعها نجحت إلى حد كبير فى استئصال شأفة الشذوذ الجنسى من المدرسة.

كان جراهام جرين فى فترة مراهقته إنسانًا مرهف الحس على نحو مفرط فهو يصاب بالإغماء إذا شاهد دمًا يسيل أمام عينيه أو حتى إذا رأى حشرة طائرة أو خفاشًا كما كان كثير البكاء ذا بنية ضعيفة بشكل لافت للنظر ويبدو أن إحساسه بضعف بنيته وأنوثته دفعاه فى سن السادسة عشرة إلى محاولة الانتحار عام ١٩٢١. يقول نورمان شيرى فى هذا الصدد إن جرين لم يكن من شواذ الجنس ولكنه اتسم بالحساسية المفرطة والنعومة التى تصل إلى حد الأنوثة.

ويذكر جرين عن طفولته أن والده كثيرًا ما كان يضربه بالعصا عقابًا وتأديبًا له. وكانت الأم ترى الأب يضرب ابنه فلا تدافع عنه أو تتدخل لحمايته ولا غرو فقد كان الرجل يسيطر على أفراد أسرته سيطرة كاملة، وكان لموقف أمه السلبى أسوأ الأثر

فى نفسه فقد كان دائم الإحساس بأن أمه خائنة. وعلمه هذا أن يخفى حقيقة مشاعره عن والديه حتى يخشوشن ويسترجل ويصبح مستقلاً عنهما، ويقضى على الجانب الناعم فى شخصيته، ولكن يبدو أن كبت مشاعره الحقيقية فى طفولته جعله يعانى من كثرة الكوابيس التى انتابته خلال الليل وظلت تلاحقه حتى فى رجولته. ومن المخاوف التى لازمته طيلة حياته خوفه من الموت حرقًا أو غرقًا، وأيضًا انتابه فى طفولته الرعب أثناء الليل من الساحرات اللاتى يقفزن فوق ظهره وينهشن كتفيه بأظافرهن. ويرى بعض الدارسين أن مثل هذه المخاوف تنتاب الذين يتعرضون للانتهاكات الجنسية وخلاصة القول إن جراهام جرين لم يشعر بالسعادة فى مدرسة والده بل عانى من الغربة وأحس أنه مشبوه ومخلوق مطارد.

قلنا إن جراهام جرين حاول الانتحار أكثر من مرة. فقد حاول وهو يافع قطع رجله. ومرة أخرى ابتلع عددًا من أقراص الأسبرين وبعض العقاقير الأخرى وحتى يهرب من الذهاب إلى مدرسته التى أشقته وعذبته ترك ورقة لذويه يخبرهم بهروبه من المنزل. وعند العثور عليه اكتشف والده أن مجموعة التلاميذ التى تمارس العادة السرية نجحت فى ضمه إليها.. واستشار الوالد الحائر هيو ابنه الأكبر الذى يدرس الطب فنصح بإرساله إلى محلل نفسى فى لندن اسمه كينيث ريتشموند. وفى منزل هذا الرجل وبين عائلته عاش الغلام عيشة راضية هنيئة كانت ـ على حد تعبيره ـ أسعد ستة أشهر فى حياته. ولا غرو فقد كانت نظرة هذه العائلة إلى الجنس تختلف تمامًا عن نظرة عائلته المتزمتة إليه، فالجنس فى نظرها مصدر متعة وليس مستودع قاذورات. واطمأن الصبى إلى هذا المحلل النفسى فأخذ يروى له الكوابيس التى تقض مضجعه فشاركه الرجل فى محاولة تفسيرها واستجلاء كنهها، ورغم ارتياحه إلى الدفء العاطفى الذى وجده فى منزل المحلل النفسى إلا أنه لم يبرأ تمامًا من شعوره بالكآبة وكراهية نفسه، والجدير بالذكر أن الفترة التى عاشها الغلام فى كنف المحلل النفسى وعائلته تركت أثرها الواضح فيه ككاتب. وبعد عودته من لندن إلى بلدته بيركهامستد قطع كل صلة تربطه بمدرسة والده التى كانت سببًا فى كآبته ورغم ما عاناه كاتبنا من المدارس الإنجليزية الخاصة فإنه ألحق ابنه فرانسيس بإحداها، ويبدو أنه كرر حكايته مع والديه حيث إنه ابتعد عن أبنائه بنفس الطريقة التى ابتعد بها أبواه عنه.

ثم التحق جراهام جرين بجامعة أكسفورد وبدأ يتوق إلى الغرام فتميز حبه بخاصة عجيبة وهى أن يتحرق شوقًا للمرأة التى ليست فى متناول يده ويزهد عن المرأة التى تستجيب لرغباته ويعاملها بمزيج من الغضب والاحتقار، وفى التاسعة عشرة من عمره وقع فى غرام فتاة تدعى جونى هويل ولكنها صدته عنها فألهبت شوقه إليها، ونتيجة فشله فى هذا الحب أصابه شعور مروع بالفراغ القاتل الذى لم يبدده غير وقوعه فى حب جديد.

وفى عام ١٩٢٥ قابل فى أكسفورد فتاة آية فى الجمال تدعى فيفيان دانييل فاعترف لها بسلطانها عليه.. كان يعبدها لدرجة أنه غير ملته البروتستانتية عام ١٩٢٦ واعتنق المذهب الكاثوليكى الذى تدين به، وظل متمسكًا بهذا المذهب طيلة حياته الأمر الذى ساعده على الشفاء من ميوله الانتحارية ولكن كثلكته لم تمنعه من الزراية بكثير من شخصياته الروائية الكاثوليكية التى تستغرق فى الفسق والمجون. وبعد تردد عظيم نتيجة مثاليتها الدينية وحرصها على حياة الطهر والعفاف قبلت الزواج به عام ١٩٢٧.. وكان زواجًا غريبًا إلى أقصى حد يمكن تصوره فرغم أنها أنجبت له طفلين فإنها كانت تعاف المعاشرة الجنسية. ووافق ألا يكرهها على هذه المعاشرة. أى أنه كان بمثابة المتزوج الأعزب. واضطره هذا الوضع الشاذ إلى ارتياد المواخير فى لندن وباريس لمضاجعة العاهرات بصحبة أحد أقربائه واستمرت نزواته الغرامية دون انقطاع، ولم تكن غرامياته خافية على زوجته التى كان يتركها بمفردها الأمر الذى جعلها عام ١٩٧٧ تشكو من أنه يتركها وحيدة فى أماكن غير مناسبة لينخرط فى نزواته ومغامراته العاطفية. فضلاً عن كثرة أسفاره التى تتيح له فرص العربدة والانطلاق، وعندما مات شيعته عشيقته الفرنسية إيفون كلوتيا إلى جانب زوجته وولداه.

يقول بعض الدارسين أنه من العسير للغاية إثبات عداء جراهام جرين للسامية. صحيح أن عددًا من رواياته الباكرة تتضمن قدرًا من هذا العداء ولكنه لا يوجد دليل على أن جرين كان على أرض الواقع يكره اليهود. بالعكس فكل الدلائل تشير إلى إدانته الواضحة للنازية ورفضه اضطهاد النازيين لليهود. ولكننا أحيانًا نلاحظ شيئًا من الهجوم على السامية فى بعض مراجعاته للعروض السينمائية. فهو على سبيل

المثال يكتب فى صحيفة السبكتاتور بتاريخ ٥ يونيه ١٩٣٦ إن عصابة سافلة من زبالة اليهود الأجانب تحتكر صناعة السينما. ومما يجعل موقفه من اليهود غير واضح بالمرة إنه يهاجم بشدة موسلى زعيم المنظمة الفاشية الإنجليزية التى تحض على كراهية اليهود. فضلاً عن أنه فى الأحاديث الإذاعية التى بثها عبر الأثير وقف بجانب اليهود الواقعين تحت نير الخسف والاضطهاد كما هاجم معسكرات الاعتقال النازية التى قامت بإبادة الكثير منهم.. والجدير بالذكر أنه كان من أبرز المؤيدين لدولة إسرائيل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كما أنه أيد على طول الخط حق إسرائيل فى البقاء. ولكن هذا التأييد لم يمنعه من انتقاد السياسة الإسرائيلية من حين إلى آخر.

وتظهر رواياته الباكرة قدرًا من عداوة السامية على نحو تتناقض مع مواقفه العملية فى الحياة. ورغم ذلك فيجب على الباحثين أخذ هذا الأمر بكثير من الحذر والروية. فقد أزال بعض المواضع المعادية للسامية من رواياته الباكرة وأدخل عليها تعديلات جوهرية فى الطبعات التالية، ولعل أهم هذه التعديلات تلك التى جاءت فى روايته المعروفة «برايتون روك» Brighton Rock ففى طبعتها الأصلية التى نشرتها دار هاينمان للطباعة والنشر عام ١٩٣٨ كان زعيم العصابة العتيد فى الإجرام رجل يهودى اسمه كولبونى. ولكنه عدل النص الأصلى فى الطبعة التى نشرتها دار بنجوين عام ١٩٤٣ جاعلة هذا المجرم رجلاً إيطاليًا، ونحن نرى المؤلف يجرى تغييرات من هذا القبيل فى روايتين أخريين هما «قطار أسطنبول» و «بندقية للبيع» A Gun for Sale فقد غيّر كلمة يهودى فى كلتا الروايتين إلى رجل. واللافت للنظر أن جراهام جرين توقف تمامًا فى رواياته اللاحقة عن رسم أية شخصيات يهودية فى أدبه الروائى.

ومن المعروف أن مؤلفنا ارتكب فى بداية حياته غير الناضجة بعض الحماقات السياسية مثل التجسس على الفرنسيين لحساب الألمان عام ١٩٢٤ ومن حماقاته أيضًا انضمامه عن غير اقتناع إلى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٣ لمدة أربعة أسابيع من أجل السفر مجانًا إلى الاتحاد السوفيتى، إلى جانب موقفه المندد بالإضراب العام الذى حدث فى إنجلترا عام ١٩٢٦. وهى تصرفات ندم على

ارتكابها فى سنى نضجه اللاحق. ويبدو أنه أراد بتلك التصرفات غير المسئولة من الناحية الأخلاقية أن يتخلى عن رقته ونعومة طبعه وأن يثبت لنفسه أنه أصبح رجلاً جامد العواطف لا يهاب شيئًا أو تهتز له خلجة، أى أنه استبدل قلبه بحجر أو قطعة من الثلج على حد تعبيره. والجدير بالذكر أن الكتابة كانت السبيل إلى شفائه من الأمراض النفسية التى عانى منها فى طفولته كما كانت المخاطرة سبيله إلى إثبات رجولته وتبديد الملل القاتل المحيط به.

وعندما بلغ مؤلفنا مرحلة النضج نراه ينجح فى تحويل الشرخ النفسى الذى عانى منه فى طفولته إلى عمل اجتماعى مسئول كما يتجلى لنا فى مقالاته عن أسفاره إلى هاييتى ونيكاراجوا وفيتنام وجنوب إفريقيا وفضحه للنظم الغاشمة المستبدة التى تحكمها.. ورغم أنه لم يكن يؤمن بالماركسية فإنه صار معروفًا للدانى والقاصى بدفاعه عن الضحايا والمظلومين. وفى حين كانت عداوة السامية فى كتابات كل من ويندهام لويس وتشارلز وليامز عملاً مقصودًا ومبنيًا على زراية جراهام جرين باليهود فى إنتاجه الأدبى الباكر مؤشرًا على افتقاره إلى النضج.

ولكن روايات جراهام جرين الباكرة تركت انطباعًا لدى بعض النقاد مثل روزنبرج وفيلدر بأنه من ألد أعداء السامية فى العصر الحديث. ولكن كلا هذين الناقدين لاحظا وجود انفصام بين أعماله الأدبية وأفعاله.. يقول فليدر فى هذا الشأن إن جرين جاهر فى كتاباته بإدانته لاضطهاد اليهود والتنكيل بهم. ورغم ذلك نجده يملأ صفحات رواياته باليهود الأشرار. والجدير بالذكر أن كراهيته لليهود اقتصرت على فترة إنتاجه الأدبى الباكر من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٨.

نبدأ بالروايتين الفاشلتين اللتين ألفهما فى باكورة حياته وهما «رجل بالداخل» (١٩٢٩)The man Withir و «اسم الفعل» (١٩٣٠) The Name Action.. ويجيب النقاد على هاتين الباكرتين فشل مؤلفهما فى معالجة مادته الروائية معالجة موضوعية مما ينم عن عجزه عن النأى بنفسه عن أحداثهما وهو ما اعترف به على أية حال. فضلاً عن أن الروايتين تكشفان عن اشمئزاز مؤلفهما من الجنس وخوفه من رغبات الجسد واستغراقهما فى الرومانسية. ويذهب بعض الدارسين إلى أن هاتين الروايتين بالإضافة إلى رواية «قطار إسطنبول» (١٩٣٢) تدور حول كراهية الذات.

وتبرز رواية «اسم الفعل» دور اليهود فى أحداثها التى تدور حول شاب إنجليزى ترى اسمه أوليفر تشانت يعيش فى لندن حيث يقتله الملل. وأثناء حضوره إحدى الحفلات يقوم أحد معارفه بتجنيده لمساعدة المعارضة فى الإطاحة بالديكتاتور الذى يجثم على نفس منطقة ترايز. ويقبل أوليفر تشانت هذه المهمة ليس بسبب كراهيته للديكتاتورية بل بسبب ما سمعه عن جمال زوجة الديكتاتور آن ـ مارى.. وبالفعل يسافر تشانت إلى ترايز حيث يقابل زعيم المعارضة الشاعر اليهودى كابر. ويقيم الديكتاتور حفلة فى قصره يدعو إليها أوليفر تشانت الذى ينجح فى غواية زوجة الطاغية الفاتنة. فتعترف له بأن زوجها الديكتاتور يعانى من العجز الجنسى. (فى حين يقول الديكتاتور للمقربين إليه أن المضاجعة تثير اشمئزازه لأنه يفضل الروحانيات عليها). ويخبر تشانت الشاعر اليهودى كابر بهذه المعلومة فيؤلف أغنية هجائية تفضح عجز الديكتاتور الجنسى، الأمر الذى يثير غضب الدهماء عليه فيسارعون بالإطاحة به دون الحاجة إلى استخدام السلاح. وينتقد المؤلف جراهام جرين نفسه فيرمى هذه الرواية بالفجاجة ويعترف بتأثير الروائى جوزيف كونراد فيه.. ويحط المؤلف من شأن هذا الشاعر اليهودى فيصفه بالنرجسية والإحساس الزائف بالعظمة ويشير إليه باسم حيوان البحر أبو جلمبو. وأيضًا نرى أن هذا اليهودى يهتم بالأدب المكشوف. ويعلق الصور البذيئة على جدران غرفته. فضلاً عن أنه إنسان شرير جشع وجبان مزهو بنفسه وشهوانى فاسق شديد البخل تعتمل فى نفسه رغبة جانحة فى تشويه الآخرين والتمثيل بهم. أى أن كل العبر والعيوب تجتمع فى شخص هذا الشاعر اليهودى المنحط. ونجد أيضًا أن الصورة التى يرسمها المؤلف لزوجة هذا اليهودى سلبية فهى دميمة ومتزلفة تعشق المال وتفوح منها رائحة غير طيبة. ولا يطيق الشاعر اليهودى كابر منظر العذارى والنساء الطاهرات فهذا المنظر قمين بأن يملأ قلبه بالرعب منهن ويصاب الرجل بالرعب عندما يقع بصره على العذراء مريم التى يسميها «أم عدوه الأزلى» وتنتهى الرواية بالإطاحة بالطاغية الذى يحكم ترايز ولكن أرملته تفضل البقاء فيها بعد أن يتولى هذا اليهودى البغيض مقاليد الحكم خلفًا له.

وأيضًا تناول جرين اليهود فى رواية «قطار إسطنبول» (١٩٣٢) التى نُشرت فى الولايات المتحدة بعنوان: «قطار الشرق السريع» Orient EXpress وتبين هذه الرواية أنه بدأ ينبذ الرواية الرومانسية التاريخية ويتجه إلى كتابة الرواية المثيرة المسلية. وقد أنحى بعض النقاد على هذه الرواية احتواءها على شخصيات نسائية سحاقية. وعلى أية حال يختلف النقاد المحدثون فى تفسيرهم لمعاداة السامية فى هذه الرواية. فالبعض يقرؤها كنبوءة تؤذن باضطهاد اليهود على يد هتلر وزبانيته فى حين يطالعها الناقدان فيلدز وروزنبرج على أنها تجسيد للعداوة التقليدية لليهود ونموذج مألوف لمعاداة السامية، فشخصية اليهودى ميات تثير فى النفس أقصى درجات المقت والاشمئزاز. ويبدو أن جرين أحس بنوع من عدم الارتياح بسبب رسمه لهذه الشخصية اليهودية المقيتة بدليل أنه أجرى بعض التعديلات على هذه الرواية فى طبعاتها اللاحقة التى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية. وكالعادة يرسم المؤلف صورة اليهودى ميات كرجل يجسد الجشع والطمع والتقتير والجبن والخنوع والانحلال الجنسى. ولكن إحقاقًا للحق لابد أن نعترف بأن شر هذه الشخصية ليس مطلقًا ففيها يحتدم الصراع بين الخير والشر فى حين أن اليهودى النمطى التقليدى لا يمثل سوى الشر. والجدير بالذكر أن اليهودى فى هذه الرواية يلعب دورًا محوريًا. والمؤلف لا يشير إليه باسمه بل يطلق عليه اسم اليهودى أحيانًا والمرابى أحيانًا أخرى.

ونحن نخطئ إذا ظننا أن المؤلف يقصر الشر على اليهود فهنا فى هذه الرواية شخصيات أخرى غير يهودية تجسد الشر فى أسوأ صوره مثل اللص القاتل الألمانى جوزيف جرويدليتش والصحفية السحاقية مابل وارين وصديقتها العاهرة جانت باردوك الأمر الذى يخفف من شر اليهودى ويلطف من حكمنا على مساوئه.

ومن المفارقة أن نرى السحاقية مابل وارين وصديقتها العاهرة جانيت تعربان عن كراهيتهما لليهود. كما أن المسز بيترز إحدى راكبات قطار الشرق السريع ـ تشتم راكبة اسمها كورال قائلة: «أنت امرأة يهودية قذرة وصغيرة وحقيرة... وأنتم معشر اليهود والأجانب لا نفع فيكم وينبغى أن تشعروا بالخجل من أنفسكم.»

وعلى أية حال نلاحظ فى رواية «قطار إسطنبول» أن الشخصيات الشريرة هى التى تتسم بالعداء للسامية فى حين أن الشخصيات الطيبة لا تعرف مثل هذا العداء.» ومن الواضح أن جراهام جرين لم يكن يكره اليهود على المستوى الداعى. ولعله لم يكن يحمل لهم الموجدة على الإطلاق رغم أن رواياته الباكرة تعج بعدد من الشخصيات اليهودية السيئة.

وتدور أحداث «بندقية للبيع» المنشورة عام ١٩٣٦ حول ابن ضائع اسمه رافين من والدين طالحين: أب مجرم عتيد وأم تحاول الانتحار، ويستأجر بعض الأشقياء الابن رافين لاغتيال أحد الوزراء ولكنهم يفضحون أمره ويقومون بتبليغ البوليس عنه وبذلك يصبح رافين الغادر والمغدور به والجانى والضحية فى نفس الوقت. ثم يتضح لرافين فى النهاية أن الذى غدر به تاجر سلاح يهودى يدعى ماركوس يستعين بيهودى آخر اسمه دافيز. ويجمع ماركوس ثروة عريضة من تجارة السلاح وينخرط فى شبكة دولية من المتآمرين اليهود من أجل إشعال نار حرب عالمية. الأمر الذى يذكرنا باتهام عدد من الكُتّاب الذين تناولناهم فى هذا البحث عن اليهود بالتآمر بغية السيطرة على العالم عن طريق إثارة القلاقل.

وأيضًا نشاهد فى رواية «برايتون روك» عالمًا إجراميًا خافيًا يسوده اليهود الأشرار والمفسدون وتبرز فيه عاهرات يهوديات يلبسن أغلى أنواع الفراء وهن يبعن أجسادهن فى أفخم الفنادق إلى جانب مرابين يهود شبان يخدعون الناس بحسن منظرهم وشعرهم المصفف وقطاع طرق من شعب إسرائيل يجدون سعادتهم ومتعتهم فى الاعتداء على المسيحيين الآمنين العزل وعلى رأسهم رجل أعمال يهودى يدعى كوليونى الذى شب وترعرع فى جو من الانحلال والانفلات الخلقى وشعر بسبب ثرائه أنه مَلَكَ العالم بكلتا يديه.. بكل بنوكه وأجهزة شرطته ومومساته وبرلماناته وقوانينه. والمجتمع الإنجليزى لا يحتوى على كوليونى واحد بل يعج بالكثير من أمثاله. فلا غرو إذا رأينا سلطانهم فى هذه الرواية يفوق سلطان أقرانهم فى رواية «بندقية للبيع» حيث نرى الفساد ينهزم فى نهاية المطاف.

ولكن الجدير بالذكر أن اليهود الأشرار فى رواية «اسم الفعل» الآنفة الذكر يرثون الأرض وما عليها ثم يرثها بعد ذلك.اليهودى الجبان مبات وعاهرته جانيت باردوك فى رواية «قطار إسطنبول» ثم نرى فى رواية «برايتون روك» اللاحقة أن رجل العصابة كاليونى اليهودى (مع آخرين) يصبح الوريث الجديد لهذا العالم. ولكننا نعود فننبه أن جراهام جرين ناصب الفاشية والنازية العداء وتصدى بقوة وحزم لاضطهاد اليهود فى حياته العملية وأن ما أظهره من عداء للسامية يقتصر على أعماله الروائية الباكرة فحسب. ومن الجائز أنه أحس بتحامله على اليهود فأجرى تغييرًا جوهريًا فى «برايتون روك» بأن جعل رجل العصابة إيطاليًا بعد أن كان يهوديًا. وأيًا كان دافعه إلى إجراء هذه التغييرات فلا مناص من ذكر أنه فعل ذلك فى صمت ودون أى تفسير أو تعليق.

القسم الخامس

كتاب إنجليز يهود بعد الحرب العالمية الثانية

سبق أن ذكرت أن دار الهلال أصدرت لى في مارس عام ١٩٩٩م كتابًا بعنوان «صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى» تناولت فيه عددًا من الكُتَّاب الإنجليز اليهود على رأسهم إسرائيل زانجويل (١٨٦٤ ـ ١٩٢٦). ومن بين الكُتَّاب الذين عالجتهم فى هذا الكتاب الروائى بنيامين ل. فارجيون (١٨٣٣ ـ ١٩٠٣) وثلاث روائيات يهوديات هى أمى ليفى (١٨٦١ ـ ١٨٨٩) Amy Levy وجوليا فرانكا ومسز ألفريد سيدجويك. وجميعهم يعالجون مشاكل اليهود الإنجليز. وبالنظر إلى أننى فى كتابى لم أذكر سوى عدد ضئيل من هؤلاء الكُتَّاب فسوف أكرس هذا الفصل لاستكمال ما بدأت، ولكن ينبغى علينا أن نتنبه إلى أن كثيرًا من هؤلاء الكُتاب انصهروا مؤخرًا فى بوتقة الحياة الإنجليزية. ومن ثم فإن أدبهم لم يعد يقتصر على المشكلات اليهودية. ومنهم من بلغ انصهاره فى المجتمع الإنجليزى حدًا جعله يرمى يهوديته وراء ظهره ويغفلها تمامًا فيتجاوز المشكلات التى تجابه اليهود الإنجليز ويعرض لمشاكل إنجليزية صميمة. وقد ألف الباحث اليهودى إفرايم سيتشر Efraim Sicher عام ١٩٨٥ بجامعة بن جوريون الإسرائيلية فى النقب كتابًا يحمل عنوانًا رئيسيًا هو «تجاوز التهميش» وعنوانًا فرعيًا هو «الأدب الأنجلو ـ يهودى بعد الهولوكوست» ولا شك أنه من المفيد للغاية أن نستعرض محتويات هذا الكتاب الذى يعالج أساسًا الكُتَّاب اليهود فى بريطانيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

يبدأ المؤلف بالكتابة عن اليهود الذين هاجروا فى بريطانيا فى القرون الوسطى وبالذات فى القرن الحادى عشر عندما جاءوا من فرنسا مع وليم الفاتح، وكانوا بطبيعة الحال يتحدثون اللغة الفرنسية ويكتبون اللغتين اللاتينية والعبرية ويجىء فى طليعة هؤلاء الكُتَّاب اليهود مؤلف «حكايات الثعلب الخرافية» بيريخياه بن ناترونى

هـا نـكـدان Berekhiah ben Natronni ha. Nakdan الذى عـاش فى أكسـفـورد وجـاكوب أورليـانز Jacob Orleans الذى لقى حتفه فى مجزرة اليهود التى وقعت فى لندن ضد اليهود عام ١١٨٩ وكذلك الشاعر يوم توف جوينى Yom - Tove of Joigny الذى توفى فى مذبحة بورك عام ١١٩٠. وفى عام ١٢٩٠ تم طرد جميع اليـهـود من إنجلترا حـيث ظلوا فى المنفى لنحـو أربعـة قـرون. وبالتـالى خـلا الأدب الإنجليزى من أى أثر لهم حـتى حلول القـرن التـاسـع عـشـر. وحـتى وقت قـريب استقرت فى أذهـان عامة الإنجليز صـورة اليهودى البغيضة كصالب للمسيح ومراب جشع.

ولعل قـصـة الأدب الأنجلو ـ يهـودى فى العـصـر الحـديث تبـدأ بالكاتبة جـريس أجـويلار (١٨١٦ ـ ١٨٤٧) Grace Agwilar. واللافت للنظر أن الكُتّاب الأنجلو ـ يهود فى الفترة الواقـعة بين الحـربين العالميتين الأولى والثانية لم يحفلوا بمعالجة المشـاكل التى تؤرق بنى جلدتـهم. وفى عـام ١٩٥١ نشـر الكاتب الإنجليزى اليـهـودى جـيـرالد كـيـرش Gerald Kersh رواية بعنوان «المسـتـر سـمـول يمـوت ألف مـرة» Thousand Deaths.. of Small تدور أحداثها فى الفترة المشـار إليـهـا. وتبين هذه الرواية التحسن الاجتماعى الذى طرأ على حياة المهاجرين إلى بريطانيا.. كما تركز الرواية على تصـوير الأم اليهـودية الفظيعـة والمتسلطة التى تقمع أرواح أبنائـها والأب اليهودى الذى يعيش على خداع النفس ومداهنة المجتمع الإنجليزى.

ولكن من الخطأ أن نظن أن الكاتب الأنجلو ـ يهـودى قطع كل الصـلات التى تربطه بماضيه اليهودى كما توحى بذلك رواية «شارع ماجنوليا» Magnolia Street التى ألفها لويس جولدنج Louis Golding عام ١٩٣٢ وعـالج فيها اليهود المحليين الذين عـاشـوا فى مدينة مـانشـسـتـر فى شـمـال إنجلتـرا فى الفـتـرة مـن ١٩١٠ حـتى ١٩٣٠ وهى الفـتـرة التى شـهـدت قيام الحـرب العالمية الأولى والكسـاد الاقتـصـادى الذى اجتـاح العالم فى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. ويسـعى الأنجلو ـ يهود المحليون فى هذه الرواية إلى العيش جنبًا إلى جنب مع المسيحيين والامتزاج بهم. ولكن شـارع مـاجنوليـا يخـيب آمـالهم ويبـدد حلمـهم الكاذب حيث إن سكان هذا الشـارع المسيحيين يعيشـون بمعزل عن اليهود الذين يقطنون عششـهم على جـانب

الشارع فى حين يعيش غير اليهود فى الجانب الآخر. غير أن إنقاذ يهودى لطفل مسيحى والحب الذى تحمله يهودية لبحار إنجليزى يوحد جانبى الطريق ويؤلف بين قلوب المسيحيين واليهود لفترة من الوقت على أقل تقدير. ورغم أن مؤلف رواية «شارع ماجنوليا» يؤمن بإمكانية المصالحة والتوفيق بين اليهود والمسيحيين فإنه يدرك كراهية المسيحيين العمياء لليهود. فضلاً عن اقتناعه التام بأن هذه الكراهية السائدة فى القرون الوسطى لا تزال موجودة حتى يومنا الراهن ولكن يرى أن ممارسة الجنس يمكن أن تصبح الجسر الذى يقرب بينهما.

غير أن مجىء هتلر إلى الحكم فى ألمانيا النازية حطم أمل لويس جولدنج فى التقريب بين المسيحيين واليهود. صور جولدنج العذاب الذى لقيه اليهود بسبب الهولوكوست فى كتابيه «هتلر عبر العصور» Hitler Through The Ages و «المشكلة اليهودية» The Jewish Problem إلى جانب الرواية التى ألفها عام ١٩٤٥ بعنوان «مجد إليزى سيلفر» The Glory of Elise Silver ولكن أفكار التوفيق والمصالحة التى عبّر عنها كل من زانجويل وجولدنج لم ترق فى عيون الأجيال الصاعدة من اليهود الإنجليز حيث إن محرقة هتلر التى أهلكت بنى جلدتهم ذكرتهم بالهوة السحيقة التى تفصل العالم المسيحى وبينهم ومع ذلك فقد راق لهم من بنى جلدتهم الشاعر الرسام إيراك روزنبرج Isaac Rosenberg (المولود فى مدينة بريستول عام ١٨٩٠) معتبرين إياه نموذجًا فى سد الفجوة التى تفصل اليهود عن غير اليهود. فقد خاض هذا الشاب الأنجلو ـ يهودى القادم من حى الإيست ـ إند الفقير غمار الحرب العالمية الأولى ولقى مصرعه فى هذه الحرب والرأى عند الأديب الأنجلو ـ يهودي دان جاكبسون أن هذا الشاعر الرسام كابد الغربة فى إنجلترا التى كانت وطنه وعن لغتها التى تمكن من ناصيتها وأنه عقد العزم على حل مشكلته وإيجاد مخرج من ورطته. يقول الشاعر إيزاك روزنبرج فى القصيدة التى نظمها عام ١٩١٦ بعنوان «اليهود» إن اليهودى هو الذى أنار الطريق أمام العالم بمصباح الأخلاق السرمدية. وأيضًا يقول جون سيلكن Jon Silkin واصفًا الشاعر إيزاك روزنبرج بأنه يهودى لا يربطه أى ولاء غير الولاء الذى يربطه بالمتطلبات الإنسانية الأساسية وأنه نجح نجاحًا باهرًا فى التعبير عن هذا الصراع الإنسانى فقد عَبّر

بلغته الخاصة عن تجربته بشأن محنة اليهود ـ الإنجليز وعن احتجاجه على عالم يسوده الشر.

نعود إلى لويس جولدنج فنقول إن صيته ذاع بسبب كتاباته الروائية والصحفية الرائجة. ولم يسر على دربه غير الكاتب اليهودى ـ الإنجليزى إيمانويل ليفينوف Emmanuel Ltvinoff الذى أعد نصًا مسرحيًا استقاه من رواية «شارع ماجنوليا».

وحدث تطور مهم فى الحياة الثقافية والأدبية فى إنجلترا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فقد ظهر فى أعقاب هذه الحرب جيل من الأدباء الطموح والساخط على امتيازات الطبقة البرجوازية والذى يريد أن يتسلق السلم الاجتماعى ويجد مكانًا لنفسه تحت الشمس بأى ثمن.. وقد تناولت هذا التغير فى كتابى «دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية» الذى نشرته دار المعارف عام ١٩٦٧.

والجدير بالذكر أن تجربة الحرب العالمية الثانية تركت أيضًا بصماتها الجلية على الإنتاج الأدبى للكُتّاب الأنجلو ـ يهود على علاقات الحب والكراهية التى تربطهم ببنى جلدتهم. ورغم قلة عددهم كان اليهود الإنجليز يشكلون آنذاك أكبر جالية فى كل أوروبا ويأتون من حيث العدد فى المرتبة الثانية بعد الاتحاد السوفيتى. كان هذا وضع الأنجلو ـ يهود قبل هجرة جحافل اليهود من شمالNأفريقيا إلى فرنسا فى عقد الستينيات من القرن العشرين. ويمكن القول إن اليهود الإنجليز تمكنوا أكثر من أية جالية يهودية فى العالم من التأثير القوى فى صناع القرار فى الحكومة البريطانية بشأن إنشاء دولة إسرائيل. ومما زاد من تأثير اليهود فى الحكومة البريطانية أن أعدادًا كبيرة من بنى إسرائيل هاجرت من أوروبا الشرقية إلى الأراضى الإنجليزية فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٢٠.. وساعد على تصاعد النفوذ اليهودى فى إنجلترا قدرة الكثيرين منهم على تحقيق الثراء الفاحش مثل مايكل ماركس صاحب محلات ماركس وسبنسر الشهيرة الذى بدأ حياته بداية شديدة التواضع عام ١٨٨٤ عندما افتتح كشكًا صغيرًا فى سوق مدينة ليدز ثم أصبح يملك أكبر سلسلة من المحلات التجارية فى طول إنجلترا وعرضها. ونفس الشىء ينطبق على مونتاجيو بيرتون الذى افتتح عام ١٩٠٠ دكانًا شديد التواضع

فى تشسترفيلد ليصبح صاحب أكبر محلات بيع الملابس الجاهزة، وبطبيعة الحال استطاع أبناء هؤلاء المهاجرين الاندماج فى المجتمع الإنجليزى أكثر من الجيل السابق عليهم. واللافت للنظر أن الأنجلو ـ يهود الأوائل لم يكترثوا بالفنون والآداب حيث انصب اهتمامهم على عالم المال والأعمال.

وفى عام ١٩٥٣ قام جاكوب سونتاج Jacob Sonntag (١٩٠٥ ـــــ ١٩٨٤) بإصدار «الفصلية اليهودية» التى كرست صفحاتها لمعالجة الهوية اليهودية فى بريطانيا رافضة مبدأ التطرف فى الاندماج ومبدأ التطرف فى الانعزال وأخذ سونتاج على عاتقه مهمة استعادة تراث اليديش اليهودى الضائع وترجمته إلى اللغة الإنجليزية. ورغم دورها المحدود فى تشجيع الأقلام الأنجلو ـ يهودية الشابة فإن عددًا من الكُتَّاب اليهود الشبان أسهموا فى تحريرها مثل وولف مانكوتيز Wolf Mankowtz ودانى أبس Dannie Abse وإيمانويل ليتفينوف Emmanuel Livinoff وفريدريك روفائيل Frederic Rapheel و أ. سى. جاكوبس A. C Jacobs وجون سيكلين Jon Silkin. والأهم من كل هذا أن الكاتب الأنجلو ـ يهودى المعروف أرنولد ويسكر Arnold Wesker نشر فيها أولى كتاباته. فضلاً عن أن عددًا من الشعراء المهاجرين الأنجلو ـ يهود مثل كارين جيرشون Karen gershon وميشيل هامبرجر Michael Hamburger نشروا قصائدهم فيها. وإلى جانب ذلك أعادت مجلة «الفصلية اليهودية» تقييم الثقافة اليهودية ـ الألمانية كما تتمثل فى أعمال هاينى Heine والتر بنيامين Walter Benjamin وفوتشوانجر Feuch twanger وبرود Brod وكافكا كما أنها أفسحت المجال لنشر الشعر العبرى الجديد وشعر اليديش. غير أن هذه الفصلية عانت من المتاعب المالية بسبب قلة عدد النسخ التى توزعها واستاء بعض اليهود اليساريين لأن دولة إسرائيل فشلت فى أن تصبح دولة اشتراكية وعلمانية ولأنها شرَّدت آلاف الفلسطينيين وتركتهم دون مأوى ثم حدث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ليثبت أن إسرائيل أداة فى يد الاستعمار.

والجدير بالذكر أن عددًا من اليهود الناجين من الهولوكوست النازى عبَّروا على صفحات هذه المجلة عن مقاومة اليهود لمظالم النازية كما دعت بعض الأقلام اليهودية إلى إحياء الثقافة العبرية وثقافة اليديش. ولكن الناقد الأنجلو ـ يهودى

البارز دافيد دايتشيس رفض هذه الدعوة واصفًا إياها بأنها أحلام طوبوية وضرب من الخيال وقائلاً إن اللغة العبرية هى مجرد لغة للاستخدام الكهنوتى تمكن العابد من قراءة الكتاب المقدس. وذهب دايتشيس إلى أن الثقافة اليهودية لا تعدو أن تكون ثقافة أقلية فى مجتمع متعدد الثقافات. ولهذا امتزج على الكاتب الأنجلو ـ يهودى أن يستخدم تراثه الثقافى العبرى بطريقة فعالة تمكنه من الوصول إلى القارئ الإنجليزى وبدا واضحًا أن اليهود غير راضين بالمرة عن المواقف العلمانية التى يتخذها الكُتّاب الأنجلو ـ يهود الشبان وخاصة بعد أن أجرى بريان جرانفيل Brian Granville سلسلة من الحوارات نشرها فى الجويش كرونيكل وفى الفترة من ديسمبر ١٩٥٨ حتى يناير ١٩٥٩ مع عدد من الكُتّاب الأنجلو ـ يهود الشبان هم وولف مانكو ويتز وألكسندر بارون Alexander Baron وبيتر شافر Shaffer ودانى أبسن وأرنولد ويسكر وبرنارد كوبس Bernard Kops فقد رفض هؤلاء الكُتّاب الشبان أن يربطوا هويتهم بالدين اليهودى. ولم يكن موقف الكتاب الأنجلو ـ يهود موقفًا غريبًا أو شاذًا لأن مجلة «الجويش كرونيكل» نشرت آراء مماثلة فى وقت لاحق. وعلى سبيل المثال طالب الكاتب الأنجلو ـ يهودى آرثر كيستلر بنى جلدته إما الانصهار فى المجتمع الإنجليزى وتمثل قيمه أو الهجرة إلى إسرائيل.

وفى عام ١٩٥٦ احتفل اليهود الإنجليز بمناسبة مرور ثلاثة قرون على عودة بنى إسرائيل إلى إنجلترا. وتبين من هذا الاحتفال عمق الهوة السحيقة التى تفصل بين الأنجلو ـ اليهود العلمانيين الجدد والجيل السابق عليهم المستمسك بالتوراة. ورأى هؤلاء العلمانيون الجدد أن آباءهم متزمتون وضيقو الأفق وأن استمساكهم بالديانة والتقاليد اليهودية ليس سوى طقوس فارغة من أى مضمون الأمر الذى دعا الحاخام الأكبر عام ١٩٦٧ إلى الانزعاج الشديد. وزاد من انزعاج اليهود المحافظين والمتدينين أن الأنجلو ـ يهود العلمانيين درجوا بعد عام ١٩٦٧ إلى اعتبار إسرائيل دولة احتلال واستعمار.

واللافت للنظر أن الأدباء الأنجلو ـ يهود تعاظم عددهم بشكل لا يتناسب مع أعداد الجالية اليهودية فى بريطانيا التى بلغ عددها بعد الحرب العالمية الثانية أقل من نصف مليون يهودى (٤٥٠ ألف يهودى على وجه التحديد) أى أن نسبتهم لم

تتجاوز ١٪ من إجمالى عدد سكان بريطانيا. ورغم ضآلة عددهم فقد برز منهم أدباء نابهون تربعوا على عرش الأدب الإنجليزى الحديث وفى عقد الخمسينيات من القرن العشرين بزغت فى سماء الأدب الإنجليزى أسماء عدد من نجوم الرواية والمسرح والشعر الأنجلو ـ يهود الأمر الذى يذكرنا بازدهار اليهود ـ الألمان فى ألمانيا السابقة على الحكم النازى وازدهار الأدباء اليهود ـ الأمريكان فى عقد الثلاثينيات وما تلاه. واستطاع هؤلاء الأنجلو ـ يهود أن يتجاوزوا آفاق وطموحات الجالية اليهودية فى إنجلترا وأن ينجحوا فى الوصول إلى عامة القراء الإنجليز بابتعادهم عن معالجة المشاكل الطائفية الضعيفة التى تهم اليهود وحدهم الأمر الذى حدا بالناقد بريان جلانفيل إلى القول بوجود كُتَّاب ومؤلفين أنجلو ـ يهود فى بريطانيا دون وجود كتابات أنجلو ـ يهودية (أى كتابات لا تهم غير الأنجلو يهود.) وإن دل هذا على شىء فإنه يدل على بدء انصهار اليهود على نحو جاد فى الحياة الإنجليزية ورغم ذلك فإن هؤلاء الكتاب الأنجلو ـ يهود كانوا نهبًا مقسمًا بين ولاءين: ولاء لبنى جلدتهم وولاء لبريطانيا وسبب هذا الولاء المزدوج يرجع إلى أنهم لم ينسوا أن موقف الإنجليز من اليهود لم يطرأ عليه أى تغيير جذرى. وبطبيعة الحال دفعهم هذا إلى الإحساس بشىء من الاغتراب كما دفعهم إلى تمحيص هويتهم اليهودية بدقة وفحصها بعين ناقدة دون قبولها على علاتها. وسعى هؤلاء الكُتَّاب إلى الوقوف على الأسباب الحقيقية لشعورهم بالاغتراب، الأمر الذى جعلهم ينبذون أى ارتباط بهويتهم اليهودية بل ديانتهم اليهودية نفسها. ويشخص الناقد ارفنج هاو Irvig Howe حالة هذا الأديب الأنجلو ـ يهودى المغترب فيقول:

«إنه فى العادة يولد من عائلة يهودية مهاجرة ويتأرجح بين جذوره التى لم يعد يقبلها وبين الوضع الذى يرغب فيه ولكنه لا يستطيع الوصول إليه... وهو بطبيعة الحال يعانى من الإحساس بالغربة التى يكابدها جميع اليهود. وحتى فى حالة نجاحه فى فصل نفسه قدر استطاعته عن الحياة اليهودية فإنه يظل تظهر عليه كل علامات القلق وأمارات الألم المحض الناجم عن إحساسه بأنه ليست له جذور وهو إحساس يشاركه فيه جميع اليهود وهو العلامة التى تميزهم عن غيرهم من البشر.

والجدير بالذكر أن هذا الإحساس بالغربة دفع هؤلاء الكُتَّاب الأنجلو ـ يهود إلى تجاوز طموحات بنى جلدتهم والتطلع إلى آفاق عالمية ومجتمعية أوسع وأرحب وتبنى الأفكار العلمانية والكوزموبوليتانية المنفتحة على كل العالم، وبسبب الانتعاش الاقتصادى الذى أصابه أبناء اليهود المهاجرين الأوائل القاطنين فى حى الفقراء فى لندن (الإيست إند) نراهم ينتقلون إلى ضواحى العاصمة البريطانية الأكثر راحة وثراء.

(١) كتاب أنجلو ـ يهود فى الإيست إند (حى الفقراء فى لندن) (ليتفينوف ـ مانكوويتز ـ كوبس)

كان حى الإيست إند (أى حى الفقراء فى لندن) فى الفترة من ١٨٨١ إلى ١٩٠٥ يستوعب نحو ثلثى المهاجرين اليهود البالغ عددهم سنويًا ما بين ألفين وخمسة آلاف مهاجر وكان عدد اليهود المهاجرين فى هذا الحى يفوق بكثير عدد اليهود النازحين عنه إلى أحياء أرقى مثل الإيست إند أو شمال العاصمة نتيجة تحسن ظروفهم المعيشية وبسبب ما عانى منه يهود الإيست إند من الشظف والعوز والقذارة انتشرت منهم الأفكار الثورية والراديكالية انتشار النار فى الهشيم. ولكن النزاع الداخلى دب بين اليهود فانقسموا على أنفسهم بسبب اختلافاتهم الدينية الطائفية واختلاف البلاد التى أتوا منها. فاليهود القادمون من ليتوانيا يناصبون اليهود البولنديين العداء فضلاً عما لقيه يهود هولندا من احتقار شديد وصفه الأديب الأنجلو ـ يهودى زانجُويل فى روايته «أبناء الجيتو» ومع زيادة أعداد اليهود المهاجرين إلى لندن امتد زحفهم بطبيعة الحال إلى مناطق أخرى فى لندن وبسبب تكدس اليهود فى رقعة ضيقة استشرت بينهم الجريمة والانحلال وانتشرت الحشرات والأمراض، فضلاً عن أن جيرانهم الإنجليز شعروا بالتضرر والضيق منهم، وكما سبق أن ذكرنا استن البرلمان الإنجليزى قانونًا يعرف بقانون الأجانب لتحديد أعداد المهاجرين اليهود إلى بريطانيا دون أن يغلق الباب نهائيًا فى وجوههم، ودعا زعماء المؤسسات اليهود فى إنجلترا ممن يتمتعون بالسلطة والجاه بنى

جلدتهم إلى الاندماج فى المجتمع الإنجليزى واستخدام اللغة الإنجليزية بدلاً من لغة اليهود فى أوروبا الشرقية المعروفة باسم البيديش.

وفى الحرب العالمية الأولى امتنعت السلطات الإنجليزية عن تجنيد اليهود الأغراب الأمر الذى أثلج صدور اليهود أنفسهم، وقد عَبّرت صحيفة «الجويش كرونيكل» عن هذه المفارقة وعن اندهاشها من لجوء اليهود إلى إنجلترا ثم تقاعسهم عن الاشتراك فى الحرب دفاعًا عنها. وبطبيعة الحال أثار هذا فى نفوس الإنجليز قدرًا ملحوظًا من العداء ضد السامية. وفى أوائل عام ١٩١٧ قررت الحكومة البريطانية إعادة جميع اليهود الذين رفضوا التطوع للخدمة العسكرية فى الجيش البريطانى إلى موطنهم الأصلى. ولكن المؤسسات اليهودية الرسمية فى إنجلترا كان لها موقف مختلف تمامًا فقد أعربت عن ولائها الكامل لبريطانيا، واستجاب اليهود الإنجليز إلى مناشدات مؤسساتهم الرسمية فأنشأوا فى بداية عام ١٩١٨ أول كتيبة يهودية. وهكذا بدأ الأنجلو ـ يهود يعتبرون أنفسهم مواطنين إنجليز، وكان هذا بطبيعة الحال خطوة واسعة خطاها اليهود الإنجليز على طريق الانصهار فى المجتمع الإنجليزى.

أصدر الأدباء الأنجلو ـ يهود عددًا كبيرًا من الروايات التى تعالج حياة بنى جلدتهم فى حى الإيست إند منها «أبناء الجيتو» (١٨٩٢) لزانجويل «أبناء الميثاق» (١٩٠٠) Children of the Covenant لصامويل جوردن Samuel Yardar و«كُتب المستر موسى الخمسة» (١٩٢٩) Five Books Of M. Moses لايزاك جولر Izak Goller «الولد اليهودى» (١٩٣٥) Jew Boy لسيمون بلو منفيلد Simon Bluman Feld إلى جانب هجائيات كل من جيرالد كيرش Garald Kersh، «وليام (ويلى) جولدمان Willy Goldman، واللافت للنظر أن الجيل الأول من المهاجرين اليهود الذين أخفقوا فى تحسين أوضاعهم الاجتماعية كانوا يحثون أبناءهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لتحقيق ما فشلوا هم فى تحقيقه، غير أن بعض هؤلاء الأبناء لم يعيروا نصائح آبائهم أى اهتمام بل نبذوا يهوديتهم تمامًا مثلما فعل بلومنفيلد وتخلوا عن طموحات ذويهم المادية والاجتماعية وانخرطوا فى المشاكل التى تشغل بال عامة الإنجليز.

وتمثل الرواية التى ألفها وليام جولدمان عام ١٩٤٠ بعنوان «حى الإيست إند» East End My Cradle يهدئ الحالة المزاجية السائدة بين اليهود الإنجليز فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وتصور هذه الرواية التى تم تنقيحها ومراجعتهاعام ١٩٤٧ شارعًا اسمه شارع «ويلك» يقطن اليهود جانبًا منه ويسكن غير اليهود جانبه الآخر. وفى حين كان جيل الآباء يتحمل على مضض إهانات بعض السكارى الإنجليز له نرى جيل الأبناء تأخذه العزة بل والإحساس بإنجليزيته حدًا جعله يثور لكرامته الجريحة، ولهذا فإن الجيل الجديد من اليهود لا يتورع عن الثأر لنفسه بكسر زجاج نوافذ بيوت أعداء السامية المتشككين فى إنجليزيتهم.

وأيضًا شعر جيل الأبناء بالنفور من جمود معتقدات الآباء الدينية وتزمتها الخانق فشق عصا الطاعة عليهم وألحد ضاربًا بالدين اليهودى عرض الحائط. وفَضّل بعضهم لعب الميسر وممارسة الجنس ومشاهدة مباريات كرة القدم والغط فى النوم فى صبيحة أيام السبوت على أداء الصلاة فى المعبد، وأيضًا تدور الرواية على الكساد العظيم الذى أصاب العالم عام ١٩٢٩ فأدى إلى تفشى البطالة بين فقراء اليهود مما زاد من سخط الأبناء على الآباء.

(١) **إيمانويل ليتفينوف** Litvinoff:

ألّف إيمانويل ليتفينوف المولود عام ١٩١٥ رواية بعنوان «الكوكب الصغير» قرأها معلمه فى المدرسة الإلزامية فانتقدها انتقادًا شديدًا بسبب انغماسها فى الممارسات الجنسية ووصفها للقذارة. وأمضى ليتفينوف ستة أعوام فى خدمة الجيش البريطانى فى غرب إفريقيا والشرق الأوسط عاد بعدها عام ١٩٤١ إلى إنجلترا ليكتشف أن القنابل الألمانية دمرت حى الإيست إند بالكامل وحوّلته إلى كومة من الأنقاض، الأمر الذى جعله يشعر أن الماضى ولى ولم تعد له قائمة وأنه على أعتاب زمن جديد. وهو شعور شارك ليتفينوف فيه أدباء أنجلو يهود آخرون أمثال أرنولد «ويسكر» وبرنارد كوبس وهارولد بنتر، وفى عرضه لديوانى الشعر اللذين نظمهما ليتفينوف هما «الجندى غير المجرب» (١٩٤٢) The Untried Soldier و«تاج لقابيل» (١٩٤٦) Acrown For Cain يقول الناقد دانى أبس معلقًا أن ليتفينوف هو أول شاعر يهودى إنجليزى يُعّبر بقوة عن شدة احتجاجه على الحر

وإحباطه منها. وهو يتوجه بخطابه إلى اليهود فى محنتهم. والشاعر هنا لا يستطيع أن يسامح الحضارة المسيحية التى أرسلته إلى الحرب وعرضته للهلاك ليقوم بإنقاذها فى حين أنها لم تتورع عن أن تسوم شعب إسرائيل مُر العذاب على مدار قرون متصلة كما أنه لايغفر لإنجلترا أنها وقفت مكتوفة الأيدى عام ١٩٤٢ وهى ترى السفينة ستروما تغرق وعلى ظهرها أعداد غفيرة من المهاجرين اليهود الفارين من ظلم واستبداد النازية، ويطلب الشاعر من المسيح أن يهبط من أعلى الجبل ومن كبد السماء ليدخل بيته المقفهر الموحش الذى تحول إلى بيت بكاء ونحيب ويعطى البركة لموتاه الذين ضحوا بحياتهم من أجل السلام.

شعر ليتفينوف كما شعر الكثيرون من الأدباء الأنجلو - يهود بأنهم لا يقلون فى إنجليزيتهم عن الإنجليز أنفسهم بل إنهم يفوقونهم فى إنجليزيتهم. ولهذا آلمه كثيراً أن يقرأ زراية ت. س إليوت بهم فى قصيدته «بيربانك» (١٩٢٠) Burbank ورد عليه ليتفينوف محزوناً بقصيدة تفيض بالملامة والتقريع ألقاها فى ندوة شعرية عُقدت فى لندن فى عقد الخمسينيات رأسها الأديب المعروف هيربرت ريد، وحضرها ت. س. إليوت نفسه وطلب ليتفينوف من إليوت اعتذاراً عن عداوته للسامية، ومع ذلك اعترف إليوت بجودة قصيدة ليتفينوف.

وفى الرواية التى ألفّها هذا الكاتب اليهودى عام ١٩٥٩ بعنوان «الأوروبيون الضائعون The Lost Europeans» نراه يُعبّر عن قلقه الشديد من هلاك كل اليهود فى أوروبا كما أنه يقوم فى روايته «جارى» (١٩٦٨) The Man Next Door بفحص وتمحيص العقلية المعادية للسامية.

وفى عام ١٩٥٦ قام ليتفينوف بزيارة موسكو وأخذ من ذلك التاريخ يولى مصير اليهود السوفيت بالغ اهتمامه وشن حملة تأييد ومساندة لهم، ثم صور مؤلفنا معارضة الثوار والمتمردين فى حى الإيست إند فى روايته «موت فى غير موعده» (١٩٧٣) A Death Out Of Season ويذهب المؤلف فى هذه الرواية إلى أن الثورة (الشيوعية) لم تحل مشاكل الفقراء أو اليهود كما أنها فشلت فى تحقيق الاشتراكية التى وعدت بها.

والجدير بالذكر أن هذه الرواية هى الرواية الأولى فى ثلاثيته التى تعالج الثورة البلشفية وما انتهت إليه من حروب أهلية وحملات تطهير وبسبب اهتمام مؤلفنا البالغ بالهجرة إلى إنجلترا نراه يتتبع موجات المهاجرين الجدد من هنود وباكستانيين فى حى الإيست إند فى لندن.

ويتضمن كتابه «رحلة إلى كوكب صغير» (١٩٧٢) Journey Throgh amall Planet جانبًا من سيرة حياته صاغه فى قالب شاعرى.

(٢) وولف مانكوويتز Wolf Mankowitz:

ولد كاتب الإيست إند الهزلى والفكه وولف مانكوويتز عام ١٩٢٤ ولكنه تلقى تعليمه خارج هذا الحى الفقير واشتغل أبوه بتجارة الكتب القديمة المستعملة فضلاً عن أن كاتبنا نفسه اشتغل بائعًا فى سوق الشارع قبل حصوله على منحة دراسية مكنته من استكمال تعليمه فى كلية داونج بكامبريدج. ثم أصبح كاتب سيناريوهات للأفلام، إلى جانب نجاحه فى تجارة الأوانى الفخارية لدرجة أنه صار خبيرًا فى فازات البورتلاند، وعلمّته التجارة فى الأسواق أن يولى الزبون شديد عنايته واهتمامه. واعتبر أن الشرير هو الذى يعقد الصفقات بقلب بارد وميت يخلو من المشاعر والأحاسيس، مثلما يفعل تجار العاديات والتحف القديمة فى الرواية التى ألفّها عام ١٩٥٢ بعنوان «اعطنى هدية» Make Me an Offer ورغم أن كتابته تتسم بالدعابة والفكاهة والسخرية فإنها لا تخلو مطلقًا من الود والحب، كما أنه يجيد السرد الروائى بشكل غير عادى، ويستخدم لغته بطريقة فنية قريبة من لغة البيديش التى يستخدمها اليهود فى حى الإيست إند، ورغم أنه لا يثق فى الله أو الإنسان فإنه يؤكد إمكانية وجود الخير فى الطبيعة البشرية ويتجلى لنا هذا فى روايته «طفل للبيع مقابل مليمين» (١٩٥٣) A kid for two Farthings التى تدور حول إمكانية وجود الخير رغم ضعف هذه الإمكانية وفى عام ١٩٥٥ ألف مانكوويتز مسرحية من فصل واحد بعنوان «المعطف» The Bespoke Ouercoat تدور حول ارتباط اليهود بمهنة الترزية وتبرز فكرة التواضع فى بعض أعمال مانكووتيز الأدبية مثل حكايته الخرافية المنشورة عام ١٩٥٥ بعنوان «الضحك حتى البكاء» Laugh till You Cry التى تهاجم الغرور والزهو بالسلطة والجرى وراء النجاح المادى كعادة اليهود.

وأيضًا ألّف مانكوويتز حكاية خرافية عام ١٩٦٥ بعنوان «أكبر خنزير فى باربادوس» The Biggest Pig in Barbades استمدها من العهد القديم واستخدم فيها لغة البيديش السائدة بين عوام اليهود. يقول المؤلف إنه قصد بهذه الحكاية إدخال التسلية فى نفوس قرائه. ولكن الرواية تتجاوز التسلية لتصور مشاكل اليهود وصراعاتهم.

والجدير بالذكر أن هناك جانبًا فلسفيًا فى أدب مانكوويتز حيث إنه معنى بالبحث عن الله مثلما يفعل ليو بوتفينيك فى كتابه المنشور عام ١٩٥٧ بعنوان «حريق مندلمان» The Mendelman Fire ويلخص مؤلفنا الهدف من وراء روايته فيقول: «أعتقد أن المرء يستطيع الوصول إلى الله عن طريق توسيع الحياة والاستمتاع بلذات الحواس ودهشة البصر والسمع والذوق واللمس والشم أو من خلال ممارسات معينة تجلب اللذة مثل ممارسة الجنس مع من تعشق أو مثل رفع العقيرة بالغناء أو أن ينخرط الإنسان فى عمل يروق له، وبهذه المناسبة أحب أن أقول إن نظم الشعر هو نوع من الشدو والغناء كما أنه نوع من العمل الجميل يسمى الأشياء بأسمائها مثل الريف والنجمة والزهرة والطفل الرضيع فهى فى نهاية الأمر نوع من العبادة.

وقد وصل المؤلف إلى هذه الحكمة نتيجة العيش على نحو مكثف فى حى الإيست إند فى لندن دون الاكتراث بالطقوس اليهودية التى تمثل على حد قوله «عائقًا أمام التقييم الحقيقى لحقائق الفلسفة الأساسية».

ويرى بعض الدارسين أن مؤلفنا نجح فى اختزال تجاربه فى الحياة اليهودية التى عاشها فى طفولته وعداوة السامية وتراث البيديش والأخلاق اليهودية وتقديم عصارتها من منظور يتجاوز الآفاق العرقية المحدودة.

٣ ـ برنارد كوبس Barnard Kops:

وُلد برنارد كوبس عام ١٩٢٦ وشب وترعرع فى شوارع الإيست إند فى لندن واشتغل فى أحواض السفن ورئيس طباخين وبائعًا وجرسونًا وعامل مصعد قبل أن يتوجه إلى الكتابة والتأليف، ويتضمن كتابه الذى ألفه عام ١٩٦٣ سيرة حياته التى

يصفها بعض النقاد بأنها صرخة ألم، هاجر أبوه من هولندا إلى إنجلترا ليكسب قوته عن طريق إمداد الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى بأوعية الماء المصنوعة من الجلد، وفى فترة الكساد العظيم عاش أبوه الكثير الإنجاب فى إملاق شديد فقد كان أطفاله السبعة ينامون على سريرين منفردين فى حجرة شديدة القذارة فوق سطح أحد البيوت. وعاشت هذه العائلة المعدمة على الإعانة التى تصرفها الحكومة. وبلغ إملاقها حداً جعلها ترهن أحذيتها فى وقت الشدة.

وعلى الرغم من ذلك فإن برنارد كوبس يؤكد لنا أن عائلته عاشت فى هناء وسعادة وتماسك وتضامن وروح جماعية كالتى تسود المجتمعات الريفية فضلاً عن إحساسها بالطمأنينة والأمان، ورغم فقرها المدقع حرصت العائلة على شراء الشموع والقناديل كى تشعلها فى ليالى الجمع احتفالاً بقدوم أيام السبوت. ومع ذلك فقد اعتاد والده أن يقول إنه كان أفقر من أن يستطيع الإيمان بالدين. الأمر الذى جعل مؤلفنا يصف أباه بأنه «ملحد من نوع غريب» كانت العائلة ترى أن الدين يمكن فى تضامنها وتماسكها. وفى طفولته تعلق مؤلفنا بأمه وازور عن أبيه الأمر الذى جعله يعانى من عقدة أوديب، فأحب رائحة شعرها والتصق بجسدها كلما رافقها فى نفق . ومن ناحيتها كانت الأم دائمة القلق والخوف على سلامة أبنائها لدرجة أنها لم تجرؤ على فراقهم أو البعد عنهم لحظة واحدة. وبسبب حبها الجارف كالسيل الكاسح أحس كوبس فى حداثته بالاختناق والرغبة فى الهرب من البيت. ولم يمنعه من الهرب غير أنه لم يكن يعرف أين يذهب. ولم يجد هذا الغلام المتعطش إلى الجنس والذى انتشرت البثور فى وجهه مفراً سوى الكتابة ونظم القصائد ونبذ المواضعات الاجتماعية التى آمنت بها أمه كما أنه نبذ فكرة الزواج التقليدى من امرأة يهودية. ووجد هذا الشاب العدمى والمتمرد نفسه يسقط فى هوة سحيقة من الفسق والإنحلال والفاقة ولكن الشعور بالذنب غمره لأنه رأى أمه تتلظى من العذاب بسبب فجوره ومسلكه المعوج.

وظل يعانى معاناة شديدة من هذا الإحساس بالذنب حتى بعد وفاتها. ولم يتحمل الفتى الصراع الطاحن داخله فأصابه انهيار عصبى دخل على إثره إحدى المصحات النفسية. وأثناء تماثله للشفاء فى المصحة النفسية اكتشف وجود الحب

والحنان فيها، وأيضًا اكتشف رغم حالة الضياع التى يعيشها وجود هدف أخلاقى فى الحياة. يقول مؤلفنا عن حالة البؤس التى عاشها:

«لم يكن هتلر نهاية الأشياء بل كان بدايتها؛ فالإنسان يعيش وحيدًا بدون الدين أو بدون الله... وحيدًا وحدة مروعة. وأحسست بالعار الفظيع وأنا أرى الأطفال فى وارسو يبكون وأرى دموع أمى تسيل على خديها والعار على وجهها بسبب عدم مبالاتى».

ولهذا كان من الطبيعى أن يعتقد كوبس أن الصهيونية واليهودية كليهما لا تقدمان حلاً. وكان من حسن حظه أنه التقى بامرأة يهودية تدعى إريكا تفكر بنفس طريقته. فهى أيضًا ترفض التقاليد والمواضعات والقيم التقليدية. فلا غرو إذا رأيناها تضحى بمستوى حياتها البرجوازى وتقبل الزواج من هذا الشاب المفلس فى معبد يهودى فى الإيست إند لتنجب له ابنًا يسميانه آدم ينشأ فى جو تسوده أزمة العدوان الثلاثى على مصر وأزمة اندلاع ثورة المجر التى سحقها السوفيت بكل قسوة ووحشية.

والجدير بالذكر أن كوبس يعالج فشل الاشتراكية وخيبة أمل المؤمنين بها فى كتاباته كما أنه يقترب كثيرًا من أدب اللامعقول المتمثل فى عبثية يونسكو وبكيت.

والرأى عنده أننا جميعًا شركاء فى الجريمة ومذنبون فنحن جميعًا قادرون على ارتكاب الجرائم النازية ورغم ذلك فإننا نحب أن نظهر بمظهر الضحايا.

وفى عام ١٩٦٥ ألّف كوبس رواية بعنوان «نعم فى أرض ليست لها جنسية أو هوية» Yes From No-mans Land تدور أحداثها حول رب عائلة يهودية عجوز يحتضر وتتفكك عائلة هذا اليهودى المحتضر فيتزوج ابنه من امرأة غير يهودية من منطلق إيمانه بالأخوة الإنسانية فى حين يكفر ابنه الآخر بالاشتراكية والإنسانية ويقرر الهجرة إلى إسرائيل. وتدور هذه الرواية حول وحدة الإنسان ووحشته واغترابه.

وفى عام ١٩٦٦ ألّف كوبس رواية بعنوان «انشقاق دومينيك شابيرو» The Dissent Of Dominiek Shapiro تدور حول الفراغ الروحى الذى يضنى الإنسان

ويعذبه ويدفعه إلى الإيمان بالدين. ثم ألفّ عام ١٩٦٩ رواية بعنوان «بجوار مياه هوايتشايل» By the Waters of Witechapel تتضمن مضامين فلسفية وأخلاقية وتعالج موضوع معاداة السامية. والجدير بالذكر أن كوبس ألّف عام ١٩٥٦ مسرحية كوميدية ذاع صيتها تحت عنوان «هاملت فى ستيفنى جرين» the Hamlet of Stepney Green التى تبكى على اندثار حى الإيست إند فى لندن. وليس أدل على شدة اهتمامه بهذا الحى الفقير أن روايتيه «الدخول إلى سولى جولد» (١٩٦١) Entef Solly Gold «استقرار سيمونى كاتز (١٩٧٣) Settle Down Simon KatY تدوران بشكل أو آخر حول هذا الحى وكما رأينا يعالج كوبس فى أدبه عقدة أوديب التى يعانى فيها الذكور فى العائلات اليهودية حيث نرى حب الأمهات المدمر لأبنائهن. وهو حب يتعاظم ويزيد عَن حده بسبب ما تراه هذه الأمهات حولهن من معادة للسامية الأمر الذى يدفعهن إلى حماية أطفالهن بطريقة مرضية ومبالغ فيها.

أشرنا إلى أن أقدام كوبس ترسخت فى عالم الأدب عندما أصدر مسرحيته «هاملت فى ستيفنى جرين» التى سبق ذكرها ومرة أخرى نلتقى فى هذه المسرحية بالأم التى تحب ابنها حبًا خانقًا إلى حد المرض وأيضًا تتناول مسرحيته «يدخل سولى جولد» (١٩٦١) Enter Soeey gold نفس هذا الموضوع. يقول المؤلف عن مسرحياته: «إن كل مسرحياتى تدور حول العلاقات الأسرية. فهذه هى الموضوعات التى تسيطر على عقلى. «وهو ما يتجلى على سبيل المثال فى المسرحية التى ألفها عام ١٩٦٠ بعنوان «حلم بيترمان» the Dream of Peter Man. غير أن مضمون هذه المسرحية وغيرها من المسرحيات التى ألفها مثل «عائلة لمنجز» The Lem-mings تمتد إلى ما هو أبعد من عقدة أوديب وحب الأم المدمر لأبنائها فهى تقدم تحليلاً للمجتمع كله وما يتهدده من خطر التفكك والتكامل علمًا أن صور الانتحار تتردد كثيرًا فى إنتاج كوبس المسرحى، وأيضًا تشيع فى أعماله صور المجتمعات التى تتحلل إلى حد الموت والاندثار مثلما نرى فى روايته «البيت الحلو» (١٩٦٣) Home Sweet Honey Comb.

والجدير بالذكر أن المراهقين فى أدب كل من الأديبين برنارد كوبس وإيمانويل ليتفينوف يجسدان نفس الحداثة والمعاصرة التى نجدها فى شخصية شكسبير

المعروفة هاملت كما يجسدون نفس الشك والتردد اللذين يشلان قدرة الإنسان على الفعل ووضع الفكر موضع التنفيذ.

إن كوبس أسهم فى إنشاء نوع جديد من المسرح أطلق عليه النقاد «دراما بالوعة المطبخ» أى دراما القذارة والوساخة التى تتناول قاع المجتمع والشخصيات المنحدرة من أسفل درك اجتماعى فضلاً عن أنه حذر فى أدبه من قيام هولوكوست نووى يعصف بالجنس البشرى بأسره.

(٤) أرنولد ويسكر Arnold Wesker:

الكاتب المسرحى أرنولد ويسكر أهم الأدباء الأنجلو ـ يهود الذين نشأوا فى حى الإيست إند فى لندن. وهو الحى الذى حولته قنابل هتلر إلى كومة من تراب. وعلى أية حال لم يشعر الأنجلو ـ يهود باختلافهم عن الإنجليز إلا حين شبوا عن الطوق وخرجوا من الحى للبحث عن لقمة العيش. وإذا عنّ لنا أن نعتبر أعمال الأدباء الأنجلو ـ يهود الذين سبق لنا الإشارة إليهم نوعًا من التوثيق الاجتماعى للحياة فى حى الإيست إند فإن الأهمية الحقيقية لهذه الأعمال ترجع إلى ما تنطوى عليه من قيمة أدبية وفنية، ورغم أن الأطفال اليهود لم يقابلوا عداوة السامية وجها لوجه إلا بعد خروجهم من الحى بحثًا عن عمل يقتاتون منه فإن اليهود الساكنين فى هذا الحى ـ صغارًا وكبارًا ـ شعروا بالتهديد المباشر لهم وبالأخطار التى تحدق بهم عندما رأوا موسلى زعيم المنظمة الفاشية فى إنجلترا يزحف على رأس حشد غفير من لابسى القمصان السوداء الفاشية على حى الإيست إند عام ١٩٣٦ وهم يتوعدون بالقضاء على اليهود الأمر الذى دفع الكثيرين منهم إلى اعتناق الشيوعية وتصور مسرحية أرنولد ويسكر «شُربة دجاج بالشعير» Chieken Soup with Barley. عمليات الاعتداء على اليهود وإلقاء طفلة يهودية لا يتجاوز عمرها سبع سنوات من النافذة، ولا شك أن قنابل هتلر التى دكت حى الإيست إند أدت إلى جلاء كثير من اليهود عنه فضلاً عن أنها دفعتهم إلى التكاتف مع الإنجليز لمحاربة هتلر عدوهم المشترك.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها نزح يهود كثيرون إلى شمال لندن

ليسكنوا في هاكني ودالستون وستامنورد هيل توطئه للاستقرار في مناطق سكنية أفضل وشبيهة بالريف مثل جولدرز جرين. ونحن نرى ليتيفنوف في أدبه يستعيد فترة طفولته التي قضاها في هذا الحي قبل نشوب الحرب العالمية الثانية كما أن الأديب كوبس صوّر في أدبه ما حدث لليهود الذين استمروا يقطنون حي الإيست إند بعد انتهاء هذه الحرب. وفي الفصل الأول من المسرحية التي ألفها أرنولد ويسكر عام ١٩٥٨ بعنوان «شربة دجاج بالشعير» (هي الجزء الأول من ثلاثية مسرحية) نشاهد وصفًا مباشرًا للتفكك الذي أصاب حي الإيست إند واندثاره. وفي الفصل الثاني من هذه المسرحية ينتقل عدد من سكان الحي إلى هاكني في شمال لندن للعيش في شقق تابعة للمجلس البلدي. وهي مساكن أفضل من مساكنهم القديمة في حي الإيست إند. ومعنى ذلك أن اليهود استفادوا من التحسن العام في مستوى المعيشة في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية. ويتناول الجزء الثاني من ثلاثية ويسكر وهو بعنوان «الجذور» Roots رحلة قصيرة غير مكتملة يقوم بها مثقف يهودي من الإيست إند إلى عائلة يهودية من الطبقة العاملة في الريف تعيش في منطقة نوفورك قبل أن تقطع الوشائج التي تربطها بالماضي.

ولد أرنولد ويسكر في ستنى عام ١٩٣٢ ومن ثم فهو أصغر كُتّاب الإيست إند سنًا. وتلقى تعليمه في ستنى وهاكني ثم أكمل تعليمه في مدرسة أبتون هاوس الرئيسية في هاكني حيث درس المحاسبة والاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة. والتحقت أمه بخدمة المطابخ كي تعين عائلتها على العيش، وكان والده المولود في روسيا يعمل ترزيًا غير أنه ظل عاطلاً معظم الوقت. وبعد تخرجه في المدرسة اشتغل أديبنا صبي نجار موبيليا وصبي سباك وعاملاً في مزرعة وشيالاً في مطبخ وصانع فطائر.

يذكر ويسكر أنه رأى أهله يكابدون البؤس والشقاء في حي الإيست إند ولكنه شخصيًا كان يتوق إلى الأيام التي قضاها في هذا الحي. يقول ويسكر في هذا الصدد: «إن حي الإيست إند كان بمثابة الشرك الذي يقع فيه المرء حين تجرفه العواطف الجياشة الخادعة فيشعر بالشوق المريح إلى (أيام الزمن الجميل). إنني أعني بذلك أنه يمكن أن أكون قد أحببت هذا الحي وتناولته بالحب في كتاباتي.

ولكن عائلتى لا تذكر أيامها فيه إلا بالبؤس والشقاء. ويجوز أن الحنين انتابنى وادخرت الماضى كما لو كان زادا أوفره لوقت المجاعة. غير أن الأمر بالنسبة لهم كان مختلفًا.. كان مختلفًا».

ولا يعتقد ويسكر أن الفقر الذى عانى منه فى طفولته هو السبب فى اعتناقه للمذهب الاشتراكى ويؤكد أنه تعلم التمرد وهو يرضع من ثديى أمه. أى أن تمرده فطرة وليس شيئًا مكتسبًا.

لم تكن عائلة ويسكر تهتم بالدين اليهودى ومع ذلك فقد التحق فى سن الرابعة عشرة بحركة الشبان الصهاينة. وأيضًا نظم ويسكر فى سن مراهقته شعرًا على غرار شعر ديلان توماس كما أنه ألّف فى فترة التحاقه بسلاح الجو البريطانى فى الفترة من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ رواية «القصبة التى التوت» the Reed that Bent ثم قام فى عام ١٩٦٢ بتحويلها إلى مسرحية بعنوان «بطاطس محمرة» Chips with Every Thing.

اتجه ويسكر إلى الكتابة للمسرح لأنه كان يهوى التمثيل ولأن مسرحية أوزبورن «انظر وراءك فى غضب» شحذت همته لكتابة المسرحيات. وتمكن أن يدخر المال الذى يكفيه للالتحاق بمدرسة لندن للتكنيك السينمائى.

وهناك قابل الأديب ليندساى أندرسون Lindsay Anderson الذى له الفضل فى ذيوع اسمه. وفى عام ١٩٥٣ شرع فى كتابة مسرحية بعنوان «وبعد اليوم» And After today التى ضمن بعض أجزائها فى مسرحية «شوربة دجاج بالشعير» التى بدأها عام ١٩٥٧ ليقدمها مع مسرحيتى «جذور» و«أنى أتحدث عن أورشليم» على خشبة مسرح بلغراد فى كوفنترى قبل أن يتولى مسرح الرويال كورت تقديمها. والجدير بالذكر أن مسرح الرويال كورت قدم لأول مرة مسرحية «المطبخ» The Kitchen. ويعبر أدب ويسكر عن الغربة وهو أدب باعتراف مؤلفه أشد ما يكون ارتباطًا بالسياسة. فضلاً عن أن ثلاثيته المسرحية تتضمن جانبًا من سيرة حياته.

وفى عام ١٩٥٨ تزوج ويسكر من صديقته التى تنحدر مثله من الطبقة العاملة وأتم تأليف مسرحية «جذور» بعد الزواج. ومن الواضح أن مسرحياته تعكس انتماءه

إلى حى الإيست إند فى لندن. وتصادف أن يكون افتتاح «شربة دجاج بالشعير» يوم ٤ أكتوبر ١٩٣٦ وهو نفس اليوم الذى زحف الفاشستى الإنجليزى موسلى على رأس جماعة من أتباعه للاعتداء على اليهود فى حى الإيست إند. ورغم إيمان مؤلفنا بالاشتراكية فإنه لا يخفى شكوكه فى القائمين بها والداعين لها مثلما حدث فى الاتحاد السوفيتى. ومع ذلك فإن البعض يركب رأسه ويحتفظ بإيمانه بالشيوعية رغم الوحشية التى سحق بها السوفيت ثورة المجر فى عام ١٩٥٦. وتبرز أحداث هذه المسرحية فكرة مفادها أن حى الإيست إند يسوده البؤس والشقاء ولكنه يؤلف بين قلوب القاطنين فيه ويشعرهم بدفء الأمومة وحنانها.

ويذهب ويسكر إلى أن مسرحيته «جذور» مسرحية يهودية لأنها تعبر عن حاجة الإنسان عامة واليهود خاصة إلى أن تكون له جذور تمامًا مثل الأشجار والخضراوات والنباتات، ورغم التحسن الواضح فى مستوى معيشة اليهود فى الإيست إند بعد الحرب العالمية الثانية فإن مؤلفنا يعيب عليها غنائتها الثقافية وضحالتها الفكرية. فضلاً عن أنها حياة أشبه ما تكون بالآلة، وتتضمن مسرحية «المطبخ» ما يشوب الحياة الحديثة من آلية، وكذلك تبرز مسرحية «بطاطس محمرة مع كل شىء» الدور الذى تلعبه السلطة فى إخضاع الأفراد وتحويلهم إلى أدوات مطيعة أشبه ما تكون بحياة السوائم. والمطبخ فى نظر ويسكر يمثل براعة الطباخ وفنه فى صنع الفطائر على عكس الآلة التى تصنعها بلا ذوق أو فن أو جهد خلاق.

وقد عَبّر ويسكر عن رغبته فى تثقيف الجماهير ثقافة حقيقية فى كتابه «مخاوف من التفكيك» (١٩٧٠) Fears of Frag mentation. وهو يقول فى هذا الصدد أن أوزبورن الذى أطلق صيحة احتجاج عالية ومدوية لم ينجح فى تغيير المجتمع لأنه ما من أحد يريد حقًا الإطاحة بالنظام القائم. ولهذا فالحواجز الثقافية بين الطبقات لاتزال عالية. والرأى عنده أن اتحاد النقابات هو المسئول عن هذا الوضع، وبالفعل استجابت نقابات العمال فى بريطانيا له فأصدرت فى المؤتمر الذى عقدته فى هذا الشأن قرارًا بإنشاء لجنة تقصى الحقائق لمعرفة الأسباب التى تحول بين الطبقات الكادحة والثقافة الراقية. ولكن توصيات هذه اللجنة ما لبثت أن وضعت على الرف ومع ذلك فقد اشترك ويسكر مع كل من كويس ودوريس لسنج فى وضع

خطة تهدف إلى تثقيف الجماهير، الأمر الذى أثار اهتمام هارولد ويلسون رئيس الوزراء ولكن التمويل وقف عائقًا أمام التنفيذ والسؤال الذى يشغل بال ويسكر ويطرحه دائمًا: إذا منيت المثل العليا بالفشل فهل نيأس من هذه المثل العليا أم نيأس من أصحابها؟ ونحن نطالع أصداء لخيبة أمل ويسكر فى إزالة العوائق التى تحول بين الجماهير العريضة وبين استمتاعها بالفنون الراقية فى المسرحية التى ألفها عام ١٩٦٥ بعنوان «المدينة الذهبية الخاصة بهم» Their Very Own and Yolden City. ويأسى ويسكر لما يراه من آلية الحياة التى يحياها الإنسان الحديث فى مسرحيته «الأربعة فصول» (١٩٦٥) the Four Seasons الأمر الذى يؤكد عدم حدوث أى تغيرات حقيقية ذات مدلولات اجتماعية عميقة فى المجتمع الإنجليزى.

ويتناول ويسكر فى مسرحياته التالية «الأصدقاء» (١٩٧٠) the friends و«كبار السن» (١٩٧٢) the old ones و«خطابات غرام على ورق أزرق» (١٩٧٧) love letters on blue paper مشكلة المسنين الذين يتقدم بهم العمر وفساد الذوق العام والإخفاق فى الارتقاء به كما أنها تعالج الشروخ التى تصيب نفس اليهودى المثالى حين يرى أفكاره المثالية تذهب أدراج الرياح.

وتعتبر الحرب العربية ـ الإسرائيلية التى نشبت عام ١٩٦٧ نقطة تحول فى مواقف ويسكر السياسية. فقد تجلت مساندته لإسرائيل على نحو ليس له فى حياته نظير. فقد أحزنه كثيرًا أن يرى هذه الدولة الصغيرة مهددة بهولوكوست عربى جديد. واشتد تعاطفه بهذه الحرب لدرجة أنه شعر بالانتماء إلى إسرائيل ومسئولاً عن حمايتها. وتعتبر «كبار السن» أول مسرحية يهودية يكتبها ويسكر ويضمنها مصادر ورموزًا يهودية وليس مجرد الإشارة العابرة إلى نشأته اليهودية كما يحدث فى بعض مسرحياته الأخرى.

وفى عام ١٩٧٤ ألفَ ويسكر مسرحية بعنوان «الصحفيون» بناء على دراسة أجراها على صحيفة «الصنداى تايمز» الأسبوعية، وتدور هذه المسرحية حول الدور الذى تلعبه الصحافة فى تشويه الحقائق وتسطيح عقليات عامة القراء. ويلاحظ أن العنصر اليهودى فى مسرحية «الصحفيون» ليس بارزًا كما هو الحال فى مسرحية «المطبخ».

وإلى جانب مسرحياته الّف ويسكر عددًا من القصص القصيرة فى الفترة من ١٩٦٦ حتى ١٩٧٧.

وفى عام ١٩٧٦ الّف ويسكر مسرحية بعنوان «التاجر» the Merchant وهى صياغة جديدة لمسرحية شكسبير المعروفة «تاجر البندقية» وقد سبق أن ظهرت صياغات أخرى لنفس المسرحية تهدف إلى إضفاء الطابع الإنسانى على شخصية شيلوك اليهودى. ومن أبرز الصياغات المتعاطفة مع شيلوك تلك التى قدمها الممثل كين Kean على خشبة المسرح فى القرن التاسع عشر. ثم جاء ويسكر ليؤكد لنا خلو شكسبير من الإنسانية خلافًا لما يذهب إليه عامة الدارسين.

ولهذا السبب أجرى ويسكر تغيرات جوهرية فى النص الشكسبيرى. فنحن على سبيل المثال نعرف أن شيلوك يقول من المنظر الأول من الفصل الثالث: «أو ليس لليهودى عينان؟ أليست له يدان؟....» ليبرهن أنه إنسان مثل سائر البشر. غير أن ويسكر فى مسرحية «التاجر» أورد هذه الكلمات على لسان لورنزو للرد على اتهامه بمعاداة السامية. ويدافع شيلوك عن نفسه بقوله إنه لا يحق لأحد أن ينزع عنه انسانيته فهى حقه الطبيعى وليس منة من أحد. وأيضًا يُعّبر شيلوك عن برمه الشديد من معاملة الناس له كعدو أجنبى تشوبه كل الموبقات والعبر، وبهذا يصبح إصراره على أخذ حقه كاملاً (أى رطل اللحم من جسد المسيحى أنتونيو) نوعًا من الدفاع عن مصالح المجتمع اليهودى كله وليس ضربًا من الخسة والنذالة. ويحمل ويسكر المجتمع وزر ما يقع على اليهودى من خسف واضطهاد وكذلك تصويره كبعبع يدخل الرعب والفزع فى قلوب المسيحيين الأبرياء.

وأيضًا يقوم ويسكر بتغيير الدور الذى تلعبه بورشيا فى «تاجر البندقية» فهى لم تعد المرأة المسيحية التى تدين شيلوك وتصدر ضده الأحكام بل هى امرأة تحتقر أعيان البندقية ووجهاءها لأنهم لا يدركون أن الوقت قد آن كى يقوموا بتغيير القوانين الجائرة فى هذه المدينة. ولا يقتصر هجوم ويسكر على البندقية وقوانينها بل يمتد إلى النظام الرأسمالى برمته ومفاهيم الغرب القاصرة عن العدالة. ويسترجع ويسكر تاريخ اليهود فى القرون الوسطى وهو يرسم صورة جديدة لشخصية شيلوك، فهو عند ويسكر يسكن فى الجيتو اليهودى الذى يغلق أبوابه عند

حلول الظلام. وعندما تدق الأجراس مؤذنة بذلك يقوم أنتونيو بتذكير شيلوك أن الوقت قد حان كي يعود إلى الجيتو ويلبس القبعة الصفراء التى تميزه عن غير اليهود.

إن مأساة اليهودى فى نظر مؤلفنا تكمن فى أنه صار حبيس التاريخ الذى وضعه فى قفص لا يستطيع الفكاك منه. فهو على الرغم من النهضة الأوروبية الداعية إلى الاستفادة والتسامح لايزال فى نظر العالم ذلك المرابى الجشع الذى لا هم له سوى امتصاص دماء الفقراء.

إن ويسكر استبدل المرابى اليهودى الجشع التقليدى بيهودى جديد يحب البشر ويؤمن بالأخوة الإنسانية ويسعى لهداية الناس إلى الإيمان برب واحد لا شريك له. هذا اليهودى ينحدر من شعب الله المختار.

يقول شيلوك فى مسرحية ويسكر: «إننى مختار ويجب علىّ أن أؤمن بالدين» فاليهودية والتدين وجهان لعملة واحدة. وأيضًا تقول المسرحية: «التدين.... لايمكن لليهودى أن يكون يهوديًا إلا إذا كان متدينًا... حتى اليهود بيننا الذين لا يؤمنون بالدين تساورهم شكوك معتمة بأن الله يثق فينا».

وفى مسرحية ويسكر يصر أنتونيو المسيحى على توقيع صك أو عقد مع شيلوك حسبما تقتضى بذلك قوانين مدينة البندقية على الرغم من أن شيلوك لا يرى ضرورة لإبرام هذا العقد وعلى استعداد لإقراض أنتونيو مجانًا وبواقع الصداقة. ولكن أصدقاء أنتونيو يقومون بتحرير العقد على سبيل المزاح ويشترطون فيه حق شيلوك فى اقتطاع رطل لحم فى جسد أنتونيو إذا عجز عن الوفاء بدينه دون أن يخطر على بالهم العواقب المأساوية الناجمة عن تنفيذ هذا الشرط الهازل ويعجز أنتونيو عن سداد دينه عندما تتعرض سفنه المحملة بالبضائع للهجوم والضياع وأخيرًا تنفتح عينا أنتونيو على حقيقة غابت عنه طيلة الوقت وهى فساد وجور قوانين البندقية وضرورة تغيرها. وفى مسرحية ويسكر نرى العقاب ينزل باليهودى أيضًا فقد آلت ممتلكاته وأمواله وكتبه إلى الدولة. ولم تنفعه مثاليته ورغبته فى تحقيقها فى شىء فقد هربت ابنته جيسيكا كى تتزوج من لورينزو المسيحى الذى

يشترط عليها التحول إلى المسيحية ولكنها ترفض، وفي محنته يستعد شيلوك للحج في أورشليم بعد أن تبين خطأ اعتقاده بأن المثل العليا حقائق يمكن تنفيذها على أرض الواقع. وهو نفس الموضوع الذى تعالجه مسرحية «حفل الزفاف» (١٩٧٤) the wedding feast التى استقاها ويسكر من قصة قصيرة ألفها دستيوفسكى بعنوان «قضية مشينة» A disgraceful affair. ويبدو أن ويسكر يرى أن اليهودية جزء لا يتجزأ من كيان اليهودى لا ينفع فيه الزواج من غير اليهود أو الانصهار فى المجتمعات غير اليهودية، والأهم فى كل هذا أن الحياة البرجوازية فى شمال غرب لندن لم تنسه قط حياة اليهود في شرق لندن فى الحي المعروف بالإيست إند.

(٢) كتاب أنجلو-يهود من شرق وشمال شرق لندن

(هارولد بنتر وبيتر شافر).

تقع منطقة هاكنى Hacknay قريبة للغاية من حى الإيست إند. وفى عام ١٩٣٨م بلغ عدد سكانها اليهود خمسين ألف نسمة. وهى أرقى نوعا ما فى مستواها الاجتماعى من حى الإيست إند. ولكنها أدنى بكل تأكيد من كل من جولدز جرين وادجوار، كان اليهود فى منطقة هاكنى الأفضل أقل تضامنًا وتماسكًا من حى الإيست إند الأفقر، وفى حين كان يهود الإيست إند لا يتزوجون من غير اليهود نجد أن يهود هاكنى لا يجدون غضاضة فى الزواج من غير بنى جلدتهم. وفى هاكنى اشتغل عدد متزايد من اليهود كترزية وسائقى سيارات أجرة. ورغم زعمهم بأنهم لا يعرفون التحيزات العنصرية فإنهم كانوا يزدرون المهاجرين السود الجدد. ويبدو أن إحساس يهود هاكنى بالأمان أقل بكثير من إحساس يهود الإيست إند به. ويتجلى لنا هذا فى الرواية التى ألفها رولاند كامبرتون تحت اسم مستعار هو هنرى كوهين Henry Cohen بعنوان «المطر يسقط على الرصيف» (١٩٥١م) -Rain on the Pave ment وهى تدور حول مخاوف اليهود الصبيانية التى تنتابهم عندما يتركون حى الإيست إند الأليف إلى قلوبهم.

ويلاحظ أن أدب كل من وولف مانكويتز وبرنارد كوبس وأرنولد وسكر يختلف عن أدب هارولد بنتر فى أن البصمة اليهودية جلية واضحة عندهم فى حين أنها غير واضحة بالمرة فى أدب بنتر الذى ينكر وجود أى انتماءات أو مضامين سياسية ودينية فيه.

(١) **هارولد بنتر** Harold Pinter:

وُلد هارولد بنتر فى أكتوبر عام ١٩٣٠م وعاش فى منخفضات هاكنى حتى تم

أجلاؤه منها بسبب الحرب عام ١٩٣٩م. وكترزي سيدات بذل والده جهدًا مضنيًا في عمله. ورغم ذلك فإنه لم يتمكن من الاحتفاظ باستقلاله الأمر الذي اضطر إلى العمل تحت إمرة شخص آخر. وقد تركت منطقة هاكني القبيحة والقاحلة والكئيبة أسوأ الأثر في طفولة مؤلفنا فهو يقول:

كنت أسكن بيتًا من الطوب على طريق تيسيلويت بالقرب من بركة كلابتون التي تحتوي على عدد قليل من البط. كانت منطقة عمالية بها بيوت كبيرة ومهدمة من الطراز الفيكتوري ومصنع صابون تنبعث منه رائحة فظيعة الى جانب عنابر سكة حديد كثيرة، وأيضا كان بها دكاكين. كثير من الدكاكين كما كان هناك نهر اسمه نهر لي أسفل الطريق وبالقرب من البيت، وهو رافد من روافد التيمس وفي نهاية ميلين من هذا الرافد يجد المرء نفسه في مستنقع راكد وقريبًا من ترعة قذرة أيضًا، وكان هناك مصنع فظيع لا أعرف نوعه ارتفعت منه مداخن ضخمة قذرة تخرج منها أشياء تسقط في هذه الترعة.

وأوضح الناقدان بيكر Baker وتاباتشينيك Tabachnick أهمية منطقة هاكني لفهم خلفية مسرحياته. كما أن زميل بنتر في الدراسة واسمه باري سابل Barry Supple لفت أنظارنا في مراجعته لمسرحية «العودة الى البيت» The Homecoming إلى أن بنتر يتعمد استبعاد أية إشارات واضحة إلى يهوديته حتى لا يساء فهمها كنوع من العنصرية فهو يريد لأدبه أن يخاطب كل الناس ولا يخاطب اليهود وحدهم.

ويعجز بنتر وشخصياته المسرحية من الفكاك من الماضي الذي يطاردهم على نحو مزعج. والجدير بالذكر أنه قام بتحويل رواية لـ. ب. هارتلي «الوسيط» (١٩٥٣م) The Yo Bctween إلى فيلم سينمائي يدور حول الماضي وغرابته فهو يقول عنه إن الماضي بلد أجنبي فهناك يفعلون الأشياء بطريقة مختلفة».

والجدير بالذكر ان الرواية التي الفها هارولد بنتر بعنوان «الأقزام» (١٩٥٠ - ١٩٥٦م) والتي اتخذ منها هذا المؤلف أساسا لكتابة مسرحيته بنفس العنوان هي مصدر المعلومات عن سيرة حياته التي ضمنها في الكثير من الأعمال الأدبية. وتشير

مسرحية الأقزام إلى البيئة التى عاشها بنتر فى طفولته فى منطقتى هاكنى وبنتال جرين، وأيضًا نذكر أن شرق لندن (الإيست) شاهد ارتكاب كثير من الجرائم وأعمال العنف. إن كويس وويسكر عبرا عن مشاعر الغضب من المظاهرات الفاشية المعادية لليهود غى عقد الثلاثينيات. غير أن بنتر كان أصغر من أن يفهم ما يجرى حوله. ولكنه فى بضاعته تصدى لبعض الحركات المعادية لليهود التى ظهرت فى ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م. وفى حديث أجرته معه مجلة باريس ريفيو Paris Review يحدثنا بنتر عن الأخطار التى كان اليهود يتعرضون لها أثناء سيرهم فى الشوارع. ويروى لنا أنه كان يتردد على نادى يهودى فقابل فى الشارع عصابة تقطع عليه الطريق حاملة زجاجات لبن مكسورة. يقول بنتر فى هذا الصدد أنه وجد نفسه أمام خيارين أولهما الدخول فى عراك معهم وهو أمر مستحيل لأنهم يحملون فى أيديهم الزجاجات المكسورة، ولهذا لم يجد أمامه غير الخيار الثانى وهو تحيتهم والتلطف معهم ثم الإسراع الى أقرب هامود نور طلبًا للأمن.

ويذكر لنا بنتر أن اليهود ذوى المظهر الثقافى والفكرى والذين يتأبطون الكتب كثيراً ما يتعرضون للاعتداء وأعمال العنف. وكما أسلفنا تم إجلاء الأطفال اليهود من الإيست إند إلى مناطق ريفية فى شمال العاصمة لندن لإبعادهم عن وابل القنابل النازية مما سبب لهؤلاء الأطفال انزعاجًا وقلقًا.

وقد صور جاك روزنتال Jack Rosenthal عمليات الإجلاء هذه فى مسرحية تليفزيونية الفها عام ١٩٧٥م بعنوان «المهجرون» The Evacuees وتم تهجير الطفل بنتر إلى قلعة فى منطقة قاحلة فى كورنوال أشعرته بالغربة والوحدة معًا.

ولم تتح الفرصة له لدخول الجامعة ولكنه استطاع فى سن السادسة عشرة أن يحصل على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بالأكاديمية الملكية للفنون الدرامية. ولكنه لم يتعلم كثيرًا فيها، ثم سافر إلى أيرلندا. وقد استهواه مسرح شكسبير للغاية بلغته الشاعرية المميزة. فضلا عن أن التمثيل راق له فاتخذ لنفسه اسمًا

مسرحيًا مستعارًا هو دافيد بارون ولعب بعض الأدوار المسرحية أمام ممثلة تدعى فيفيان ميرشانت تزوج منها عام ١٩٥٦م.

نظم بنتر قصيدة بعنوان «عام جديد فى الميدلاندز» وتميط اللثام عن رؤية قوية ليهودى عن فشل الدين المسيحى فى السيطرة على العذاب الذى يجلبه الإنسان على نفسه وشفائه من هذا العذاب، وكان بنتر ينشر قصائده الباكرة تحت اسم مستعار هو هارولد بنتا Pinta فى دوريات ومجلات محدودة الأهمية والانتشار، وهو يعتقد أن عائلته جاءت من المجر، ويبدو أن معاناته من اقتلاع جذوره انعكست على أدبه مثلما نجد فى أولى مسرحياته «الغرفة» (١٩٥٧م) حيث لا يعرف المستر كيد إذا كانت أمه يهودية أو غير يهودية. والجدير بالذكر أن بنتر أحس فى قرارة نفسه بعدم الأمان بسبب يهوديته. فالأمان فى حالة اليهودى وهم لأن اليهودى قد يتعرض فى أية لحظة لهجوم عليه مفاجئ وغير عقلانى ونحن نجد أصداء لهذه المخاوف فى مسرحيتيه «حفلة عيد الميلاد» و «القائم مؤقتًا بالأمر Care Taker.

قلنا إن بنتر كاتب غير ملتزم ولكن هذا لا يعنى مطلقًا أنه يخلو من المبادئ السياسية، فعلى سبيل المثال رفض وهو فى الثامنة عشرة من عمره الالتحاق بالخدمة العسكرية باعتباره واحدًا من معترضى الضمير الأمر الذى جعل السلطات توقع عليه غرامة والجدير بالذكر أنه من أشد الناس انتصارًا لإسرائيل ولكنه فى الوقت نفسه من أشد الناس معارضة للحرب الأمريكية فى فيتنام.

يقول الناقد هارولد هوبسون Hobson عن مسرحية «حفل عيد الميلاد» إن مؤلفها خلص إلى حقيقة جوهرية فى الحياة وهى أن الإنسان يعيش على حافة كارثة. كما أن مارتن إسلن يصف هذه المسرحية بأنها جماع شاعرى ومعقد لظاهرة القلق الوجودى. وبعض شخوص هذه المسرحية يدعونا إلى الشك فى أنفسنا وفى العالم المألوف لدينا.

ويحتوى أدب بنتر المسرحى على عدد من الشخصيات اليهودية مثل الفنان اليهودى ستاى الذى لا يندمج فى المجتمع البريطانى والذى أصابت عقدة أوديب

بسبب علاقته بأمه اليهودية، ومثل الشرير جولدبيرج الذى يذكرنا بيهوذا الإسخريوطى الذى سلم يسوع المسيح إلى جلاديه. فضلاً عن أن أدبه المسرحى يعالج مشكلة الهوية والاغتراب الناجم عن اقتلاع الجذور.

ويرى البعض أن مسرحية بنتر والعودة إلى البيت (١٩٦٤م) تتضمن إشارات يهودية عابرة. وهى تعالج زواج اليهودى من غير اليهودية سعيًا وراء الانصهار فى المجتمع، كما أنها تعالج انهيار الروابط الأسرية والعلاقات الزوجية إلى جانب الاغتراب عن النفس والمجتمع والبحث عن ماضٍ يساعد المرء على الإمساك بتلابيب الحاضر وعلى الارتداد إلى الطفولة كمهرب من سنى النضج والشيخوخة ويعطينا أدب بنتر الانطباع بأن الحالة النفسية المرضية تمثل الحالة العادية للوجود الإنسانى. ورغم أن أحداث مسرحية «القائم موقتًا بالأمر» The Caretaker مرتبطة بمنطقة هاكنى فى شمال لندن فإنها تدل على تقطع الوشائج التى تربط شخوصها بهوياتهم وبالأماكن التى جاءوا منها.

ورغم أن بنتر ألف مسرحية «البيت الساخن» The Hothouse فى شتاء عام ١٩٥٨ فإنه لم يدفع بها إلى خشبة المسرح إلا بعد مرور واحد وعشرين عامًا، وهى تدور حول عقدة الاضطهاد وتصرفات النزلاء فى إحدى المستشفيات العقلية. علما بأن معالجة موضوع اللوثة والجنون والمؤامرات والهلوسة معالجة مسرحية ليس جديدا عليه. فقد سبق له الإشارة إليه فى «الأقزام».

(٢) بيتر شافر Peter Shaffer:

الكاتب المسرحى بيتر شافر من مواليد عام ١٩٢٦م وهو ينحدر من عائلة يهودية تقليدية تعيش فى ليفربول. وهو يشبه بنتر فى سعيه إلى إخفاء ملامح أدبه اليهودية وعذابات بنى إسرائيل وإضفاء الطابع الإنجليزى عليها.

فى عام ١٩٥٨م ألَّف بيتر شافر مسرحية بعنوان «تمرين الأصابع الخمسة» Five Finger Exercise ورغم أنها تدور حول انهيار العائلة اليهودية فإن إضفاء الجو الإنجليزى عليها يخفى قسماتها اليهودية. والجدير بالذكر أن الموضوعات التى

يعالجها شافر قريبة الشبه بموضوعات كل من ويسكر وبنتر، ورجل الأعمال اليهودى فى هذه المسرحية لا يفهم غير لغة المال ولكنه لا يستطيع أن يفهم الدافع الذى يحدو بابنه إلى الانجراف وراء حبه للشعر والتعليم، وكما هو واضح يشير عنوان هذه المسرحية إلى استخدام العازف على البيانو أصابعه الخمسة وعلاقة هذه الأصابع بعضها ببعض، الأمر الذى يبرز أهمية الموسيقى فى أدب شافر المسرحى. ورغم أن المسرحية تبدو خالية من أى مضمون يهودى فإن مؤلفها ينظر إلى الصراع المحتدم بين أفراد العائلة الواحدة من منظور ما بعد الهولوكوست. وتدور مسرحيته التليفزيونية «أرض الملح» (١٩٥٥م) The Salt Land حول أخوين يهوديين يهاجران إلى إسرائيل حيث ينشب صراع عنيف بينهما.

واللافت للنظر أن خلفية مسرحيات شافر هى الحياة البرجوازية المريحة التى يتمتع بها المنتمون إلى الطبقة الوسطى فى الأقاليم... خلفية المدارس الخاصة ذات المصروفات العالية والمنح التى تؤهل الحاصلين عليها للدراسة فى جامعة كامبريدج. وكما أسلفنا يستبعد شافر من دائرة اهتماماته الأدبية مشاكل ومشاغل الجالية اليهودية وبالرغم من ذلك فهو يعتبر «أرض الملح» و «تمرين الأصابع الخمسة» مسرحيتين دينيتين كما أن مسرحيته «الصيد الملكى للشمس» (١٩٦٤م) تدور على حد قوله حول البحث عن الله... البحث عن تحديد فكرة الله. وفى مسرحية «تمرين الأصابع الخمسة» نرى والتر ينبهنا إلى وجود ثمة علاقة بين المنحرفين والبلطجية الإنجليز والشياطين التى أفرزها النظام النازى فى ألمانيا. فضلًا عن أنه يعبر عن أسفه للانهيار الذى لحق بالعائلة اليهودية رغم علمه بأن العائلات اليهودية كثيرًا ما تعانى من عقدة أوديب وانفصام الشخصية. ولا شك أن مؤلفنا أدرك مدى الأثر الذى تركته التغيرات الاجتماعية فى حياة الأسر اليهودية.

(٣) روائيون أنجلو- يهود من شمال غرب لندن (جولدرز جرين)
(جرانفيل- تشارلز- روبنز- رافائيل)

١ - بريان جرانفيل Brian Granville:

شاهدنا فى الصفحات السابقة أن الرعيل الأول من المهاجرين اليهود الذين استقروا فى حى الإيست إند الفقير كانوا يكدحون ماوسعهم الكدح حتى ينعم أبناؤهم بحياة اجتماعية أفضل. ولكننا رأينا فى أدب كل من أرنولد ويسكر وبرنارد كوبس كيف فقد عدد من اليهود من أصحاب المثل العليا هويتهم وجذورهم بمجرد أن تركوا حى الإيست إند الذى تربوا فيه. ولم تنسهم حياتهم الجديدة المنعمة فى المناطق الريفية فى شمال لندن جذورهم فى الإيست إند. غير أن الجيل التالى بدأ يألف حياة الرغد والدعة وأراد الانصهار فى بوتقة الحياة الإنجليزية وتمثل قيم الطبقة البرجوازية التى أصبحوا ينتمون إليها. ومع ذلك فإن خوفهم من اندلاع المشاعر المعادية السامية جعلهم يتمسكون بتلابيب هوية يهودية غير واضحة المعالم. وتدور الروايات التى ألفها روائيو جولدرز جرين حول تمرد جيل الشباب اليهودى الغاضب - إن صح هذا التعبير - ضد ضحالة ذويهم الثقافية وسطحية مفاهيمهم الدينية كما يتضح فى رواية «المفلسون» (١٩٥٨م) The Barkrupts التى ألّفها بريان جرانفيل و «نقطة العبور» (١٩٦٠م) The Crossing Point تأليف جيردا تشارلز و «حــدود الحب» (١٩٦٠م) The Limits of Love تأليف فردريك رافائيل وروايات برمانت الثلاثة Bermant: «أريحة تنام وحيدة» (١٩٦٤م) Jericho Sleep Alone «بيرل أعد الشاى» (١٩٦٥م) Barl Make Tew «بن يحفظنا» Ben Preserve Us بالإضافة إلى روايات بيرنس روبنز وشعر دانى آبس بالرغم من أن بيرمانت كان يعيش فى جلاسجو وآبس فى كاردين وشارلز فى ليفربول قبل انتقالها إلى شمال

غرب لندن. واللافت للنظر أن الروايات التى سطرها روائيو جولدرز جرين لا ترقى فى حيويتها إلى مستوى المسرحيات والروايات التى تقع أحداثها فى حى الإيست إند فى لندن.

تدور رواية «المفلسون» حول ابنة رجل أعمال يهودى نرى اسمها روزمارى فريمان ترفض مراعاة التقاليد اليهودية التى تحث اليهود على الزواج من الطبقات الثرية. ولكن هذه الفتاة تحفل بالفن والثقافة ولا تقيم وزناً للاعتبارات المادية. ولأن هذه الفتاة تنحدر أصلا من حى الإيست إند الفقير فإن والديها يريدان لها بحبوحة العيشة البرجوازية.

كما أنهما يتطلعان إلى اندماج ذريتها فى المجتمع الإنجليزى. وبالفعل تنجح روزمارى فى هذا الاندماج يساعدها على ذلك نبذها لمفاهيم أبويها الخاطئة عن أهمية المال وعن مبادئ الدين اليهودى. وتحب هذه الفتاة اليهودية طالب بحث يهودى يدعى برنارد كارتر ولكن عائلتها تعترض على زواجها منه رغم يهوديته فهو فى نظرها أسوأ من غير اليهود لأن مستواه المعيشى أدنى من مستواها ولأنه يهوى دراسة الأدب الذى لا تكترث به العائلة.

ويتحفظ مؤلفنا جرانفيل على انصهار اليهود فى بوتقة الحياة الإنجليزية فهو يرى أن مثل هذا الانصهار لا يحقق الهدف المرجو منه، ولكن هذا لم يرق فى عيون كثير من اليهود فهاجموا المؤلف بشدة. ودافع جرانفيل عن نفسه قائلاً إن المجتمع اليهودى متمثلاً فى عائلة روزمارى لا يطيق من ينبهه إلى نفاقه وإفلاس قيمه التى يزرعها فى قلوب أطفاله. فضلا عن أن هجوم اليهود على هذه الرواية يؤدى إلى حرمان المثقف اليهودى من حقه فى نقد المجتمع. وتصدى المؤلف بدعم من الكاتب اليهودى الأمريكى فيليب روث للهجوم الذى شنه اليهود على الرواية واعتبرا ذلك نوعًا من مصادرة الرأى من قبل اليهود الجهلة والمتعصبين. ولهذا آثر كثير من الكُتَّاب اليهود أن يقطعوا الوشائج التى تربطهم بمجتمعهم اليهودى كما يتجلى لنا من الحوارات التى أجرتها معهم مجلة «الجويش كرونيكل» فى الفترة من ديسمبر ١٩٥٨م حتى يناير ١٩٥٩م، الأمر الذى أثار غضب اليهود الذين اتهموا هؤلاء الكُتَّاب بأنهم يكرهون أنفسهم ويكرهون بنى جلدتهم مما زاد من تعقيد موقف الكاتب

اليهودى العلمانى. غير أن معارضة الجالية اليهودية على رواية «المفلسون» لم يقلل من رواجها. ومما ساعد على نجاحها أن المؤلف جرانفيل يجيد تصوير التهميش والتغريب اللذين يشعر بهما الكاتب الأنجلو ـ يهودى كما أنه يجند تصوير لغة سكان الإيست إند مثلما نرى فى قصصه القصيرة التالية «الحظ الردىء» (١٩٦١م) A Bad Streak و «اللاعبون الأوليمبيون» (١٩٦٩م) The Olympians و «الكوميدى» (١٩٧٤) The Comic.

(٢) **جيردا تشارلز** Gerda Charles:

لم تنفصم الوشائج التى تربط جيروا تشارلز ببنى جلدتها. ولهذا فهى لا تعانى ما يعانيه اليهود الآخرون من صعوبة ومشقة فى تحديد الهوية اليهودية، ورغم ذلك فإن روايتها «نقطة العبور» A Crosaing Point تعالج مشكلات مثيرة للخلاف مثل الزواج من غير اليهود والتمرد على التقاليد التى درج اليهود على اتباعها ومثل تفسخ العائلات اليهودية وتفككها وتعبير الوالدين اليهوديين عن أسفهما لأن الأبناء يشقون عصا الطاعة عليها فالفتاة إيسى جابرييل فى الرواية المشار إليها تتمرد على مراعاة السبوت، وهو طقس مقدس عند اليهود، كما أنها تهرب للزواج من رجل غير يهودى اقتناعًا منها بأن الاستعلاء الطبقى شىء مقيت. ومن المفارقة أن الرجل الذى اختارته مخادع يظهر بمستوى اجتماعى أعلى من مستواه الحقيقى. وأيضا تتضمن الرواية جدًا يهوديًا يرى ضرورة أن يساير الدين اليهودى التغيرات التى طرأت على المجتمع الحديث.

رأت جيردا تشارلز أن اليهود يتمتعون بحيوية هائلة ولكن هذه الحيوية الدافقة لا تظهر على حقيقتها بسبب انشغالهم بالشكليات الدينية من ناحية وانصرافهم إلى التجارة وإدارة الأعمال من ناحية أخرى وهى أشد ما تكون اقتناعًا بأنه يتعين على اليهود المختارين أن يضطلعوا بواجبهم الأخلاقى وسلوك الطريق القديم. فضلا عن أن مؤلفتنا عالجت معاملة الآباء اليهود السيئة لأولادهم بغية السيطرة عليهم، ويبدو أن القراء اليهود عزفوا عن قراءتها بسبب تشددها الأخلاقى فهى تحثهم على التضحية والإيثار والعزوف عن الماديات وعلى الكياسة والكرم.

وُلدت جيردا تشارلز عام ١٩١٤م فى عائلة تعانى شظف العيش ولم تنل سوى قسط ضئيل من التعليم النظامى. وفى عام ١٩٥٩م أصدرت أولى أعمالها الروائية بعنوان «الصوت الحقيقى» The True Voice. وفى عام ١٩٦٣م حصلت على جائزة عن روايتها«الضوء المائل» A Slanting Light ثم حصلت على جائزة أدبية أخرى عام ١٩٧١م وهو العام الذى نشرت فيه رواية «فالس المصير» Destiny Waltz. وكلتا الروايتين تدور حول الصراع الذى يحتدم فى صدرى اثنين من الفنانين يصيبهما الإحباط بسبب اعتراض ذويهما على الاشتغال بالفن وعدم تقديرهم لمواهبهما الفنية. يقول الكاتب المعروف س. ب. سنو عن رواية «فالس المصير» إنها واحدة من أبرز الروايات البريطانية الحديثة التى لا تستحق الإهمال التى عوملت به.

٣ ـ بيرنيس روبنز Bernice Rubens:

وُلدت الروائية الأنجلو يهودية بيرنيس روبنز فى كارديف عام ١٩٢٨م حيث هاجرت عائلتها إلى جنوب ويلز فى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، وتلقت تعليمها فى جامعة ويلز. ثم عملت كمدرسة وممثلة ولكنها نبذت عملها كى تنتج أفلامًا وثائقية عن المحرومين والمعوقين، ويعالج أدبها العجز العاطفى والنفسى والاجتماعى الذى تعانى منه الشخصيات اليهودية كما يعالج علاقة الأسرة اليهودية بهذا العجز الأمر الذى عرض مؤلفتنا للنقد.

ألّفت بيرنيس روبنز أولى رواياتها عام ١٩٦٠م بعنوان «وضع على الحافة» Ser-on Edga. وتدور أحداثها حول علاقات الاستغلال القائمة بين أفراد عائلة سبيرنر اليهودية. ولكنها رغم ذلك تشعر بالارتباط والتماسك، غير أنه تماسك مفرط ومبالغ فيه يدعو إلى الاختناق والإحباط ولهذا يحس أفراد هذه الأسرة بالضياع فى المجتمع الأوسع عند تفكك أواصرها ويتفرط عقدها. ولا غرو فهى أسرة منغلقة على نفسها ولا تصلح للحياة. وعند صدور رواية «وضع على الحافة» وصفها الملحق الأدبى لجريدة التايمز بأنها رواية يهودية فى أحسن صورها. وأيضا تعالج بيرنيس روبنز الدمار الذى يلحق بالعلاقات الزوجية والأسرية بأسلوب يتميز بالدعابة والفكاهة وفى عام ١٩٦٩م أصدرت مؤلفتنا رواية «العضو المنتخب» The Elected

Member التى تدور حول محام يهودى موهوب وهو يدعى نورمان لم تمنعه مكانته الاجتماعية المرموقة من تعاطى المخدرات. ولكنه يبرأ منها وينوب إلى رب بنى إسرائيل فى نهاية المطاف رافضًا التحول إلى الدين المسيحى. وأيضًا تهرب واحدة من أفراد هذه العائلة كى تتزوج من رجل غير يهودى. ومن الواضح أن تماسك هذه العائلة الانطوائى والمبالغ فيه شجع ميلها إلى العلاقات الجنسية المحرمة بين ذوى القربى. ولاشك أن تماسكها المفرط يعميها عن القسوة التى يعامل بها أفرادها. بعضهم البعض كما يعميهم عن الكراهية التى يحملونها لبعضهم البعض.

وكذلك تتناول بيرنيس موضوع العجز النفسى فى شخصياتها الروائية اللاحقة ولكن رواياتها لا تقتصر على تناول اليهود فقط مثلما نجد فى رواية «أفضل أحد» (١٩٧١م) Senday Best ورواية «سوناتا الربيع» (١٩٧٩م) Spring Sonatas. وتدور هذه الرواية الأخيرة حول الصراع الذى يحتدم داخل أسرة يهودية فهى تحدثنا عن علاقة جنين بأمه. هذا الجنين يرفض المجىء إلى الحياة لأن الأعمال القاسية ترتكب فيها باسم الحب. وتصور الرواية الجنين وهو يعزف على الكمان معزوفة لبيتهوفن فتتجاوب معه بطن أمه بالعزف على البيانو، ولكن هذا الجنين يرفض كما أسلفنا الخروج من بطن أمه بسبب خوفه من حبها المدمر. وبسبب يأسه من الحياة يقطع الجنين الحبل السرى الذى يربطه بالأم فيتحطم قلبها.

(٤) **تشايم بيرمانت** Chaim Bermant:

يقيم الروائى تشايم بيرمانت - شأنه فى ذلك شأن أقرانه من الروائيين - فى شمال غرب لندن. ولد مؤلفنا عام ١٩٢٩م فى جلاسجو ورغم تواضع إنجازه الأدبى فإنه ألف عام ١٩٦٦م رواية بعنوان «يوميات رجل عجوز» Diary ofon Old Man تصور تصويرًا رائعًا إحساس أرملة عجوز بالوحشة وبعقدة الاضطهاد. وأيضًا تسجل روايته «العشاء الأخير» (١٩٧٣م) The Last Supper لحظات احتضار عائلة يهودية تعانى بشدة من عقدة الذنب.

(٥) **فردريك رافائيل** Frederic Raphael

ولد فردريك رافائيل عام ١٩٣١م فى مدينة شيكاغو بولاية بالينوى بالولايات

المتحدة وتعلم فى إحدى المدارس الخاصة قبل التحاقه بجامعة كامبريدج لدراسة اللاتينية واليونانية فى الفترة من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٤. وهو لهذا السبب غير محدد الانتماء وينصرف تفكيره الى الأبعاد الوجودية والفلسفية للغموض الذى يكتنف الهوية.

الف فردريك رافائيل العديد من الروايات والقصص والمسرحيات التليفزيونية عن الطلبة فى جامعة كامبريدج تبرز فيها روح الفكاهة والنكتة الطلية. تأثر رافائيل بأفكار الفيلسوف فيتجنشتين الذى عاش فى كامبريدج حتى وفاته عام ١٩٥١م والذى ترك مريده جون ويزدوم John Wisdom أثرًا باقيًا فى حياة مؤلفنا، ويستجلى رافائيل من رواياته أثر سوسيولوجيا اللغة فى تحديد الوجود الإنسانى. وهو يذهب الى عدم وضوح الحدود الفاصلة بين علم الأخلاق Ethics وعلم الجمال Aeshetics.

تدور روايته «حدود الحب» (١٩٦٠م) The Limits of Love حول الإحساس بالذنب المتعلق بالهولوكوست. وهو إحساس يلاحق عائلة يهودية فى شمال غرب لندن ويهدد أمانها، ويتمثل هذا التهديد فى شخص أوتو كاهان العائد بعد نجاته من الهولوكوست للبحث عن أقاربه الذين فقد كل اتصال بهم. وقد نجا كاهان من الإبادة الجماعية لليهود فى معسكر داتشو المعروف بسبب انتحاله هوية شخص آخر يعمل طبيبًا ويحمل نفس اسمه. واضطره هذا إلى محو ذاكرته عن الماضى حتى يتمكن من الاستمرار فى الحياة.

غير أن حريته فى معسكر الاعتقال الناجمة عن إنكار هويته أصبحت عبئا ثقيلا ينوء به كاهله، وتقول الرواية فى وصف حالته: «استكثر على نفسه هذه الحرية فهو كسجين شعر بأن هناك ما يدفعه إلى الفعل. ولم يكن هناك أى أثر للحرية فيه. فهو يشعر بالانتماء الى معسكر الاعتقال وإنها مجرد صدفة أن يرى نفسه يسير فى الشارع فى ذلك اليوم».

والجدير بالذكر أن أقرباءه لم تكن لديهم أية رغبة فى عودته إليهم. فهم يفضلون أن يصموا آذانهم عن سماع التفاصيل المروعة عن تعذيب اليهود على أيدى النازيين.

كان قريبه أدلر عام ١٩٤٥م يمتلك محلاً لبيع أشهى أنواع المأكولات الأمر الذى يوحى بأن الرأسمالية اليهودية استفادت ماديًا من الحروب، ولم يشأ أدلر رغم ثرائه أن يترك الحى الذى يوجد فيه محله. وكذلك رفضت ابنته جوليا الانتقال إلى حى آخر. ولكن ابنته الأخرى سوزان تنكرت لقيمه ومبادئه وطموحاته بزواجها من شيوعى يهودى فقير من الإيست إند دون أن تشارك زوجها معتقداته الأيدلوجية. وإذا كانت سوزان قد رفضت الحياة البرجوازية الإنجليزية فإن أخاها كولين رحب بها وسعى إلى الاندماج الكامل فيها ناسياً خلفيته اليهودية وراغبًا فى أن يبدو إنجليزيًا لاريب فيه.

وتحتوى الرواية على شخصيات يهودية أخرى مثل بول الذى يحتقر الهوية اليهودية والدين اليهودى معًا ويعيش بلا جذور أو انتماء. بل إنه يشارك الطلبة الإنجليز استمتاعهم بتعذيب زميل لهم يدعى ماريون ليكتشف فيما بعد أن كراهية الإنجليز له كانت بسبب يهوديته. ثم يكتشف بول فى نهاية الأمر أن انتماء عائلة المسز أدلر أصلا إلى حى الإيست إند يخلق إحساسًا بالانتماء إلى المجتمع اليهودى وهو إحساس كان قد فقده. تقول الرواية إن بول لم يتألم لإحساسه بأنه لم يكن يهوديًا بل تألم لأنه أراد أن يكون يهوديًا. وعلى أية حال نرى أن حى الإيست إند اندثر. وأن الشبان اليهود رغم مرارة نقدهم لذواتهم أصبحوا يقبلون الآن طموحات آبائهم البرجوازية وتطلعهم إلى حياة اجتماعية محترمة ومستقرة. ومعنى ذلك أن الشبان اليهود قبلوا الانصهار فى المجتمع الإنجليزى وهو ما كانوا يرفضونه فى بادئ الأمر.

على أية حال ينكر فردريك رافائيل انتماءه إلى المجتمع اليهودى كما ينكر إيمانه بالعقيدة اليهودية. ولكن يهوديته تكمن فى إحساسه برمز الشتات وما يحمله هذا الرمز من إحساس بالوحشة والوحدة. وهى وحدة ناجمة عن إحساسه بأنه مهما فعل فسوف يستمر المجتمع الخارجى فى النظر إليه كيهودى. يقول مؤلفنا فى هذا الصدد: «أشعر بالغربة عن كل إنسان وهذا الشعور بغربتى هو يهوديتى».

ورغم أن الدنيا تظل على ما هى عليه فإن الحياة بعد الهولوكوست أصبحت شيئًا يختلف عما كانت قبله، وقد عالج الروائى اليهودى المهاجر من جنوب إفريقيا

إلى إنجلترا دان جاكوبسون Dan Jacobson ذلك فى روايته «المبتدءون» (١٩٦٦م) The Beginners. وفى رواياته وقصصه القصيرة يرى المؤلف رافائيل واحداً من ضحايا الهولوكوست النازى الأمر الذى يجعله يعانى من عقد الذنب لأنه لم يُهلك مع بنى جلدته ولم يشاركهم تجربتهم. ويعلق رافائيل على الهولوكوست (أو الحل الأخير على حد تعبير النازيين) قائلاً: «إن الحل الأخير ـ بكل قبحه وقسوته وشره وجشعه وبكل مصانع القتل التى استحدثها ـ موجودة على الدوام فى مؤخرة رأسى رغم أنى نشأت فى إنجلترا ولم أعانى إلا من رائحته غير الطيبة وهى تهب فى وجهى بعد أن اجتازت بحر المانش».

وفى عام ١٩٧٦م ألّف رفائيل رواية تدور حول بطل يهودى اسمه أدم موريس بعنوان «الجوائز البراقة» The Glittering Prizes ويعالج مؤلفنا فى روايته «ليندمان» (١٩٦٣م) Lindmann مسألة اعتبار هويته هى نفس هوية ضحايا النازية فى أوروبا.

وتروى لنا «الجوائز البراقة» قصة شاب يتلقى تعليمه فى كامبريدج التى ترغمه على حضور الكنيسة رغم معرفتها بأنه يهودى دون أن تطلب منه الإيمان بالعقيدة المسيحية. وهذا ضرب من نفاق البريطانيين لا يرى الشاب اليهودى أية غضاضة فى مجاراته. ولكن مراحل الغضب تغلى فى عروقه حين أتى قس مسيحى لإلقاء وعظة تضمنت عداء سافرًا لليهود. ويكتب الشاب اليهودى خطابًا غاضبًا إلى المسئولين فى كامبريدج يتهم فيه الواعظ بالفاشية، ويشترك ادم اليهودى فى السكن مع طالب اخر يدعى دونالد الذى ينحدر من عائلة كاثوليكية تتسم بكراهية اليهود، الأمر الذى يجعله ساخطًا على موقف الكنيسة الكاثوليكية المعادى للسامية وتجاهلها لإبادة اليهود الجماعية على يد هتلر. ويطرح الشاب اليهودى أدم للنقاش مشكلات فلسفية عويصة مثل وجود الله والهوية اليهودية وأعمال العنف العرقى وشرعية النجاح المادى من الناحية الأخلاقية، ويسعى آدم فى مناقشاته إلى إثبات عدم وجود الله وإثبات ضرورة التجربة الجنسية قبل الزواج رغبة منه فى مضاجعة زميلته فى الدراسة. ورغم أن عائلته اليهودية التى تعيش فى رغد حافظت على الطقوس الدينية اليهودية التقليدية مثل إشعال الشموع مساء كل يوم جمعة فإن ابنها آدم موريس فضل مضاجعة النساء فى ذلك الوقت. ويدخل أدم فى مناقشات فكرية حامية

الوطيس مع أبيه اليهودى التقليدى المؤمن فيكشف الابن عن رفضه الإيمان بالدين. وفيما يلى جانب من الحوار الدائر بين الابن وأبيه:

الأب: إنها مسألة مبدأ.

الابن: هذا مبدؤك وليس مبدئى. هل حقًا يتعين علينا التظاهر؟

ـ التظاهر بماذا؟

ـ بأن الله موجود فى السماء وبأن كل شىء فى هذا العالم يسير على ما يرام الله ليس موجودًا فى السماء كما أن كل شىء ليس على ما يرام.

ـ هذا رأيك.

ـ نعم هذا رأيى وأنا كما يقولون حر فى رأيى.

ـ أنت بذلك تولى ظهرك لخمسة آلاف عام.

ـ إنى أحيانًا أفكر أن الشىء الوحيد المعقول الذى ينبنى على فعله هو إغفال هذه الخمسة آلاف عام. فهى خمسة آلاف عام من الخزعبلات والكلام الفارغ الأجوف والتعاويذ السحرية.

ـ أهذا هو رأيك فى أهلك وعشيرتك؟

ويهتز إيمان دونالد الكاثوليكى بسبب محاجات آدم اليهودى المتشككة فى الدين ووجود الله. وينتهى الأمر بأن يستقر آدم فى حياة برجوازية رغدة وزواجه من فتاة غير يهودية ميسورة الحال كما أنه يصيب نجاحًا ماديًا فى عمله كروائى وكاتب سيناريو. ورغم أن آدم لا يريد أن يصبح يهوديًا ولا يريد أن يكون أمميًا (غير يهودى) ورغم أنه لا يعرف ما يريد فإن ضحايا الهولوكوست يهيجون عليه المواجع. وهو لا يحس بالذنب من جراء النجاح المادى الذى أصابه ولكنه يحس بالذنب لأنه يستمر على قيد الحياة بعد كل ما حدث فى الهولوكوست.

(٤) الشعر الأنجلو - يهودى فى فترة ما بعد الهولوكوست
(دانى آبس - جون سيلكين)

١ - دانى أبس Dannie Abse:

يتميز الشاعران الأنجلو - يهوديان دانى أبس وجون سيلكين بإحساسهما العميق بالغربة واقتلاع جذورهما.

ولد دانى آبس عام ١٩٢٣ فى كارديف فى منطقة ويلز. كما أن روايته «رماد على كم شاب» (١٩٥٤) تتضمن طفولته التى قضاها فى كنف عائلة يهودية تولى الطقوس الدينية عظيم اهتمامها. كما أن روايته التالية، ركن فى حقل إنجليزى، (١٩٥٦) A Cornes in Enslich Fiald تعكس إحساسه الغائر بالغربة وباليأس فى فترة التحاقه بسلاح الطيران البريطانى.

فى عام ١٩٥٧ أصدر دانى ديوانًا من الشعر بعنوان «المتغيرون» Maveria دافع فى مقدمته عن شعر دبلان توماس. ورغم أنه يشارك كثيرًا من اليهود غربتهم فإنه لا يعتبر نفسه يهوديًا. ويعترف آبس أنه لا يتناول أى موضوعات يهودية بطريقة واعية فهى تأتيه عبر الخاطر. ورغم ذلك فهو يعترف بأنه يهودى يدرك محنة اليهود فى القرن العشرين فقد أضفى الهولوكوست على شعره طابعًا يهوديًا لم يكن ليوجد فى الأحوال العادية يقول آبس فى هذا الشأن : «هتلر جعلنى يهوديًا أكثر مما فعله النبى موسى معى وباعتباره أحد الناجين من الهولوكوست فإن عداوة السامية لا تغيب عن باله قط حتى فى مجتمع ديمقراطى لبيرالى مثل إنجلترا وفى عام ١٩٦٩ ألف آبس مسرحية بعنوان «كلاب بافلوف» The Dogs of Pavlov تؤكد صحة النتائج التى توصل إليها البروفيسور ستانلى ميلرجرام Stanley Milgram التى

توضح أن كثيرا من الأفراد العاديين على استعداد لتعذيب الآخرين دون تردد على نحو مافعله النازيون بضحاياهم. ومعنى هذا أن ليل الظلم ليست له نهاية. وتدور قصائده التى نشرها بعنوان «قصائد جولدرز جرين» (١٩٦٢) Poems : yolders yreen حول موضوعات يهودية. وكذلك ديوانه الذى أصدره عام ١٩٨١ بعنوان «مخرج من المركز» Way Out in the Center وهو يُعَبر عن غربته دون مواربة فى قصيدة «المفاجأة المفاجأة» حيث يقول :

لا تحدثنى عن الدهشة بل حدثنى عن انفراد الرأى بنفسه

فكل شىء غريب... فكل شىء عجيب»

وترمز قصيدته «البالونة الحمراء» إلى الطفل اليهودى المضطهد فضلا عن لونها الأحمر يمثل دم السيد المسيح المسفوك.

وعندما أطلقت السلطات سراح الشاعر المعادى للسامية إزرا باوند بسبب تعاونه مع القوات الفاشية ألف أبس قصيدة بعنوان «بعد إطلاق سراح إزرا باوند من السجن» وفيها يمتدح إخراجه من السجن ولكنه ينبه المثقفين إلى ضرورة عدم تبرير موقفه المناهض لليهود. وفى قصيدة بعنوان «الشاذ» Odd نراه يفضل حى سوهو فى لندن بكل ضوضائه وقذارته على حى اليهود فى جولدرز جرين لأن حى سوهو يفيض بالحيوية الدافقة. كما أنه فى قصيدته «حتى» Even المنشورة عام ١٩٦٨ فى ديوانه «يأس صغير» A Small Depresion يعبر عن نفوره من بنى جلدته اليهود الذين يحملون كتب صلواتهم إلى المعبد وهم لابسون قبعاتهم وحين شعر شاعرنا بتأنيب الضمير بسبب ذرايته بهم أتهم نفسه بمعاداة السامية وبكراهية نفسه كيهودى ولكنه مالبث أن استبعد تأنيب الضمير حين تذكر أنه يحمل نفس البغضاء للمسيحيين الذين يحملون معهم كتب صلواتهم إلى الكنيسة. فهو فى كلتا الحالتين يكره الدين عندما يصبح حالة مرضية. وفى قصيدته «سهرة خارج البيت» A Night Out يرافق الشاعر زوجته إلى حى الإيست إند لمشاهدة فيلم عن «معسكرات الاعتقال النازية» وبعد مشاهدة الفيلم يعود الزوجان إلى البيت ليجدا أن الأولاد قد

أووا إلى فراشهم وتعود الحياة إلى سابق عهدها وكأن شيئا لم يحدث. ويرى شاعرنا أن العالم الذى نعيش فيه عبثي وملتاث وأنه ليس بمقدور أحد أن يحس بذلك غير الملتاثين والمجانين. وبما أن اليهودى عصابى ويعانى من قدر من الجنون والشذوذ فيمكنه إدراك حقيقة هذا العالم أكثر من غيره أما الذين يتأقلمون تماماً مع العالم الخارجى فإنهم يواصلون حياتهم وكأن الهولوكوست لم يحدث أبداً.

(٢) جون سيلكين Jon Sipkin:

ولد الشاعر جون سيلكين عام ١٩٣٠ فى عائلة يهودية مسيحية وتلقى تعليمه فى كلية ويكليف ثم كلية دلويتش. وتم تهجيره فى فترة الحرب العالمية الثانية من أجل أمانه إلى ويلز حيث عانى من نفس الاغتراب الذى عانى منه بيتر ورفائيل وآبس وقد عبّر سيلكين عن إحساسه بالاغتراب فى قصيدة بعنوان «تم إجلاؤنا فى فترة الحرب» وفيها يحدثنا عن الانقسام الموجود داخل اليهودى ككاتب واليهودى كإنسان. وهو يسوق لنا شخصية شيلوك كمثل حى لهذا التمزق.

وبعد اتمام الخدمة العسكرية ترك سيلكين منزل عائلته البرجوازى المريح ليشتغل كعامل يدوى فى لندن. وفى عام ١٩٥٢ أسس مجلة لنشر الكتابات الملتزمة بعنوان «ستاند» Stand. وفى عام ١٩٥٨ حصل على زمالة جامعة ليدز لتدريس الشعر. ولا غرو فقد أصبح واحداً من أبرز مرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية. والجدير بالذكر أن شعره يخلو من أية سمة يهودية . يقول شاعرنا بوضوح فى الأعداد التى أصدرتها مجلة «الجويش كرونيكل» حول الهوية اليهودية أنه كشاعر يعمل خارج الإطار الإمنى العرقى والقومى ليس بمعنى أنه يتجاهل هذا الإطار ولكن بمعنى أنه يهدف أولا إلى مخاطبة القارئ كإنسان وثانيا إلى مخاطبته كيهودى. ويرى سيلكين أن يهوديته مفيدة لأنها تمكنه من الحديث باعتباره جزءاً من أقلية مضطهدة.. هذه الأقلية المضطهدة لديها ماتقوله لبقية الجنس البشرى ثم يقول فى موضع آخر أنه يرى أن هويته هى نفس هوية روزنبرج ذلك الكاتب الذى يتجاوز الحدود القومية الضيقة ليخاطب العالم بأسره، باعثًا إليه برسالة أخلاقية كونية. ويهودية سيلكين

تقبل المسيح وتحتضنه لأنها تقوم على أخوة البشر. والمسيح فى رأيه يرمز لحب البشرية جمعاء. ويرى سيلكين أيضا ضرورة الاستجابة للثقافات المغايرة وتصالح المرء مع حقائق الهولوكوست. ومعنى هذا أنه يريد تجاوز الهولوكوست رغم إدراكه بأن كل شيء تغير بعده والهولوكوست فى نظره لا يقتصر على اليهود وحدهم بل يشمل الإنسان المطارد الذى يستخدم كافة الأسلحة التى يلجأ إليها الثعلب للدفاع عن نفسه وهو ما نجده فى قصيدته «لا توجد بلاد مثلها» No Land Likegt المنشورة عام ١٩٥٤ فى ديوانه «المملكة المسالمة» Peoceable Kingdom .

وفى عام ١٩٦٥ نشر شاعرنا قصائد بعنوان «قصائد شعر» ضمنها ديوانه «الطبيعة والإنسان» Nature with Man يذهب فيها إلى أن الإنسان – رغم تميزه بالذكاء – جزء لا يتجزأ من الطبيعة. ونحن نراه فى ديوانه الذى نشره عام ١٩٧٦ بعنوان «ضابط الوقت الصغير» The Little Time - Keeper يشير إلى الستة ملايين يهودى الذين أجهز عليهم هتلر فى المحارق وغرف الغاز. والجدير بالذكر أن عقيدته الدينية تعرضت للاهتزاز فهو يقول عن نفسه : «خلفيتى مزيج من اللاإرادية العقلانية – اليهودية الأصيلة المخففة» وفى قصيدته «البرودة» The Coldness المنشورة فى ديوانه، «إعادة ترتيب الحجارة» Re Oldering of the Stonea يتحدث الشاعر عن مجزرة اليهود التى وقعت عام ١١٩٠ فى مدينة يورك بإنجلترا وقصيدته تتضمن إشارة واضحة إلى الهولوكوست. ويتناول الشاعر نفس هذا الموضوع فى قصيدته «ومكان الراحة» (القبر) (Resting Place) المنشور فى ديوانه «المزامير وأسلوبها» (١٩٨٠) The Psalms With Thir Spoils وفيها ينهكم الشاعر على قرار اتخذه مجلس البلدية لإقامة ساحة انتظار السيارات على قطعة أرض كانت يومًا ما مدافن لليهود فى العصور الوسطى. ونحن نقرأ فى قصيدة «المالابستيا The Maeabaslita المنشورة فى ديوانه «مبدأ الماء» (١٩٧٦) The Prineiple of Waten عن قيام البارون الإنجليزى ريتشارد اف أكاستر مالبيس – المدين بالمال لبعض اليهود – بإرغام اليهوديات على التحول إلى الدين المسيحى ثم يقوم بعد اقتلاعهن من جذورهن اليهودية باغتصابهن والإجهاز عليهن. وعنوان القصيدة –

كما هو واضح - يشير إلى التعميد - وهو ركن أساسى فى العقيدة المسيحية وفى الديوان قصيدة أخرى بعنوان «الناس» تتناول الهولوكوست وجدير بالذكر أن شاعرنا تأثر بكل من الشعر الإنجليزى والشعر الإسرائيلى علما بأنه أسهم فى ترجمة بعضا من الشعر العبرى الإسرائيلى إلى الإنجليزية وخاصة شعر ناثانى زاتش Nakan Zach وفى قصيدته «الانقسامات» Divisions يستخدم الشاعر الجغرافيا الطبيعية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط كى يرسم صورة كونية للصراع المحتدم فيها مستخدمًا فى ذلك صورًا وأخيلة مستقاة من عالمى الحيوان والنبات.

خاتمة

شعراء انجلو - يهود ناجون من الهولوكوست

وفى الختام يخلق بنا أن نذكر أن عدداً من اليهود الألمان مثل مايكل هامبرجر Michael Hamburger وكارين جيرشون Karean Yershon ولوت كرامر Lott Kramer جاءوا إلى إنجلترا منذ نعومة أظفارهم فوجدوا أنفسهم كأطفال يحيون حياة موحشة فى بلاد غريبة دون أهل أو أصدقاء أو معارف. وكابد الكثيرون منهم الشعور بالذنب لأنهم عاشوا فى حين مات الآخرون. يقول الشاعر هامبرجر فى هذا الشأن إنه يكتب من أجل «الذين ملأ الرعب قلوبهم ومن أجل الذين نحروا كالذبائح. ومن أجل الذين بقوا على قيد الحياة. نحن تعلمنا اللغة (يعنى الإنجليزية) من الصفر».

نشأ هامبرجر مثل أقرانه ومعاصريه جون سيلكين وفردريك رافائيل وبريان جرانفيل فى جهل بالدين اليهودى فضلا عن الجهل بالدين المسيحى. والهولوكوست النازى هو الذى أيقظ فى هامبرجر شعوره بيهوديته. وفى القصيدة التى ألفها بعنوان «قصيدة عن إيخان» المنشورة عام ١٩٦٣ ضمن ديوانه «الجو والفصل» Weather and Season نراه يدعو اليهود إلى التسامح مع جلاديهم لأن الرحمة فوق العدل ولأن «العقاب يدفن العفن ويخفيه ولايزيله» على حد قوله يقول الشاعر الإنجليزى المعروف ستيفن سبندر أن الناجين من الهولوكوست مثل نيلى ساتش Nelly Sachs أقدر على الكتابة عن الهولوكوست من الكاتب المسيحى لأن الكاتب المسيحى يفهم المأساة على أنها مأساة البطل الشخصية فى حين أن اليهودى يفهمها على أنها مأساة جميع البشر حيث إنها فى نظره وثيقة الصلة بالمآسى الواردة فى الكتاب المقدس مثل مأساة أيوب وأرميا.

ويتضمن ديوان هامبرجر الذى نشره عام ١٩٧٣ بعنوان «أرض بدون صاحب» Ownerless Earth قصيدة تريبلنكا. Treblinka التى تبدأ بكلمات «ناج من الهولوكوست يتحدث». والقصيدة تقطر ألمًا لأن الشاعر نجا من المحرقة ولم يحترق فيها كما احترق رفاقه وبنوجلدته ورغم أن الشاعر هامبرجر اضطلع بترجمة شاعرين من شعراء الهولوكوست هما الشاعرة نيلى ساتشس والشاعر بول سيلان Celan فإنه اشتهر بترجماته لأدب كل من هولدرين Holderin وريلك Rilk .

من الواضح أن الهولوكوست ترك بصماته التى لا تمحىٰ فى نفوس الأدباء الأنجلو ـ يهود الناجين من الأمر الذى جعلهم ـ رغم اندماجهم فى الحياة الإنجليزية يمعنون التفكير فيه، ويدفعهم بشكل أو آخر إلى مراجعة مفاهيمهم عن الهوية اليهودية. ولكن أدباء الهولوكوست فى إنجلترا - مهما علا شأنهم - أقل شأنا وأهمية من نظرائهم فى الولايات المتحدة (راجع كتاب الهولوكوست فى الأدب الأمريكى - مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١). ولكن من المهم أن نعرف أن كثيرًا من هؤلاء الكُتّاب الأنجلو - يهود عَبّروا عن ارتياعهم ورعبهم من هول الهولوكوست بلغة استعارية ذات مدلولات إنسانية عامة وليست بالضرورة قاصرة على بنى إسرائيل مثلما يفعل بنتر. فالكاتب الأنجلو - يهودى المعاصر يشعر بأنه ضحية ويرزح تحت نير الذنب لأنه نجا من الهولوكوست تاركًا بنى جلدته يهلكون فى هذه المحرقة. يقول أحد النقاد شارحًا هذا : «هذا هو الميراث الذى يشترك فيه جيل الباقين على قيد الحياة والمغتربين. إن معسكر أوستشوتيز للاعتقال تغلغل عميقًا فى روح الإنسان الحديث وهذا المعسكر يقوم بوظيفة الاستعارة الأساسية والنموذج الأول (للبغى والطغيان). إن كل الجنس البشرى ينتظر مجىء جودو فى برية قاحلة وخالية من الأشجار يشكل فيها الخوف والمهانة والبربرية والعمل الفاضح حقيقة الحياة اليومية».

وكما يقول كاتب أنجلو يهودى آخر : «كلنا ضحايا كلنا... فعصر الاستشهاد قد ولى وانتهى ليبدد عصر الضحايا».

حتى دولة إسرائيل لا تصلح فى نظر هؤلاء الكتاب الأنجلو - يهود المغتربين لأن تكون بديلاً عن بحثهم عن الهوية اليهودية ومحاولة استجلائها.

تواريخ مهمة عن اليهود فى إنجلترا

١٠٧٠ : اليهود يتبعون وليم الفاتح من روين إلى إنجلترا حيث استقروا لمدة تفوق استقرارهم فى أى بلد أوروبى.

١١٠٠ - ١١٣٥ : يمنح الملك هنرى الأول اليهود ميثاقًا لحمايتهم بحيث يسمح لهم بحرية التنقل فى ربوع البلاد ويوفر لهم الحماية من الاعتداء والأذى مشترطا عليهم أن يكون ولاؤهم للعرش مباشرة وكاملاً وليس لأية سلطة أخرى.

١١٤٤ - ١١٨٣ : أول تسجيل لاتهام اليهود بسفك دماء المسيحيين فى مدينة نوروتيش لاستخدامها فى شعائرهم وطقوسهم الدينية وتبعث هذه الاتهامات اتهامات أخرى مماثلة فى كل من بيرى سانت أدموندز - بريستول - وينشستر وذلك بمناسبة اجتماع اليهود لإجراء عمليات ختان وحضور بعض المناسبات المختلفة. ووجهت إلى اليهود تهمة اختطاف صبية مسيحيين صغار وتعذيبهم وأحيانا صلبهم. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا تعرض اليهود كثيرًا للقبض عليهم وإجبارهم على دفع الغرامات المالية بسبب اقترافهم هذه الجرائم، إلى جانب قيامهم بتسميم آبار المياه وإعطاء الأطباء اليهود السم للمسيحيين بدلا من الدواء.

١١٨٨ : فرضت السلطات فى عهد الملك هنرى الثانى غرامة كبيرة على اليهود تصل إلى ربع ممتلكاتهم لتمويل حملته الصليبية.

١١٨٩ - ١١٩٠ : أصدر الملك ريتشارد الأول الأمر بمنع اليهود والنساء من حضور حفل تتويجه وسرت شائعة بأن جلالته أمر بالإجهاز على اليهود مما أدى إلى توسيع مجال الاعتداءات على عدد من الجماعات الدينية فى طول البلاد وعرضها بما فى ذلك القضاء على اليهود فى مدينة يورك.

١١٩٤ : أنشأ الملك ريتشارد خزانة اليهود، وهى عبارة عن صندوق تحفظ فيه نسخ من الوثائق التى تسجل جميع الديون المستحقة لصالح اليهود.

١٢١٥ : أصدر المجمع الدينى المعروف بمجمع لاتيران الرابع فى عهد البابا إنوسنت الثانى قانونًا ينص على ضرورة أن يلبس اليهود شارات صفراء حتى يتسنى تمييزهم عن الآخرين.

١٢٢٧ : إرهاق كاهل اليهود بالضرائب عقابًا لهم على ارتكاب مختلف الجرائم المتصلة بإقامة الطقوس اليهودية وإرغام المسيحيين على الختان والقيام بصلب الأطفال وتسميم أبار الشرب والإساءة إلى صورة العذراء مريم.

١٢٣١ - ١٢٥٣ : صدر مرسوم بطرد اليهود من ليستر أعقبه مراسيم أخرى مماثلة فى مناطق محلية متفرقة.

١٢٥٥ : اتهام اليهود بسفك دم الطفل هيو أف لنكولن وقام الملك هنرى الثانى بنفسه بالإشراف على تعذيب اليهودى المتهم ثم شنقه. وفى نفس العام يروى ماثيو باريس Parris قصة الصبى هيو أف لنكولن فى كتابه «التاريخ الكبير» Historia Major.

١٢٦٣ - ١٢٦٦ : انتشار أعمال نهب وسلب وإحراق المجتمعات اليهودية.

١٢٧٥ : أصدر الملك إدوارد الأول مرسومًا يمنع اليهود من ممارسة الربا وإعطائهم حق الاشتغال بالتجارة والزراعة ولكن دون السماح لهم بامتلاك الأرض أو الالتحاق بعضوية النقابات الحرفية فى القرون الوسطى المعروفة آنذاك باسم guilds.

١٢٩٠ : تم طرد جميع اليهود من إنجلترا بناء على أوامر الملك إدوارد. وشجعت هذه السابقة عددًا من الدول الأوروبية الحذو حذو إنجلترا وبذلك غادر الأراضى الإنجليزية نحو اربعة آلاف يهودى. ولكن عددًا محدودًا للغاية من الأطباء استثنوا من الطرد لعلاج الملك وأسرته.

١٣٠٠ - ١٦٩٠ : فى فترة طرد اليهود من إنجلترا ظهرت المسرحيات الدينية المسيحية المعروفة بمسرحيات المعجزات ومسرحيات الأسرار وأشعار البالاد تروى

مأساة استشهاد الطفل هيو أف لنكولن على أيدى اليهود مثل «ابنة اليهودى» و«السير هيو» و«السيرهيو أو ابنة اليهودى». وترسم سلسلة مسرحيات الأسرار والمسرحيات التى تمثلها النقابات الحرفية فى المناسبات المسيحية صورة لليهودى كمراب شرير وصالب للمسيح أو كشيطان رجيم أو مهرج يثير الضحك والاستهزاء.

١٣٦٢ : ألّف وليم لانجلاند Lang Land كتابه «رؤية الحارث بيرز» حيث نرى اليهود يجسدون الخطايا السبع المميتة.

١٣٩٠ : ألّف الشاعر جيو فرى تشوسر «حكايات كانتربرى» التى تتضمن حكاية حديث الراهبة «التى تصور اليهود كسفاحين وسافكى دماء الأطفال المسيحيين لاستخدامها فى أداء طقوسهم الدينية.

١٣٩٢ : ألّف جون جاور Gower اعترافاته Confession حيث نرى الأسد الفضيل يدمر اليهودى العاصى.

١٥٠٠ : فى العقد الأول من القرن السادس عشر أنشأ المارانو (أى اليهود الإسبان والبرتغاليون الذين أجبروا على اعتناق المذهب الكاثوليكى) مستعمرة صغيرة فى لندن وذلك بعد فرارهم من الاضطهاد فى بلادهم. ولكن هذه المستعمرة تفككت وانفرط عقدها عام ١٥٥٣ عند اعتلاء الملكة مارى سدة الحكم.

١٥٧٧ : يذكر المؤرخ المعروف هو نشد (الذى استمد منه شكسبير مسرحياته التاريخية) فى سجلاته تنصيب ريتشارد قلب الأسد على العرش والمجزرة التى حدثت لليهود نتيجة غيهم وعنادهم.

١٥٩٢ : ألفّ الكاتب المسرحى المعروف كريستوفر مارلو مسرحية «يهودى مالطا» ليرسم صورة اليهودى كمراب وقاتل وسفاح.

١٥٩٤ : إعدام رودريجو لوبيز الطبيب اليهودى الخاص للملكة إليزابيث بتهمة التآمر لدس السم لها. وفى نفس العام ألفّ وليم شكسبير «تاجر البندقية» التى تزدرى اليهود وتحط من شأنهم.

١٦٣٢ : علق الكاتب وليم برين Prynne فى كتابه «رد قصير على اليهود» A Short Demurree to The Jews على مبدأ السماح لليهود بالعودة إلى إنجلترا بأنهم كانوا فيما سبق مجموعة من الأفاقين ومزورى الأوراق المالية الذين قاموا بصلب ثلاثة أو أربعة أطفال الأمر الذى دعا إلى طردهم.

١٦٥٥ : ألقى حبر أمستردام ماناسيه بنى إسرائيل بتشجيع من حاكم إنجلترا أوليفر كرومويل خطابًا متواضعًا» فى البرلمان البريطانى يلتمس منه السماح بهجرة اليهود إلى إنجلترا. غير أن البرلمان رفض التماسه ومع ذلك فقد أخذ اليهود يدخلون إنجلترا بالتدريج.

١٦٦٣ : سجّل صاموويل بيبس Pepys فى يومياته الشهيرة زيارته إلى معبد يهودى وصفه بأنه مكان تعيث فيه الفوضى كما وصف اليهود فى المعبد بأنهم أقرب إلى الوحوش منهم إلى معرفة الله معرفة حقة.

١٦٦٤ - ١٦٧٢ : بعد عودة الملكية إلى إنجلترا أمر الملك تشارلز الثانى بالسماح لليهود بالعودة ووعدهم بالعودة وحرية العبادة.

١٦٩٠ - ١٧٦١ : أنشأ اليهود الفارون من الاضطهاد فى كل من ألمانيا وبولندا جالية اشكنازية صغيرة تتحدث بلغة البيديش.

١٧٣٠ - ١٧٥٠ : رغم أن الهدوء النسبى ساد إنجلترا ورغم توقف مظاهر الاضطهاد فيها ظل اليهود محرومين من حق امتلاك الأرض وتوريث ممتلكاتهم لورثتهم. فضلا عن حرمانهم من الاشتغال بالتجارة ومن الانضمام إلى منظمات باعتبارهم أجانب.

١٧٣٥ : رفض البرلمان الإنجليزى الموافقة على مشروع القانون المقدم إليه الخاص بمنح الجنسية الإنجليزية لليهود المقيمين فى إنجلترا لمدة ثلاثة أعوام.

١٧٦٠ : تكونت فى لندن لجنة اليهود البريطانيين التى تعرف بلجنة النواب بعد أن وصل عددهم إلى مابين ستة الاف وثمانية آلاف يهودى يشتغلون بتجارة الجملة

والسمسرة والبورصة وتجارة الأحجار الكريمة وصنع الساعات والبقالة والإتجار في الملابس القديمة، وكانت هذه الجالية اليهودية في لندن تفوق في عددها بقية الجاليات. وعاش عدد أقل من اليهود في ليدز ومانشستر.

١٧٩٤ : ألفّ الكاتب المسرحي ريتشارد كمبرلاند مسرحيته «اليهودي» التي تمجد بني إسرائيل وترفع من شأنهم وتستهجن زراية المسيحيين بهم.

١٨٠٧ : وصف الأديب روبرت ســـزي Sout hey في «خطابات من إنجلتـــرا» اليهود بأنهم لايقيمون وزناً لغير المال وأضاف أن إنجلترا صارت جنة اليهود.

١٨١٩ : وصف السير والتر سكوت في روايته «إيفانهو» محنة اليهود من منظور تاريخي وأظهر كثيرًا من العطف عليهم.

١٨٣١ : كتب ريتشارد هازليت مقالا يدافع عن اليهود بعنوان «عنكبوت العقل» جاء فيه مايلي : «إذا كان اليهود أشرارًا فنحن الذين جعلناهم كذلك» وفي نفس هذا العام كتب الأديب ماكوني مقالاً بعنوان «الصلاحيات المدنية التي لا يتمتع بها اليهود Civil Disabilitis of the Jews أنه إذا كان من الواجب استبعاد اليهود من السلطة السياسية فإن الواجب أيضًا يحتم على الإنجليز معاملتهم بنفس الطريقة التي عاملهم بها أسلافهم أي أن يقوموا بقتلهم ونهبهم والسطو عليهم.

١٨٣٣ : تناولت الروائية ماريا إدجورت في رواية «هاريختون» اليهود على نحو متعاطف.

١٨٣٣ - ١٨٥٥ : بعد أن قام البرلمان الإنجليزي بتكرار رفض مشروع قانون تحرير اليهود وافق عليه في نهاية المطاف، الأمر الذي أدى إلى دخول الثرى اليهودي المعروف روتستشايلد البرلمان فضلا عن أنه أدى إلى انتخاب اليهودي دافيد سولونز مأمورًا للندن.

١٨٣٧ : رسم تشارلز ديكنز شخصية رئيس العصابة اليهودي فاجين في روايته «أوليفر تويست» وفي نفس العام تم انتخاب بنيامين دزرائيلي اليهودي الذي اعتنق الدين المسيحي وأحد رواد الحركة الصهيونية عضوًا في البرلمان الإنجليزي.

١٨٤٠ : تم تعيين اليهودى السير موسى مونتفيور سفيراً لإنجلترا فى دمشق وسعى جاهداً بمساعدة الحكومة البريطانية إلى حماية اليهود فى كل أنحاء العالم.

١٨٤٤ : ألّف دزرائيلى رواية بعنوان «كوننجزبى» Coningsby يمتدح فيها بطولة اليهود.

١٨٤٧ : ألّف دزرائيلى رواية تانكرد Tancred التى تظهر تعاطفاً مع اليهود.

١٨٥٠ : فى عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر تم تأسيس صحيفة «الجويش كرونيكل» وكلية اليهود «لدراسة اللاهوت» ومنظمة خيرية باسم «مجلس الأوصياء اليهود».

١٨٦٤ : كتب ديكنز رواية «صديقنا المشترك» كنوع من الاعتذار لتصوير اليهودى فاجن كرئيس عصابة فى «أوليفر تويست».

١٨٦٨ - ١٨٨٠ : تولى دزرائيلى رئاسة وزراء بريطانيا لفترتين متتاليتين.

١٨٧٥ : ألفّ أنتونى ترولوب رواية «الطريقة التى نعيش بها الآن» يصور فيها اليهودى كحشرة طفيلية وإنسان وصولى ورمز للفساد الاجتماعى.

١٨٧٦ : ألفت جورج إليوت روايتها «دانييل ديروندا» التى تبرز بطولة اليهود وتدافع عن الصهيونية فى وقت مبكر للغاية.

١٨٧٨ : تكونت اللجنة الخارجية المشتركة للدفاع عن اليهود خارج إنجلترا.

١٨٨١ : تعاظم عدد المهاجرين اليهود إلى إنجلترا بسبب تعرضهم لاضطهاد فى روسيا ثم أنشأوا حى اليهود (الجيتو) فى الإيست إند (شرق لندن) بالإضافة إلى مانشستر وليفربول وجلاسجو وعارض أثرياء اليهود فى إنجلترا انعزال بنى جلدتهم الفقراء عن المجتمع الإنجليزى.

١٨٨٠ - ١٨٩٠ : أدت هجرة أعداد كبيرة من اليهود من روسيا إلى إنجلترا إلى تصاعد المشاعر المعادية لليهود فقد اتهمهم الإنجليز بإفساد المجتمع وخلق أزمات إسكان وبطالة وانتشار الأمراض والأوبئة كما اتهمهم ج. أ. هوبسون وبياتريس بوتر وكثيرون آخرون بأنهم رأسماليون يمتصون دم الفقراء وهمج برابرة.

١٨٩٤ : ألّف جـورج دى مـورير Yeorge Du Maurier رواية «تـربلـى» Trilby التى تصـور قدرة اليـهودى على سبى العـذارى المسيـحيات وإخضـاعـهن لسـحر جاذبيته الجنسية.

١٨٩٦ : ألّف آرثر مـوريسـون Arthur Morrison رواية بعنوان «طفل جـاجـو : أريـون ويـتـش A Chied of Jago التى تدور حـول لص يهودى يتسبب فى تحطيم حياة طفل يدعى ديكى بيروتى على نحو ماحدث فى رواية ديكنز «أوليفر تويست».

١٨٧٩ - ١٩١١ : شن اليـهـود حـملة فـاشلة لفـرض الخطر على الفـصـل الذى سطره السير ريتشـارد بيرتون Burton بعنوان «الضـحية الآدمية بين السـفارديين أو اليهود الشـرقيين «فى كتابه اليهـودى الغجرى والإسـلام» The Jew, The gypsy and Elislam.

١٨٩٧ : دعوة ثيودور هيرزل لعقد أول مؤتمر صـهيونى فى بازل بسـويسـرا من أجل أنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

١٨٩٩ - ١٩٠٢ : نشوب حرب البوير فى جنوب إفريقيا والاعتقـاد الشـائع بأن الرأسمالية اليهودية أشعلت نار هذه الحرب.

١٩٠١ : ألّف دافيد فيلبسون كتاب «اليهودى فى الرواية الإنجليزية».

١٩٠٣ : ألّف ج. إيفـانز جـوردون J. Evans gordon كـتـابًا بعنوان «الأجنبى المهـاجـر» The Alien Immigrant. وأيضًـا فى نفس العام ظهرت فى روسـيـا لأول مرة «بروتوكولات حكماء صـهيون» التى تتضـمن وثائق مزورة حـول مؤامـرة يهودية دولية للسيطرة على العالم.

١٩٠٣ - ١٩٠٤: الحكومـة البريطانيـة تفكر لأول مرة تفكيرًا جديًا فى تـهـجـير اليـهود إلى شـبـه جـزيرة سـيناء أو إلى شـرق إفريقـيا. وفـى عام ١٩٠٤ نشـأت فى ليمريك بإيرلندا مشكلة جسيمة بسبب قيام أحد القساوسة برفع دعوى قضائية تتهم اليـهود بسـفك دمـاء المسيـحيين، الأمـر الذى أدى إلى اندلاع أعـمـال الشـغب وإعـادة توطين معظم يهود ليماريك فى مكان آخر.

١٩٠٥ : صدر في إنجلترا قانون الأجانب لتحديد عدد المهاجرين إليها وتعالت أصوات مطالبة بأن تكون إنجلترا للإنجليز الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى تراجع حركة الهجرة بمقدار ٤٠٪.

١٩٠٧ : ألف ج. بانستر J. Bannister كتابًا بعنوان «إنجلترا تحت الحكم اليهودي» England The Jews.

١٩١١ : أصدر هيلبر بيلوك صحيفة أسبوعية بعنوان «شاهد عيان» تدعو إلى فرض القيود على اليهود المهاجرين إلى إنجلترا وتقول بوجود مؤامرة يهودية دولية للسيطرة على العالم.

١٩١٣ : تفجرت فضيحة ماركوني وإتهام الوزراء اليهود بالتآمر للتربح وجني الثروات من وراء تجارة الراديوهات.

١٩١٤ : في يونيو من هذا العام تولى ويندهام لويس تحرير مجلة «الانفجار رقم ١» Blast 1. وفي نفس هذا العام تم التصديق في إنجلترا على قانون الأجانب.

١٩١٥ : في يوليو من هذا العام تولى ويندهام لويس تحرير مجلة «الانفجار رقم ٢».

١٩١٧ : اشتدت المشاعر المعادية لليهود في الصحافة الإنجليزية ونظمت في كل من لندن وليدز مظاهرات صاخبة بشأن استبعاد الروس اليهود المنحدرين من أصل ألماني من التجنيد والاشتراك في الحرب وأيضًا وجهت إلى اليهود في نفس السنة تهمة إشعال نار الثورة البلشفية.

١٩١٨ : ألّف ويندهام لويس رواية «تار» Tarr.

١٩١٩ : تم تأسيس جماعة شديدة العداء للسامية باسم «البريطانيون» تنادي بطرد اليهود أو إبادتهم.

١٩٢٠ : ألّف الشاعر ت. س. إليوت قصيدتين تهاجمان اليهود إحداهما بعنوان «جيرونتيون» gerontion و «الأخرى بعنوان «بيربانك» Burbank وفي نفس هذا العام يظهرت أول طبعة إنجليزية في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» وعندما

تأسست عصبة الأمم فى هذا العام اتهمها الكثيرون بأنها أداة فى يد اليهودية العالمية.

١٩٢٢ : ألف هيلبر بيلوك كتابه «اليهود» هاجم فيه تضخم النفوذ اليهودى فى إنجلترا وفى نفس العام أسندت عصبة الأمم إلى بريطانيا مهمة الانتداب فى فلسطين الذى استخدم لغة مطاطة وملتوية تعد بتوطين اليهود فى جزء من فلسطين وليس كل فلسطين الأمر الذى أثار غضب العرب.

١٩٢٣ : أسس روثر لينتون أورموند منظمة البريطانيين الفاشست.

١٩٢٦ : ألف م. ج. لاندا كتابه المهم «اليهود فى الدراما». وفى نفس العام أصدر ويندهام لويس «فن الخضوع للحكم».

١٩٢٧ : ألف هيو والبول Walpole كتاباً عن اليهود بعنوان «أرميا فى كيرال Jeremy at Crape.

١٩٢٨ : أنشأ أرنولد لى Arnold Lee العصبة الفاشية الإمبريالية» التى نادت بإبادة اليهود فى غرف الغاز.

١٩٢٩ : ألف ويندهام لويس رواية «بالنياس» وجراهام جرين «رجل بالداخل» كما ألف هكسلى «افعل مايحلو لك».

١٩٣٠ : ألف ويندهام لويس «قردة الله وهتلر» كما ألف جراهام جرين «اسم الفعل».

١٩٣١ : ألف تشارلز ولیامز «الحرب فى السماء» وولیام جیرهاردی Gerhardi «مذكرات متحدث بعدة لغات». وعندما مر العالم بأزمة طاحنة نتيجة الكساد العظيم بادر اليمين الإنجليزى المتطرف باتهام اليهود بأنهم السبب فى نشوء هذه الأزمة.

١٩٣٢ : أسس السير أوزوالد موسلى منظمة «اتحاد الفاشست البريطانى» التى انضم إليها كل من أ.ك. تشسترتون ووليم جويس. وقامت هذه المنظمة بالاعتداء على اليهود فى حى الإيست إند فى لندن. كما ألّف ويندهام لويس «مصير الشباب» وجراهام جرين «قطار اسطنبول».

١٩٣٣ : حظّرت ألمانيا على اليهود العمل فى مجال الخدمة المدنية والمدارس وسلك المحاماة والقضاء. وفى نفس العام اتفقت المؤسسات الأنجلو يهودية على أن تتحمل الجالية اليهودية فى إنجلترا جميع نفقات توطين اليهود المهاجرين من ألمانيا دون أن تتحمل الحكومة البريطانية فى ذلك أى أعباء. والجدير بالذكر أن مابين خمسين ألف وخمسة وسبعين ألف لاجىء يهودى وصلوا إلى بريطانيا قبل عام ١٩٣٩ بمساعدة عدد من المنظمات الإنسانية الأمر الذى أثار حنق الصحافة البريطانية اليومية. وزادت هجرة اليهود إلى فلسطين زيادة تصل إلى ٨٠٪ وفى نفس العام ألف تشارلز وليامز «ظلال النشوة» كما ألف دافن دى موريير «تقدم يوليوس».

١٩٣٥ : حظرت قوانين نورنبرج فى ألمانيا زواج اليهود من غير اليهود. وأشعل النازيون فى ألمانيا النار فى الكتب لتطهيرها من الثقافة اليهودية. وفى عام ١٩٣٨ حذت النمسا حذو ألمانيا.

١٩٣٦ : نظم العرب إضرابًا للاحتجاج على هجرة اليهود إلى فلسطين وطالب مفتى القدس بإنهاء الهجرة اليهودية وحظر بيع الأراضى إلى اليهود وفى هذا العام أيضا نشر ويندهام لويس كتابه «أجنحة يسارية رفرفت على أوروبا». «وأيضًا نشر جراهام جرين «بندقية للبيع ورحلة بدون خرائط: كما نشر إ. م فورستر «أبنجر هارفست». وفى أكتوبر ١٩٣٦ وقعت فى شارع كابل فى لندن تمكن فيها أعداء الفاشية من منع الفاشست البريطانيين من اقتحام حى الإيست إند.

١٩٣٧ : تعرض يهود لندن إلى هجوم البريطانيين الفاشست عليهم. وفى يوليه من هذا العام أوصت لجنة بيل Peel البريطانية تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ورحبت الحركة الصهيونية بهذا الاقتراح فى حين رفضه العرب بشدة وأيضاً ألّف ويندهام لويس فى نفس العام روايتى «أحصوا موتاكم» و«التفجير».

١٩٣٨ : حدثت فى شهر نوفمبر من هذا العام مجزرة كريستا لفاخت فى ألمانيا حصدت أرواح ٦١ يهوديا والقى القبض على عشرين ألف يهودى تم إرسالهم إلى

معسكرات الاعتقال. وفى شهر نوفمبر من هذا العام هاجر خمسون ألف شخص من ألمانيا إلى بريطانيا. وأيضا نشر جراهام جرين روايته «بريتون روك» ووليم جيرهاردى» زوجتى أقلها» وكريستوفر إيشروود «الأسود و الظلال».

١٩٣٩ : أعلن هتلر نيته فى التخلص من اليهود فى أوروبا وتدهور أوضاع اليهود فى البلاد الأوروبية التى احتلها هتلر. وفى مارس ١٩٣٩ أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بيانا تراجعت فيه عن فكرة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين واقترحت تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق كما أنها وضعت العراقيل أمام هجرة اليهود إلى فلسطين ووصف الزعيم الصهيونى المعروف وايزمان هذا التراجع بأنه أحلك وقت فى تاريخ اليهود. وفى هذا العام صدرت عدة مؤلفات عن اليهود فقد ألف ويندهام لويس «اليهود: هل هم آدميون؟ «وكريستوفر ايشروود» وداعًا يابرلين» وجراهام جرين والطرق الخارجة عن القانون» كما ألف مونتاجيو مودر كتابا مهمًا بعنوان «اليهود فى أدب إنجلترا».

١٩٣٩ - ١٩٤٦ : اتبعت إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية سياسة متشددة نحو اليهود فقد رفضت السماح بدخول أى مهاجرين يهود قادمين من البلاد الأوروبية الواقعة تحت الاحتلال النازى كما رفضت السماح لهم بدخول المستعمرات البريطانية أو فلسطين داعية البلاد الأخرى إلى توطينهم على أراضيها.

١٩٤٠ : قامت بريطانيا بإغلاق الموانئ الفلسطينية فى وجه السفن التى تحمل اليهود القادمين من ألمانيا وأيضا أشارت فى تقاريرها إلى التهديدات والأخطار التى يمثلها الطابور الخامس أو الجواسيس الأمر الذى خلق فى بريطانيا جوا هستيريًا ضد اليهود فتم إرسال ثمانية آلاف يهودى أجنبى إلى كندا وأستراليا غرق الكثيرون منهم فى عرض البحر. ولكن إنجلترا فيما بعد قامت بانتهاج سياسة مغايرة. وفى هذا العام ظهرت منشورات فى كل أرجاء لندن تتهم اليهود بالتخطيط للحرب وتمويلها ثم دفع الإنجليز إلى الهلاك فى أتونها. بالإضافة إلى ظهور منشورات تحرض على قتل اليهود ووضع حد للحرب.

١٩٤١ : أصدر الزعيم النازى هتلر أمرًا بمنع هجرة اليهود من الأراضى الواقعة تحت الاحتلال الألمانى. ثم بدأت عمليات تهجير لهم واسعة النطاق خارج ألمانيا أعقبها نفى لليهود القادمين من هولندا وبولندا وفرنسا المحتلة. وفى بولندا تمت تصفية أحياء اليهود. وفى ديسمبر من هذا العام أبحرت السفينة ستروما وعلى ظهرها عدد كبير من يهود رومانيا. ولكن السلطات البريطانية اعترضت طريقها ورفضت السماح لها بالرسو الأمر الذى أبقاها عائمة على سطح الماء لمدة شهرين كاملين مما أدى إلى غرقها فى البحر الأسود. وأيضا فى شهر ديسمبر بدأ النازيون فى تشغيل معسكر إبادة اليهود فى تشلمنو. ولكن إنجلترا استمرت فى اتباع سياسة رفض هجرة اليهود إلى أراضيها. وفى أواخر عام ١٩٤١ بدأت أنباء إبادة اليهود فى معسكرات الاعتقال تصل إلى مسامع بريطانيا عن طريق السفير البولندى ووزير هولندى وكثير من اليهود أنفسهم. وكذلك فى نفس هذا العام ألف تشارلز ليامز كتابه «السحر».

١٩٤٢ : فى شهر يناير من هذا العام عقدت ألمانيا النازية مؤتمر فانسى لتدارس مايعرف بالحل الأخير ومعناه القضاء المبرم على اليهود بحيث تحل مشكلتهم إلى الأبد. وفى أغسطس من نفس العام كتب ممثل المؤتمر اليهودى العالمى فى جنيف تقارير عن الخطط التى وضعها النازيون لإبادة اليهود عن بكرة أبيهم. وفى شهر ديسمبر قدم السفير البولندى التقارير الخاصة بإبادة حى اليهود فى وارسو، وكذلك إبادة جميع يهود بولندا. وبعد أن كررت الحكومة البريطانية تجاهلها لعمليات الإبادة هذه قام أنتونى إيدن فى مجلس العموم البريطانى بالتهديد بالانتقام من مقترفيها دون أن يقدم للضحايا ملجأ أو ملاذًا. والجدير بالذكر أن الفاتيكان رفض إدانة هذه العمليات. وفى نفس العام نشرت الكاتبة الإنجليزية المعروفة فيرجينيا وولن مقالا بعنوان «أفكار حول السلام أثناء غارة جوية «ضمنته كتابها «موت العته» The Death of The moth كما ألف ايفيلين فوه «ارفعوا المزيد من الأعلام» Put Out More Flags.

١٩٤٣ : انعقد المؤتمر الأنجلو - أمريكى فى برمودا فى إبريل من هذا العام وقرر عدم التدخل لمناشدة هتلر لوقف مايحدث لليهود. كما رفض المؤتمر مساومة

هتلر بشأن حماية اليهود مقابل إمداده بالشاحنات ومواد التموين حسب طلب انجمان. فضلا عن أن المؤتمر رفض إرسال أية مواد غذائية إلى يهود أوروبا وفى هذا العام أيضا هلكت البقية الباقية من يهود الجيتو فى وارسو رغم أنها أرسلت رسالة استغاثة عاجلة إلى الدول الديمقراطية من العالم الحر. وفى الفترة من عام ١٩٤١ حتى ١٩٤٣ اتهم البريطانيون المهاجرين اليهود بالاتجار في السوق السوداء أثناء الحرب. فضلا عن إشاعة الذعر فى محطة مترو الأنفاق فى بنتال جرين مما تسبب فى وفاة ١٢٣ شخصًا. وفى عام ١٩٤٣ أصدر تشارلز وليامز كتابه «شكل بياتريس» وفى مايو من نفس العام أقدم أحد النواب اليهود فى المجلس القومى البولندى على الانتحار احتجاجًا على ما أسماه عدم اكثرات العالم بمأساة الشعب اليهودى.

١٩٤٤ : فى نوفمبر من هذا العام قامت القوات الألمانية المهزومة بتفكيك غرف الغاز ونقل الباقين على قيد الحياة من معسكرات الاعتقال إلى داخل ألمانيا. وبقيت المفاوضات جارية بين الزعيم الصهيونى وايزمان وتشرشل على تقسيم جديد لفلسطين قامت إحدى العصابات الصهيونية بقتل اللورد موين الوزير البريطانى لشئون الشرق الأوسط بسبب عداوته لليهود. وكذلك ألف تشارلز وليامز كتابه «منطقة نجوم الصيف» Region of The Summer Stars.

١٩٤٥ : كتب جورج أورويل مقالا بعنوان «عداوة السامية فى بريطانيا». وفى يناير من هذا العام دخل الجيش الأحمر معسكرات أوستشوتيز للاعتقال ليجد نحو ثلاثة آلاف يهودى لايزالون على قيد الحياة. وفى شهر فبراير أجبرت وزارة الداخلية البريطانية اليهود الألمان واليهود بالنمسا الذين يعيشون على أراضيها على التجنس بالجنسية الإنجليزية. وفى إبريل قام وفد بريطانى بزيارة معسكر اعتقال بوتشنوالد الذى تمكنت القوات الأمريكية من تحريره وهناك تنبه أعضاء هذا الوفد لأول مرة لحقيقة ماحدث ليهود أوروبا. وفى أغسطس من العام المشار إليه عقدت محاكمات نورنبرج.

١٩٤٦ : ألف جان بول سارتر كتابه المعروف «خواطر حول المسألة اليهودية».

١٩٤٧: فى أغسطس من هذا العام اندلعت أعمال شغب مناهضة لليهود فى كل مدينة كبيرة فى بريطانيا تقريبا وذلك عقب قيام الصهاينة فى فلسطين بشنق شاوشين فى الجيش البريطانى وفى نفس العام تخلت بريطانيا عن انتدابها فى فلسطين.

١٩٤٨ : ظهرت قصائد الشاعر إزراباوند المناهضة للسامية بعنوان «قصائد بيزان Pisan Cantos.

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

١ - كتب باللغة العربية :

١ - برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦١.

٢ - برتراند راسل المفكر السياسى، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦.

٣ - دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

٤ - توفيق الحكيم الذى لا نعرفه، مطبعة وهدان، ١٩٧٤.

٥ - اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.

٦ - برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١.

٧ - س. ب. سنو والثورة العلمية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.

٨ - موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠ - ١٩٣٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٩ - موقف ماركس وأنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤.

١٠ - شكسبير فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١١ - ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١٢ - جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

١٣ - الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٤ - وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٥ - أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١.

١٦ - الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١.
١٧ - الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣.
١٨ - الثالوث المحرم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.
١٩ - الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥.
٢٠ - دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الألسن. جامعة عين شمس، ١٩٩٥.
٢١ - من ستالين إلى جورباتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦.
٢٢ - الإلحاد فى الغرب، سيناء للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧.
٢٣ - الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧.
٢٤ - العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧.
٢٥ - الرجل الذى مات، تأليف د. هـ. لورانس (ترجمة)، دار الهلال، يوليه ١٩٩٧.
٢٦ - ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨.
٢٧ - رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨.
٢٨ - اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨.
٢٩ - موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨.
٣٠ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
٣١ - سيرة حياة برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
٣٢ - اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨.
٣٣ - صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩.
٣٤ - الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠.

٣٥ - اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.

٣٦ - الهولوكوست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.

٣٧ - الهولوكوست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.

٣٨ - اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.

٣٩ - محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢.

٤٠ - محاكم التفتيش فى إسبانيا، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢.

٤١ - محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال، ٢٠٠٣.

٤٢ - أبرز ضحايا محاكم التفتيش، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

٤٣ - محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥.

٤٤ - ألبرت أينشتاين : سيرة حياته. (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥.

٤٥ - ترجمة إنجليزية لكتاب «شكسبير فى مصر». مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٣).

٤٦ - اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥.

٢ - مقال باللغة العربية :

نقد رواية العنقاء، تأليف لويس عوض، المجلة فبراير ١٩٧٠.

٣ - كتب باللغة الإنجليزية :

1- Naguib Mahfouz. The Beginning and the End (Translation), The American Univ. in Cairo. 1975.

2- George Orwell as an Ambivalent Writer, National Bookshop. Cairo, 1978.

3- Animal Farm, National Bookshop, Cairo 1978.

4- Nineteen Eighty Four, National Bookshop, Cairo, 1978.

5- Hardy's Tragic and Ironic Vision in **Tess**, National Bookshop, Cairo, 1978.

6- Shakespeae in Egypt,. Rapack, Cairo, 1980.

7- English Literary Criticism, Univ. Book, Tanta, 1985.

8- Macbeth, Anglo,. Egyptian, Cairo,, 1989.

9- The Mayor of Casterbridge, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1989.

10- Sons and Lovers, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1989.

11- Joseph Andrews, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1989.

12- King Lear, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.

13- Merchant of Venicc. Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1989.

14- Jane Eyre, Anglo, Egyptian, Cairo, 1989.

15- A Passage to India, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1994.

16- Robinson Crusoe, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1994.

17- Animal Farm, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 1995.

18- Lord of the Flies, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

19- As You like It, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

20- The Adventures of Huckleberry Finn, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

21- Oliver Twist, Anglo,- Egyptian,, Cairo, 2004.

22- The Vicar of Wakefield, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

23- Emma, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

24 - A Midsummer Night's Dream, Anglo,- Egyptian, Cairo, 2004.

25- The Tempest, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

26- Julius Caesar, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

27- Hamlet, Anglo,- Egyptian,, Cairo,, 2004.

28- Romeo and Juliet, Anglo,- Egyptian, Cairo, 2004.

29- Twelfth Night, Anglo,- Egyptian,, Cairo, 2004.

30- Sense and Sensibility Anglo - Egyptian,, Cairo., 2004.

31- To the lighthouse, Anglo,- Egyptian, Cairo, 2004.

32- Forthcoming: Egypt in the Modern British Novel: Acollection of Articles on Newby, Ghali, Enright, Forster, Liddell and Olivia Manning, Published in Al-Ahram Weekley in the following issues, 4 July, 5 September, 10,24 October (1991) and 23, 30 January, 1, 23 April (1992).

٤- مقالات باللغة الإنجليزية:

1- John Wain's "Young Visitors", Faculty of Alsun Journal, 1975.

2- "King Lear as a Religious `Play", Faculty of Alsun Journal, 1976.

3- "Orwell as a Literary Critic", Faculty of Alsun Journal, 1976.

4- "The Development of Liberal Culture in Modern Egypt", a series of articles published in the Egyptian Gazette in the following issues, 23, 30 March, 6. 13. 20. 27. 28 April, 4. 11 May, 1983.

محتويات الكتاب

مقدمة : لمحة تاريخية عن اليهود فى إنجلترا. ٣

أهم الدراسات عن اليهود فى الأدب الإنجليزى. ٩
(دافيد فيلبسون - إدوارد كاليش - م. ج. لاندا - مونتاجيو مودر - هيرمان سنشسيمر - برنارد جريبانير - جوشوا تراشيرنبرج - إدجار روزبنرج - هارولد فيش - تشارلز لى كلوين - حنيا ميشيل - ملتون هندوس - فيرا إيبلز دبلانوفا - ليسلى فيلدر - كريستوفر ريكس).

القسم الأول : اليهود فى الكتابات النثرية الإنجليزية فى القرن الثامن عشر (أديسون - ديفو - سويفت - كولمان - فيلدنج - ديكنز - سموليت - ديبدين - ريتشاردسون - ستيرن - جولد سميث - بيرنى - ساموبل جونسون - ريتشارد باترست - كمبرلاند - هو لكروفت - بنثام - بادج). ٢٣

كتاب المسرح الإنجليزى واليهود فى القرن الثامن عشر (يهودى البندقية تأليف جرانفيل - أثر مسرحية «رحلة عاهرة» - كولى كيبر - مسرحية «مستوصف أورشليم» - تشارلز ماكلين - مسرحيات فوت - شيريدان - أندروز وأوكليف - مسرحيات غير منشورة عن اليهود. ٤٦

القسم الثانى : بداية العطف على اليهود فى نهاية القرن الثامن عشر وازدهاره خلال القرن التاسع عشر (كولمان ـ فردريتش فيردناند - دبيدين - حصر بعناوين المسرحيات عن اليهود منذ بداية القرن السابع عشر حتى بداية القرن التاسع عشر. ٧٣

القسم الثالث : اليهود فى الأدب الإنجليزى فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين (جون بوتشان - رديارد كبلنج - جورج برنارد شو - هـ. ج. ويلز هيلير بيلوك - ج. ك تشسترتون. ٨١
القسم الرابع : روائيون إنجليز ثلاثة فى القرن العشرين (ويندهام لويس - تشارلز ليامز - جراهام جرين). ١٣١
القسم الخامس : كتاب أنجلو يهود بعد الحرب العالمية الثانية - كتاب أنجلو يهود من الإيست إند (ليتفينوف - مانكوويتيز - كوبس - أرنولد ويسكر) - كتاب أنجلو - يهود من شرق وشمال شرق لندن (هارولد بنتر وبيتر شافر) - روائيون أنجلو - يهود من شمال غرب لندن (جرانفيل - تشارلز - روبنر - رافائيل) الشعر الأنجلو - يهودى فى فترة مابعُد الهولوكوست (دانى أبس - جون سيلكين) خاتمة شعراء أنجلو - يهود ناجون فى الهولوكوست. ١٧١
تواريخ مهمة عن اليهود فى إنجلترا. ٢١٩
كتب وأبحاث أخرى للمؤلف. ٢٣٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org

عكف الدكتور رمسيس عوض على تأليف مجموعة من الكتب عن اليهود فى الآداب العالمية، وقد سبق له أن نشر كتبًا عن اليهود فى الأدب الأمريكى والأدب الروسى والأدب الفرنسى.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا يتناول موقف الأدباء الإنجليز من اليهود منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين، ويتضح لنا من دراسات الدكتور رمسيس عوض أن عددًا كبيرًا من الكُتَّاب العالميين يحملون لليهود البغضاء والكراهية، ولكن هذا الموقف تغير إلى حد ما مع مجىء القرن الثامن عشر وظهر نوع من العطف على اليهود فى القرن التاسع عشر وخاصة فى كتابات الأدباء الرومانسيين. والكتاب فريد فى نوعه ويملأ فراغًا فى المكتبة العربية التى تفتقد إلى مثل هذا النوع من الأبحاث والدراسات.



٧٠٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب